

سلسلة أعلام الفكر العالمي

المؤسسة
المدنية
للدراسات
والبحوث



تروتسكي

ترجمة: نديم خوري

نجل هاو

تروتسكي

سلسلة أعلام الفكر العالمي

تروتسكي

تأليف : إيفان فنتز هاه

ترجمة

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساقية الخنزير

ت : ٣١٢١٥٦ - برقياً : موكيالي ، بيروت

ص . ب . ١٦ / ٥٤٦٠ بيروت

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى

أيار (مايو) ١٩٧٩

المقدمة

ما هذا إلا كُتَيْبٌ يبحث في موضوع ضخم . ولقد كتبته لسبيين ؛ كديباجة عن حياة والفسكار شخصية رئيسية من شخصيات القرن العشرين ، وثانيا كنقد سياسي - ذهني للدور الذي لعبه في التاريخ المعصري وتعليقاته فيما يختص بهذا العصر .

ولا غروانه في كتاب من هذا الحجم يجب أن يُضغَط كل شيء . ولقد حكّدت اشياء كثيرة كان علي ان اذكرها لو كنت اهدف الى دراسة سيرة حياته ونظرتة السياسية بصورة كاملة ، واذكر هنا على سبيل المثال : مناقشة ما كتبه تروتسكي عن الصين ، ومقالاته العديدة فيما يختص بالستراتيجية الثورية في اوروبا خلال العشرينات ، كتاباته العسكرية وجهوده لاعادة بناء حركة ثورية في الثلاثينات من القرن العشرين . بيد انني لا انتظر بانني انجزت عملي بصورة شاملة . لقد حاولت جهدي ان اقدم الخطوط الرئيسية لتطور افكار تروتسكي تلك الافكار التي يهتم بها كثيراً أي قارئ رزين في عهدنا .

لا شك انه لا يمكننا فصل افكار تروتسكي عن خطة سيره ككائن ماركسي : لا يمكن بل ولا يجب انجاز ذلك بصورة منفردة وكأنها مجرد

اسلوب : حقاً لا يظهر تأثيرها الرائع إلا عندما تبرز في حلة النضال والحوار والكفاح . وهكذا فقد اعددت هيكل سيرة مختصرة : كلمة عن حياته تساعد في عرض افكاره . ولكن هذه ليست سيرة حياة انما هي اطروحة سياسية ذات اساس روائي .

على كل حال فهناك سيرة رئيسية لحياته اعني مجلدات اسحق دوتشر الثلاثة . وقد اقتبست منها وانا اسرد قصة حياة تروتسكي اذ انني اعجب بانجازات دوتشر التاريخية مع انني اختلفه كثيراً فيما يختص ببعض افكاره السياسية . واسمحوا لي هنا ان اقدم جزيل شكري له لما قام به من عمل فذ .

قد اساعد القارئ اذا قلت ان هذا الكتاب قد اثبت من علاقة ذهنية معقدة نوعاً ما في ما يختص بموضوعه . وانشي كمعظم علماء الاجتماع الامريكين وقعت ولادة قصيرة تحت تأثير سياسة تروتسكي . لقد مضى ما يقرب من عشرة عقود منذ ما اخترته في ايام شبابي عن افكاره اما الآن ومع انني عالم اجتماعي او ربما لأنني ما زلت عالماً اجتماعياً وجددتني ابتعد شيئاً فشيئاً عن افكاره . ولكنه بقي في نظري شخصية ذات ابعاد كلها بسالة واحاول ان انظر اليه بكل ما استطيع من موضوعية .

وانا اكتب هذا الكتاب اعتمدت على اطروحة كتبها عن تروتسكي في اوائل الستينات من القرن العشرين ، مستعملاً بعض مواد الاطروحة وانما نفتحت عدداً من الافكار . وبما أن هذا الكتاب اطول من الاطروحة السابقة بحوالي خمس مرات ومراراً ففترة زمنية طويلة من الطبيعي ان يكون بينهما فرق كبير .

وهذه كلمة شكر للعديد من الاصدقاء : مايكل هارنكتن ، امانويل
جلتمان ، ستانلي بلاستريك ، ستيفن كوهن ومايكل ولزر : الذين تكرموا
وقرأوا كل المخطوطة او اجزاء منها ولقد استعنت بكثير من اقتراحاتهم
ولكنني انا وحدي مسؤول عن كل ما هنالك من اخطاء فيما يختص
بالحقائق او الاغلاط في احكامي .

الفصل الاول :

الاعوام المبكرة - النظريات الاساسية

لقد كانت الثورة أمراً يكاد يكون لا بد منه لشاب ذي روح مستقلة يعيش في روسيا في اواخر القرن التاسع عشر . فالمجتمع القيصري في حالة تأخر وخمول . وتغطّت الحياة الدينية والاخلاقية بغشاء كثيف من الظلام ، وكانت العلاقات بين الناس وخاصة في الريف فظةً بشكل واضح ، وبعبارة أخرى علاقات فظة من حيث المبدأ . واعتقد حكام روسيا الاتوقراطيون بانهم يجب ان يسيطروا على الفلاحين بواسطة السوط والدين . وبالرغم من أن الأفكار الحرة العقلانية العلمانية بدأت تعمل مخترقة عقول المثقفين فقد استمرت روسيا الرسمية تُلقِي نظرات الاحتقار على الثقافة وقيمها . بيد ان الاساتذة الحداثيين الذين أكدوا بان هذا لم يكن مجتمعا توتاليتاريا (مستبدًا بالسلطة) فكانوا حتما على حق . فلا هو كفضاً كفاية ، كما وانه لم يكن فيه حرارة كافية ليكون مجتمعاً بهذا الشكل ، ولا وصل الى درجة من الحقد المضلل ليشير رعباً عقائدياً وجسمياً ، ففي روسيا القيصرية بدت السلطة وكأنها قبضة عارية عازمة على البقاء الى الابد : كما لو أن آسيا ستبقى الى الابد مصير الجنس البشري .

ومع ذلك ، ففي عدة عقود سبقت الحرب العالمية الأولى بدأت

تغيرات رئيسية تطرأ في آفاق المجتمع الروسي . نشأت الصناعات في المدن وأخذ العمال يعرضون طلباتهم بشكل واضح وتسربت الافكار الثورية عبر الحدود ونفذت الى عقول طليعة من القادة المتحمسين ، نُظِّمَت الاضراب وسُمِّح لها ، نوعاً ما ، بان تعمل . وربما كان اعظم تغيير اخلاقي بارز جاء على ايدي عظماء الكتاب الروسين الذين اشاروا في كتاباتهم الاحساس بالعار وحرضوا الضائير والتطلع الى حب الكمال والمثالية . وليس هناك ظل من شك بان التقليد الجدي الاخلاقي الذي يميز الدهن الروسي وهو في احسن حالاته اُبْرَزَ مجتمعاً من القراء والكتاب اشتركوا في اظهار القلق والتحدث والتفكير عن مصير امتهن المعذبة .

في هذا المجتمع الروسي ولد ليون تروتسكي . لقد اتخذ هذا الاسم كإثارة شاب اذ أن اسمه الحقيقي هو بف دافيدوفيتش برونشتاين (سنة ١٨٧٩ - سنة ١٩٤٠) ، من عائلة من اليهود الفلاحين الاغنياء التي كانت تعيش قرب البحر الاسود .

هذه الحياة اي حياة الفلاحة لم تكن عادية بين اليهود الروس فتفضيل العمل في مزرعة كبيرة ، على التجارة في مدينة مزدحمة ، حيث يكثر اليهود في (ايليتو) (الاحياء اليهودية) وتفضيل حياة الملاكين الذين يستطيعون ان يُسيثوا معاملة الفلاحين تماماً كما يفعل الجنتايلز (غير اليهود) وكذلك التخلي عن الورع الديني الذي ما زال يقبض على سلوك كثير من اليهود الاوروبيين الشرقيين بيد من حديد ومن هذا يتضح ان هذه الحياة الزراعية الغنية التي عاشتها عائلة برونشتاين ساعدت ولدهم على التخلي عن كل ما يتعلق بالتقاليد اليهودية التي فرضها المتدينون حتى وعلى اكثر ابنائهم تحرراً .

يدو بان هناك بعض الدلائل التي تشير بان البرونشتاني الشاب قد نال في حداثته النزر اليسير من الثقافة اليهودية ولم يفكر والداه ابدأ بان يكونوا جاهلين . وعندما ، فيما بعد ، كتب تروتسكي سيرة حياته مرّ مرور الكرام عن هذه الحقبة من حياة طفولته فالثوار قلماً يهتمون بكتبهم الدينية . في أواخر حياته بدأ تروتسكي يظهر نوعاً من الاهتمام غير المتوقع في « المسألة اليهودية » بيد انه في اوائل شبابه تخلّى كلياً عن فكرة « اليهودية » تلك الفكرة التي اصبحت الآن في نظر الثوار اليهود الروس مجرد عنعنة (كلام منقول) .

وكشابه ذكي المعني انتاب تروتسكي القلق الشديد لما شاهد من البؤس بين الفلاحين وطالما تشاجر مع والده ، كما تقول الروايات ، بسبب سوء معاملته للفلاحين ، وما اكثر ذكرياته وهو يشعر بالعار الشديد لدى رؤيته فلاحاً تنتظر بصمت مطبق طيلة النهار منتظرة كلمة واحدة من « برونشتاين الكبير » . وتقول الرواية انه عندما رأى والده مرة يسيء معاملة احد الفلاحين سارع الصبي « تروتسكي » الى البيت واستلقى على فراشه وقد نسي كل شيء ما عدا ما رآه . يقول : « واخذت أبكي بكاء مرّاً بالرغم من انني كنت طالبا وفي السنة الثانية » .

عندما اصبحت تروتسكي في العاشرة من عمره أرسل الى اوديسا حيث عاش مع أحد اقربائه المثقفين « موسى سبنتزر » ، هنا أخذ الصبي يتعرف على عالم الاحاديث الجدلية والكتب والموسيقى والفنون واوديسا الميناء الواقعة في الجنوب ، والمشهورة بكونها وطناً عالمياً يسهل الدخول اليه ، هذه المدينة كانت تزخر بالمثقفين المتحررين الذين طالما زاروا عائلة سبنتزر . وهناك ايضا أخذ الصبي يتمتع بالتجول في انحاء المكاتب ليأخذ

من ثمار المعرفة اشهاها « نما في صميم قلبه ولع نحو الاوبرا الايطالية تلك الاوبرا التي كانت فخر اوديسا . « ولقد قمتُ ايضا باعطاء دروس خصوصية لاتيكن من كسب نقود كافية لشراء تذاكر لدخول دور التمثيل (التياترو) « يقول تروتسكي ايضا مضت عدة شهور وانا اهميم غراما بمغنٍ « سوبرانو » تصاحبه موسيقى رائعة وبدا لي وكأنه قد انحدر من السماء وحط مباشرة في مسارح اوديسا . واذكر هنا رواية سردها اسحق بابل تتحدث عن فتى يهودي اصبح مشغوقا بمغنٍ في اوبرا في اوديسا . هنا في اوديسا صُمِّمَ أساس احساسات تروتسكي التي دامت طول حياته تلك الاحساسات التي تقول بان « المؤلفين والصحفيين والفنانين يمثلون عالما اكثر جاذبية من أي عالم آخر . ولقد ساعدت اوديسا في جعل تروتسكي رجلا من رجال الغرب اكثر من أي ثائر روسي آخر .

ان اليقظة الثقافية تبرز عادة بصحبة الضمير الاجتماعي . وبالإضافة الى انكباب الصبي على مطالعة الكتب وارتياح المسارح انضم ايضا الى مظاهرة مدرسية ضد معلم اذاق احد الطلاب مرَّ العذاب لمجرد كونه من اصل الماني ، فطُرد تروتسكي من المدرسة لمدة سنة . ان مثل هذا الحادث يعتبر نافها في أي مجتمع حر ولكن حادثاً كهذا في روسيا القيصرية له تأثير عظيم اذ انه يشكل اخلاق الانسان حتى وتاريخ حياته . وعاد الصبي الى المدرسة وقد شعر باحساس زائد بقوته الفردية وبمبول قوية للاستجابة الى طلبات الآخرين وفهم حقيقي لما تستطيع الاحداث ان تفعله كمحرك للمصادر الخلقية . وعندما كتب تروتسكي سيرة حياته، أوّل هذه الحادثة اهتماما خاصا قال :

كانت هذه أول اختبار سياسي بالنسبة لي . وبعدها انقسم الصف

الى ثلاثة اقسام واضحة : الحسودين والبنّامين من جهة والطلاب البواسل والصريحين من الجهة الاخرى ثم كتلة الحياديين والمتذبذبين في الوسط . هذه الفرق الثلاث لم تختف حتى وفي السنين التالية .

يبدو لي ان نظرة تروتسكي الى رفقائه الطلاب في هذه السنين المبكرة بهذه الصورة المحددة ، يبدو لي ، ان هذه النظرة يصعب تصديقها . فالفقرة السابقة ، نموذج لكتابة تروتسكي الكامل النضوج ، نموذج لاسلوب فكري لا يماشى دائما مع اسلوبه الفكري المعروف . كان تروتسكي يعتبر نفسه ماركسياً ارثوذكسياً (مستقيم الرأي) لذلك فانه كان يُصر دائما على القول بان المقاييس الاخلاقية لا يمكن فهمها او تشكيلها بمعزل عن التأثيرات الحاسمة للظروف التاريخية . ومع ذلك فكانه في الفقرة السابقة اراد ان يظهر بشكل بارز في عهد الصبا الشعور الذي اخذ يتحسسه فيما يختص بالكتابات الادبية المختلفة التي خطها الزعماء البلاشفة خلال العشرينات من القرن العشرين اولئك الذين انقطع عملهم امام البيروقراطية الستالينية واولئك « الاحرار البواسل » الذين استمروا مخلصين للعقائد البلشفية- انه يتحدث في تلك الفقرة عن رفقائه الطلاب بلغة القيم الاخلاقية التقليدية . وما فتىء يقوم بنفس العمل طوال حياته مستخدماً المقاييس الاخلاقية المستقاة من المنفعة الطبقية او المُخَفَّضة لتصل الى مستواها . يتحدث عن الشرف والاخلاق والصدق وكانها اشياء ثابتة معروفة ، اذ في مكان ما في الماركسية الارثوذكسية عاش شعاع خفيف من الاخلاق الروسية في القرن التاسع عشر جدياً ورومانطيقياً .

لاتمام ثقافته انتقل برونشتاين الشاب سنة ١٨٩٦ الى مدينة

نقولاً . في هذه المدينة الريفية حصل تروتسكي على اسس الصناعة العصرية وتعرف على الطبقة الكادحة في عصره (البروليتاريا) هنا تعرف ولأول مرة على الافكار الاشتراكية . اعتادت جماعة من الطلاب والعمال أن تجتمع في كوخ بستاني لمناقشة الافكار الجوهرية (الراديكالية) ولم يمض وقت طويل حتى أصبح لبرونشتاين الصوت القائد بينهم والكلمة الفصل . وكأي يهودي آخر يعيش في اوروبا الشرقية كان تروتسكي شديد الذكاء ولكن علينا أن نعرف انه لم يصل الى ارائه السياسية الناضجة بصورة سريعة او دون تردد فكان في مبدأ الامر يتحدث عن نفسه كأنسان يعتقد مبادئ حزب الشعب الروسي وهو مذهب عاطفي يُجَدُّ فضائل الشعب ويهاجم « التعسف الماركسي » وحدث في احدى اجتماعات هذه الجماعة في كانون الأول سنة ١٨٩٦ أن تروتسكي رفع كاسه متحدثاً شابة تعتنق الماركسية وصرخ بغضب « لعنة الله على كل ماركسي وعلى كل من يهدف الى جلب الجفاف والشقاء الى جميع ما يتعلق بالحياة » .

وهل نعتبر انفسنا قد توغلنا كثيراً في الزمن الماضي اذا فكرنا بان تروتسكي منذ هذه اللحظة بدأ يشعر في اعماقه بصراع متواصل دام طيلة حياته : صراع بين ما يشعر به من الجفاف والشقاء الذي تسببه الماركسية اي بالحقيقة بما تجلبه السلطة المستبدة من البهجة والمرح وتلك الناحية الاخرى من حياته التي كانت تبرز بوضوح في كتاباته عن الثقافة والأدب او عندما يجد نفسه في موقف سياسي معارض ؟ على كل حال فان الفتاة التي كانت هدف هجومه ، الكسندرا سوكولو فسكايا ، غضبت غضباً شديداً عندما سمعت لعنة تروتسكي وسارعت بترك الاجتماع مقسمة بان

لا يكون لها أية علاقة مع هذا الشاب القظ . ومن الطريف ان نذكر هنا ان جدالها وشخصيتها قد تركا على تروتسكي اعظم الاثر بصورة اشد مما حاول ان يعترف بها . فليس من الغريب اذن ان ينقلب الى ماركسي وان ينضم الى سوكولو فسكاي . واصبحت زوجته الاولى وظلت زميلة مخلصه له خلال كل السنين .

عندما اصبح في الثامنة عشرة من عمره ، وحسب التقاليد المتبعة في ما يختص بالنضحية حتى وبالنفس تلك التقاليد التي وضع اسسها الراديكاليون الروس في القرن التاسع عشر ، اختار ليف دافيد وفتش برونشتاين حياة نائر محترف . وعندما اتخذ هذا القرار لم يتراجع ابداً مع ان القليل ممن اعتنق هذا المذهب في عصرنا قد عانى الكثير لاعتناقه هذا المذهب ماذا تعني هذه الحياة الثورية ؟ هذا التساؤل ل يجيبنا عليه بكل طلاقة ادموند ولسون فيقول :

« انهم وضعوا حياتهم واعمالهم في كف القدر بسبب اعتناقهم هذا المذهب الذي جعلهم يحتكون بجميع طبقات الشعب ، فطردوا واجبروا بان يستوطنوا في بلاد اجنبية ولكنهم تمكنوا من أن يجيدوا لغة هذه البلاد بسرعة اولئك الرجال والنساء جمعوا درجة غير اعتيادية من الثقافة مع درجة غير اعتيادية من الخبرة الاجتماعية » .

وجدير بالذكر أن قرار تروتسكي هذا لم يكن مجرد قرار مدرسي ، ففي ربيع سنة ١٨٩٧ بدأت جماعته تشكل منظمة سرية أسموها « اتحاد عمال جنوب روسيا » ، وأخذت هذه المنظمة تعقد اجتماعات لمناقشات سياسية واصدرت كراسات تهاجم فيها الظروف التي يعيشها عمال المصانع المحلية .

قام بالكتابة واستعمال الآلة الناسخة برونشتاين نفسه وذلك بمعدل ساعتين لكل صفحة . ولكن تلك الجماعة كانت ما زال ينقصها النضوج ولم يكن تدريبها كافياً فمعن الطبيعى ان تقع في كثير من الاخطاء فهاجمها رجال الشرطة وقبضوا على معظم الاعضاء ، فُجِلِد بعضهم ، أما برونشتاين فقد رُجَّ في حبس انفرادي حيث يكثر القمل ، ثم نُقِل الى سجن في اوديسا وبقي هناك سنة ونصف ثم حكم عليه بالنفي الى سيبيريا لمدة اربعة اعوام .

هناك سكن على ضفة نهر لينا وراء الدائرة القطبية الشمالية . ووجد الشاب الثائر نفسه في مكان حيث كل ما حوله كان « ظلمة دامسة وحالة كبت مريع ، مكان بعيد بعداً شاسعاً عن العالم » . اما اذا قارننا منفى تروتسكي بِمُخَيَّات العمل والمعتقلات التي اقيمت في سيبيريا فيما بعد فاننا سنجد بان منفى تروتسكي ما هو الا دُمَيَّة اطفال . قضى اوقاته وهو يطالع الكتب الماركسية ، ويعقد مباحثات مع زملائه المنفيين ، ويشغل ذهنه ويقوي جسمه ويخلقه . وفي سيبيريا قرأ نسخاً من الجريدة الاجتماعية الديمقراطية اسكرا (الشرارة) وكرَّاس لينين « ماذا علينا أن نعمل ؟ » في هذا الكتيّب أكد لينين الذي سيصبح زعيم البلشفية بانه لا يمكن للثوار الروس أن يعيشوا بالرغم من اضطهاد البوليس الروسي إلا بِخَلْق حزب مركزي منظم تنظيماً عالياً وكله ثوار محترفون يعملون للحزب كل الوقت .

في هذا المنفى في سيبيريا وجد تروتسكي نفسه مطمئناً تماماً كمحرر للجرائد ورغم انه محكوم فلم يشعر بأي ازعاج من اي كان فأخذ يكتب اطروحات عن سلسلة من المواضيع الادبية والاجتماعية وارسل بعضها الى جريدة حرّة في مدينة اركتسك . من المواضيع الأدبية التي خطها يراعه

هناك : رابسن وزولا وجوجل . وبعد مضي ثلاثة ارباع قرن كانت تلك القطع التي خطها قلم شاب في العشرينات من عمره ما زالت تحمل شذا العبقريّة . وانما شؤّه تلك القطع ما فيها من مبالغة بالتفاخر تلك الثقة الزائدة التي تسبلها الماركسية على مَنْ اعتنق المذهب حديثا ويضاف الى ذلك بعض المبالغة الزائدة عن الضرورة ، ولكن تلك القطع تظهر بكل جلاء مواهب ادبية نادرة المثال وهي المقدرة على رؤية مشهد او قراءة نص بكل حرص وعناية . وسأذكر هنا جملة كتبها تروتسكي في مقالة عن الحياة في القرى السiberية ففي هذه الجملة دلالة واضحة على ان تروتسكي كاتب حقيقي : يقول « تموت قرينتنا من المرض وهي في حالة سكون وتفكر » .

وفي اطروحة أخرى يقول « إن منزلة الانسان الروحية هائلة جداً وتنوعاتها لا ينضب لها معين وبالتأكيد فانه لا يستطيع ان يدعي الاصاله إلا مَنْ ينتصب على أكتاف الاسلاف العظام » . إن هذه الفكرة ليست اصيلة في نفسها ولكنها مهمة كمقلعة لكتاب « للآداب والثورة » والنصوص الأخرى التي اصر فيها تروتسكي ضد بعض زملائه الماركسيين قائلا بانه وإن كان من اعظم الثوار فانه يقرر بان استمرار الثقافة الإنسانية له قيمته . أو ايضا « إن هدف الفن هو ليس نسخ الحقيقة بتفصيل تجريبي بل ان يلقي نورا على ماهية الحياة المعقدة وذلك باظهار سماتها النموذجية » . انها لعبارة تصلح لأي ناقد في كل زمن ، وهي ملاحظة تصلح لشاب قد تأثر بصورة شديدة بالكتاب الروس في القرن التاسع عشر وخاصة بالماركسيين الروس وكان جميع هؤلاء قد مالوا الى تقليص استقلالية الفن والى جلب أكداًس من مذهب النفعية فيما يختص بنظرهم الى رواياتهم وقصائدهم .

كان تروتسكي يولي السياسة اعظم الاهتمام خلال سنوات منفاه ، ومن المؤكد بان السياسة كانت تعني للثوار الروس في ذلك العهد ، اول كل شيء ، « المسألة التنظيمية » ، ومعنى هذا السؤال أولا أي نوع من الثورة وأي نوع من الحركة الثورية ممكن القيام به في روسيا القيصرية ، ما الاشياء المتوقعة المنظورة التي يمكن أن يأتي بها الراديكاليون لمهاجمة الحكم المطلق المتأخر ، مع ان بعض المدن شاركت في بعض الميزات التي تتصف بها الرأسمالية ، ذلك الحكم الذي وبشكل واضح كان مجتمعاً له مشاكله الخاصة مشاكل تختلف تماماً عن المشاكل التي يحاول المجتمع الديمقراطي الاوروبي ان يحاربها . يبدو الجدال الماركسي للغرباء جدلاً غامضاً كلياً ولا شك بانه يغلب على هذا النوع من الجدال بان يكون كذلك . ولكن يختفي عادة وراء غشاء يغطي هذا الجدال الغامض اسئلة عظيمة الاهمية حرية بان يجري حوار عليها . « فالمسألة التنظيمية » التي اربكت بضعة الاف من المنفيين في سبيريا وأوروبا هذه المسألة ستؤثر على مستقبل ليس روسيا فحسب وانما العالم بأسره .

في هذه الفترة من التاريخ كان معظم الماركسيين الروس يعيشون في المنفى في أوروبا وأخذوا يقومون بالجهود الأولى لتأسيس اول حزب ديمقراطي اشتراكي لكل روسيا . ولا غرو أن مثل هذا الامر تطلب قبل كل شيء علاقات ائتمن بما كانت عليه فيما بين المعتريين والجماعات الموجودة في روسيا سواء كان وجودهم بطريقة شرعية او شبه شرعية ، وعندما شعر برونشتاين انه قد استقر في هذا المنفى السيبيري البعيد وعندما أخذ يتشوق للقاء عظماء الماركسيين والتعلم منهم والتأثير على المهتمين منهم بالأمور النظرية في خارج روسيا امثال جورج بليخانوف وجوليوس

مارتوف وف . ي . لينين هذا الشعور جعله يهرب من سيبيريا في خريف سنة ١٩٠٢ ولم يكن هذا بالأمر العسير عليه . وشق طريقه عبر روسيا بصورة سرّية وقد اتخذ لنفسه اسم سجان ليكون اسمه الحزبي وبهذا الاسم عرفه العالم وانه لاختيار غريب يشير احتمالات كثيرة فيما يختص بالتحليل النفساني . تسلل الآن تروتسكي (برونشتاين) عابراً الحدود متوجها نحو لندن .

وهناك سار مباشرة الى بيت لينين وقد كان هذا في اوائل الثلاثينات من عمره واصبح معتبراً كشاب متمرس في هذه الحركة الجديدة . وتمشى هذان الرجلان الشوريان طويلا في شوارع لندن ، وهي مدينة غريبة بالنسبة لهما ، كما اعتاد لينين ان يقول - مدينة تخصهم - وتذكر تروتسكي فيما بعد ان هذا التضمن لم يكن يحتوي أي شيء من التأكيد انما كان يتدفق من صميم فؤاد لينين ، وكان يعبر بلهجته اكثر من أي شيء آخر بانه كان هناك دائما نصب عينيهِ الظل الخفي لطبقات حاكمة مسبلة غطاء على جميع الثقافة البشرية . وكان هذا الظل يبدو حقيقيا كوضوح النهار . ولما كان هذا الظل قد اصبح حقيقة بالنسبة لهما أخذوا يسارعان في احاديثهما فيما يختص بالحركات الخفية في روسيا ويحاولان حل الصعوبات التي تقف في سبيل تشكيل حزب متماسك سرّياً هناك .

بدا تروتسكي في نظر عظماء المهاجرين الكبيرين السن أمثال بليخانوف وفيرازا سولتش ومارتوف وكأنه مشكلة محيرة . لقد كان موهوبا الى الدرجة القصوى . اما زاسولتش العطوفة فقد جعلت تروتسكي تحت حمايتها واعلنت بانه ليس هناك شك بان تروتسكي عبقرى . واثار مارتوف في حديثه عن تروتسكي ، وكان مارتوف نفسه محرر جريدة

موهوبا وزعيم المستقبل لحزب المنشفية (حزب سياسي حر روسي معارض للبلشفية) اشار قائلا بان اعمال تروتسكي الادبية « تكشف عن موهبة حقيقية » « ولقد اخذ يتمتع بنفوذ عظيم بفضل مواهبه الخطابية العظيمة » « انه يمتلك المعرفة ويعمل جاهداً لتوسيعها » . وقد اخذ المنفيون ينظرون الى تروتسكي وكأنه تجسّدُ لذلك المتحمس السياسي الذين كانوا ينتظرونه لانعاش حركتهم وعرف تروتسكي في هذا الوقت باسم « القلم » وكان شاباً متحمساً كله حيوية ويتدفق ماء الشباب من عينيه الفتيتين . انما كان يحيط به شيء يجعل منه سيراً خيراً اكان ذلك فنة الرائع او ربما خيلاءه او شخصيته النشيطة الثائرة . اما بليخانوف ، الماركسي الروسي المثقف الدائع الصيت فقد كره تروتسكي لأول وهلة وهذا ليس بغريب لان العباقرة عادة لا يرغبون في مواجهة التلامذة الشباب . لان خبرتهم كافية لتجعلهم يلاحظون أفعى المنافسة وهي تتلوى دائرة حول أغصان الاعجاب . واكتشف بليخانوف ، المفكر والمواطن العالم ، اكتشف بان في تروتسكي بعض صفاته السيئة ألا وهي الغرور الادبي والغطرسة الاخلاقية .

اما نظرة لينين فكانت فيها موضوعية اكثر من تروتسكي اصف الى ذلك ان لينين كان غامضاً وقليل الاكتراث . اعتبر لينين تروتسكي كمنطوق غالي الثمن فيما يخص بزمة الثوار المنفيين الزهيدي العدد هذا بالاضافة الى كون تروتسكي حليفاً له في الخلافات الحزبية التي كانت تصل الى حد الذروة بين محرري جريدة « اسكرا » وبدأ تروتسكي يساهم في تحرير مقالات لهذه الجريدة مقالات مفعمة بنيران الثورة واتسمت هذه المقالات بميزة خاصه عبر عنها لينين بكل ظرف قائلا بانها « فيها آثار من

الاسلوب الصحفي . كتب لينين هذه الكلمات في رسالة بعث بها الى محرري الجريدة موصيا بان يعين تروتسكي في هيئة التحرير . ولا يكاد هذا يعتبر مدحا من لينين . واضاف لينين قائلا « إن تروتسكي يتقبل كل تصحيح بصمت (ولكن ليس بسرعة) » وطالما أثار هذا مشهداً من الاستياء وكان هذا الكاتب الالمعي تروتسكي ذو الاسلوب الرائع في هذا العهد يقف مربوط اللسان امام لينين يتقبل بمرارة انتقادات لاذعة كالسوط فيما يختص ببلاغته .

ومع ذلك فان تروتسكي قد استفاد كثيراً من التدريب الذي مارسه بين المهاجرين وامتعوب منهم وبكل اتقان التقاليد الروسية الراديكالية وتعرف على الاختلافات في وجهات النظر التي كانت تهدد وحدتهم . ارسلوه في رحلة لالقاء الخطب في باريس وهناك كان لخطاباته اعظم الاثر في زُمر الثوار لما اتصفت به تلك الخطابات من البلاغة والحماس . وفي باريس قابل تروتسكي موقفين رائعين اولا الفن الغربي وثانيا الفتاة الروسية الساحرة ناتاليا سيدوفا التي اصبحت زوجته الثانية ورافقته الى آخر يوم من ايام حياته .

ويظهر ان بقايا حب الريف ما زالت تختلج في فؤاد تروتسكي اخبر سيدوفا أن باريس تشبه اوديسا انما اوديسا افضل . وفي مذكرات كتبته سيدوفا فيما بعد حذفت تلك الجملة قائلة انها « سخيفة » اما تروتسكي فقال وهو يكتب مسيرة حياته ، عن هذا الحذف « ومع ذلك فان الامر كان هكذا لانني كنت ادخل في جو مركز عالمي وانا في موقف عنيد وعدائي اشيئه بحالة بربري يكافح في سبيل المحافظة على حياته وشعرت بانني لاصبح مقتربا من باريس وان اتفهمها كل الفهم علي ان اصرف كل ما

املك من الطاقة الذهنية . ولكن كان هناك ايضا عالمي ، عالم الثورة ، وكنت ملزما به دون اي منافس بالنسبة لحقيقته . وفي هذا الوقت كنت اقاوم الفن كما كنت اقاوم الثورة في اوائل حياتي وايضا في ما بعد ، كما قاومت الماركسية وايضا قاومت ، ولعدة سنوات ، لينين واسالييه . والان واثناء منفاي الثاني من روسيا (بعد ثورة سنة ١٩٠٥) اصبحت اميل الى الفن وارتبط به - رأيت كثيراً من الامور وقرأت حتى وكتبت الكثير عنه .

إن خبرة من هذا النوع ومع انها لعبت دوراً في حياة تروتسكي اكبر مما اعترف به فيما بعد هذه الخبرة كان عليه ان يضعها جانبا عندما انغمس بالمجادلات والخلافات الداخلية مع المهاجرين الثوريين .

وقبل الوقت الذي عُقد فيه المؤتمر الثاني للحزب الديمقراطي الاشتراكي الروسي (انه في الحقيقة المؤتمر الأول لأن المؤتمر السابق لم يكن مجدداً) سنة ١٩٠٣ كان تروتسكي قد اصبحت شخصا مرموقا في عالمه الصغير ورفض تروتسكي ان ينضم لأي من الحزبين القائمين حينئذ انضما ما كاملاً : وهما حزب الاكثرية أي حزب البلشفيك وزعيمه لينين وحزب الاقلية وحزب الاحرار (المنشفيك) تحت زعامة مارتوف . فاذا القينا نظرة على ما مضى من الامور التاريخية نرى بوضوح ان الخلاف بين هذين الحزبين كان مقدمة للانقسام العظيم بينهما ذلك الانقسام الذي وصل ذروته خلال الحرب العالمية الاولى واقصد به الانقسام بين جناحي الثوريين والمصلحين للحركة الاشتراكية ولكن في ذلك العهد الماضي وعندما كانت الامور ما زالت غامضة والزعماء ما زالوا مترددين يمكننا أن نجد عدراً حتى وللمراقب النبیه العطوف لاعتقاده بان اعضاء الحزبين انقسموا بشكل او بآخر في غياهب بحر الفلسفة الكلامية القاحل ذلك

البحر الذي اعتبر لعنة في حياة المهاجرين الراديكاليين . وكره تروتسكي ان يرتبط مع أي من الجهازين الحزبيين وذلك لاعتناعه بصحة اختياره وربما ايضا بسبب مزاجه الخاص ، وأخذ يتأرجح تارة الى هذا الجانب وطوراً الى ذاك بغير ثبات ونتج عن ذلك أن ارتاب به تقريبا كل زملائه .

من الصعب أن نحكم عمّن سيُعتبر عضواً في هذا الحزب الجديد : هل هو ذلك الشخص الذي يساهم شخصياً في منظماته (لينين) او ذاك الذي يتعاون عن طيبة خاطر شخصياً وبانتظام تحت ارشاد احدي المنظمات « مارتوف » . إن الاهمية الضئيلة لهذا التساؤل تظهر عندما نعرف انه بعد بضع سنوات انضم مارتوف الى عبارة لينين .

ومع ذلك فسرعان ما اصبحت الاختلافات بين الحزبين تنذر بالفدح النتائج .

في كتابه « ماذا علينا أن نعمل » قدّم لينين رأيه بكل صراحة قائلاً بان الحزب الثوري العتيد في روسيا يجب ان يكون له نظام صارم ومركزية دقيقة لها كيان طبقي (هيراركي) وتتألف من سلك من الثوار المحترفين الذين عليهم ان يكرسوا انفسهم كلية للأعمال الحزبية ويبدلوا النفس والنفس في هذا السبيل . استمعوا اليه وهو يكتب بكل قوة وحزم فيقول :

أؤكد : ١ - لا حركة يمكن ان تدوم دون ان يقوم عليها منظمة ثابتة من الزعماء ليصونوا ديمومتها ٢ - وكلما ازداد عدد افراد الشعب الذين ينضمون الى المنظمة ليشكلوا اساس الحركة كلما ازدادت الضرورة القصوى لمثل هذه المنظمة وكلما ازداد ثباتها .

٣ - وان المنظمة يجب ان تتألف رئيسيا من اشخاص يعملون بالثورة كمحترفين ٤ - في بلاد يسود فيها حكم الاستبداد ، كلما شددنا باختيار اعضاء هذه المنظمة من الذين يعملون في الثورة كمحترفين كلما صعب الايقاع بالمؤسسة و ٥ - كلما اتسع المجال للرجال والنساء من الطبقة العاملة او من الطبقات الأخرى في المجتمع لينضموا الى الحركة ويقوموا باعمال نشيطة فيها .

لا شك بان هذا الرأي فيا يختص بالتنظيم الحزبي قد اتخذ من الظروف السائدة في روسيا والتقديرات لهذه الظروف التي يجب ان تُبنى فيها الحركة الثورية في روسيا القيصرية . تلك الحكومة التي لا تكاد تسمح بأن يُنشأ حزب قانوني يكرس نفسه للتربية العامة وكذلك للنشاطات البرلمانية .

بمثل هذه العبارة اللاذعة شبه روسيا القيصرية وهو يخاطب المؤتمر . واستمر قائلا : « عندما يتوجب علينا ان نقوم بنشاطاتنا بصورة سرّية وان نكون محصورة بدوائر سرّية محدودة حتى واضطرارنا بان نعقد اجتماعات خاصة فلا شك انه من الصعب جداً ويكاد يكون بالحقيقة مستحيلا علينا بأن نُميّز مَنْ الذي يتكلم فقط ومن الذي يقوم بانجاز الاعمال » . واعتقد لينين اعتقاداً راسخاً بان الحزب الثوري يجب ان يتّسم بصفات الجيش وان يكون مستعداً للمعركة وبهذا فانه يختلف اختلافاً بينا عن الاحزاب الرخوة في الغرب بما في ذلك الحزب الديموقراطي الاشتراكي من المشاكل الرئيسية التي تواجهنا ونحن ندرس البلشفية هي ان نقرر الوزن النسبي الذي يجب ان نمنحه للتحديدات الروسية لهذه النظرية الحزبية وكذلك الادعاء بانها تناسب جميع المجتمعات او ان نقرر الوزن النسبي الذي

يرغب لينين ان يمنحه لمثل هذه النظرية .

أما ما حدث في هذا المؤتمر الثاني فهو أن زمرة من المثقفين ثقافة عالية حاولوا جهدهم ان يكتشفوا بماذا كانوا يؤمنون ، كان هناك القليل من الرياء وكثر الشويش والقلق والتردد لاستنتاج رأي متطرف ولهذا فان رأي لينين لم يكن مربعاً أبداً كما اعتبره النقاد فيما بعد . اذ ما هو الامر اللاديموقراطي عند الاصرار بان « المساهمة الشخصية هي التي يجب ان تطلب من اعضاء الحزب ؟ كيف نسمح لانفسنا بأن نعتقد بان في مثل هذه العبارة او أي عبارة أخرى كما اقترح المؤرخون ، يمكن ان نجد نواة مذهب السلطة البلشفية » ؟ .

حتى ولو انه ليس محتملا ان يكون أي من المندوبين قد اعتقد بأن هذا الاختلاف الدقيق بالتعبير بين لينين ومارتوف ما هو إلا مقدمة للصدام المميت بين الشيوعية والديموقراطية الاشتراكية بعد بضعة عقود فمع ذلك اظهروا جميعا ادراكا تاما بان ما يشعرون به من الاخطار المهددة كان ذا اهمية قصوى . تقدم اكسلرود Axelrod المحثك بسؤال للمؤتمر ألا ترون بأن لينين قام باختضاع ادارة كل الحزب تحت سيطرة قلة من حمة المذهب « وجواباً على هذا السؤال أصرّ لينين بأنه بمقتضى الظروف التي فرضتها روسيا القيصرية لا بد من جعل اتخاذ القرارات بيد الزعماء الذين يعيشون خارج روسيا حالياً وحيث يستطيعون ان يتصرفوا بحرية وليس لهذه الخطة من بديل إذ أن العمل بطريقة سرّية داخل روسيا يجعل ايدينا مغلولة .

واستمر لينين قائلاً « لا يمكن ان تختلف عقائد الحزب اذ عندما لا يستطيع ان يعمل بصورة حاسمة فلا شك بأنه سيفشل في واجبه الاساسي الا وهو الاخذ بيد العمال ورفع وعيهم الاشتراكي » أما ما كان يقترحه لينين

بالفعل فهو ما اصبح يدعى بعد ذلك « بالتعبير الماركسي » بحزب الطليعة : « زمرة قليلة العدد محكمة الاتصال ببعضها منظمة كأحسن ما يكون ومكرسة نفسها كلياً للحزب . بهذا نرى أن المسؤلية العظمى اعطيت للمثقفين وهم هيئة من المجاهدين ذوي النظريات الحربية انقطعت عن الاجراءات العادية للمجتمع وحولت نفسها الى نوع من منظمة علمانية تتكلم بلسان الطبقة العاملة وتدافع عنها ولكن بالتأكيد منفصلة عن هذه الطبقة . مهما كان الامر فان فكرة لينين اوضح واكثر جلاء من فكرة مارتوف اذ انها تضمنت قدراً كبيراً من الواقعية فيما يختص بوضع روسيا آنذاك . انما لم يرَ لا بل لم يستطع ان يرى ما تتضمنه اقتراحاته وبما لا شك فيه انه لم يرَ المرتبة العالية التي سيصل اليها الحزب كموجة للتاريخ لذلك فيجب ان تخضع ارادة جميع المساهمين لقادة الحزب .

ورغم كل هذا فقد انفحاز تروتسكي الى جانب مارتوف في هذا النزاع . قال تروتسكي محاوراً بأن النموذج اللينيني للحزب التأمري يسير سيراً معاكساً للقضية الماركسية المنطقية وذلك لأن تحرير الطبقة العاملة يجب ان يتم من خلال جهودها الواعية . في تقرير لاحق كتب تروتسكي عن المؤتمر وهاجم لينين هجوماً عنيفاً بسبب ما سماه « القبضة الحديدية » واتهم لينين بأنه يحاول ان يحول مركز الحزب « المعتدل » الى « لجنة كلية القدرة للأمن العام » بعد سنة أو سنتين انضمت روزا لكسمبرج Rosa Luxemburg ، الثائرة البولندية العظيمة ، إلى الهجوم على لينين قالت « لا شيء يمكن أن يستعبد حركة عمالية فتية مثل النخبة المثقفة المتعطشة للسلطة المسترة بمعطف ضيق من البيروقراطية ولا شك بأنها ستشل الحركة وتحولها إلى آلة اتوماتيكية تديرها ، بإشارة من يدها ، لجنة

مركزية » . وحرى بالذكر أن تروتسكي كان قد وضع نصب عينيه بكل وضوح المقارنة مع اليعاقبة (Jacobins) خلال الثورة الفرنسية الذين وهم يتحدثون باسم الشعب جعلوا من أنفسهم سلكاً من نخبة الثوار تعمل منفصلة عن الشعب أما روزا لكسمبرج فقد كان لها نفس التفكير المنا بطريقة ضمنية .

مباشرة بعد إنتهاء المؤتمر اصدر تروتسكي كراساً بعنوان « واجباتنا السياسية » ضمنه انتقاده للينين . ندّد لينين لرفعه شأن المثقفين الثوريين الى مرتبة أسمى من مرتبة الطبقة العاملة ، ونوّه باخطار خلق حكومة « مستبدة ارثوذكسية » في قيمة الحزب . وبكل ذكاء توقع الاخطار الشديدة الناتجة عن هذا « التبديل » الذي بواسطته تتقدم طليعة من الناس قد عينت نفسها بنفسها مدّعية انها هي نفسها الطبقة التي تتحدث باسمها والتي في سبيلها تقدّم التضحيات الجلى . اعلن تروتسكي عن رأيه في التنظيم الحزبي ورأيه هذا قريب جداً من فكرة روزا لكسمبرج ، التي كتبت تقريباً في نفس الوقت تقول : على الحزب ان يبحث عن ضمان استقراره في نفس قاعدته في الطبقة الكادحة النشيطة المعتمدة على نفسها وليس في اجتماعات زعماء القمة .

من الخطأ ان نصرف هذا الجدل كما لو انه بقايا قدرة للماركسية الاوروبية حتى ولو كان ذلك يسبب واحد وهو ان نفس القضية أو قضايا مشابهة ما زالت تناقش الى اليوم في شتى انواع الحركات السياسية . حتى وأولئك الذين يملّون من تاريخ الراديكالية الروسية قد يتذكرون عبارة كتبها تروتسكي في هذه الآونة لأنها كثيراً ما تظهر في دراسات الثورة الروسية وكذلك في الحوار المضاد للبلشفية . كتب تروتسكي يقول « ان

اساليب لينين تؤدّي الى ما يأتي : في مبدأ الامر تحمل منظمة الحزب محل الحزب ككُلّ ثمّ تحمل اللجنة المركزية محل المنظمة وفي النهاية يحل « دكتاتور » مفرد محل « اللجنة المركزية ويأخذ بزمام السلطة كلها » .

من البديهي ان ما يُلَفِّت النظر هنا هو كون هذه الملاحظة تتوقع الانحطاط الذي سيَلْحَق بحزب البلشفيك خلال العشرينات من القرن العشرين لكن من المشكوك فيه ان يكون تروتسكي قد تكهن بذلك كما يعتقد بعض المؤرخين . ومما لا شك فيه انه ليس هناك اثبات كافٍ للزعم القائل بان تروتسكي في شبابه استطاع ان يتفهم اسباب انحطاط الثورة البلشفية بصورة لم يعترف بها تروتسكي عندما اصبح اكبر سنًا . اذ بينما كانت ملاحظة تروتسكي تَمَسُّ وجهها من وجوه البلشفية التي كثيراً ما كان النقاد يوجهون اليها مختلف انتقاداتهم الخطيرة فان تلك الملاحظة لا تكشف ولا يتوقَّع أن تكشف عن هذه الاسباب المعقدة . وان اي جهد لشرح تطور تاريخي رئيسي مثل قيام الستالينية بتأثير عامل واحد مفرد مثل مذهب لينين التنظيمي سيثبت بانه تفسير سطحي .

يصحّ الآن ان نقول ان حملات تروتسكي ولكسمبرج على وجهات نظر لينين فيما يختص بالتنظيم الحزبي لا بد ان تكون قد توضحت الآن تماماً . « فالطليعة الحزبية » تميل لجعل نفسها مساوية تماماً للطبقة التي تمثّلها وتفترض وجود تجانس في المصالح وجهات النظر في تلك الطبقة وهي مصالح وآراء قلّمًا توجد ولهذا فانها « أي الطليعة الحزبية » ترفض ادعاء أي من الاحزاب الراديكالية بأنها الممثل الحقيقي للطبقة العاملة او لقسم من هذه الطبقة . ومع ذلك فان هذه الميول نحو الاغتصابات السياسية لا تكاد ترهق الواقع المعقد للحزب البلشفي خلال السنين التي

كان فيها لينين هو زعيمها النشط . وعلينا أن نؤكد هنا أن لينين لم يُلغِ النقاش داخل حزبه فبالحقيقة وعلى الأقل حتى اوائل أو اواسط العشرينات من القرن العشرين تميّزت الحركة البلشفية بصراحة بارزة الى حد الشراسة في النقاش الداخلي . واخذت زُمرٌ حزبية تقوم باستمرار وصدرت نشرات متشعبة داخل الحزب وأحياناً كانت جرائد هذه الزمر المختلفة تظهر علانية . ويمكن مقارنة هذا في بعض نقاطه مع سيجل الاحزاب الديمقراطية الاشتراكية الأوروبية اذ بين هذه الاحزاب لم تكن الممارسات البيروقراطية مجهولة .

أضف الى ذلك ان الحيوية الداخلية للحزب البلشفي اثناء زعامة لينين كانت تشكل اساسا كافيا لتمييزها عن الستالينية وعن الستالينية السابقة المتنوعة الاشكال في الاحزاب الشيوعية الأوروبية والآسيوية مما لا يمكن اعتبار ذلك جوابا مناسباً على الانتقادات المتضمنة كثيراً من المشاعر التي يمكن ان نطرحها فيما يختص بوجهة النظر اللينينية . ولا ريب بان ميل البلشفية لاعتبار الحزب كأداة تاريخية « غتارة » ولصرف باقي الاحزاب الاشتراكية كما لو انها من « العوام الحقيرين » او حتى من هم « مناهضين للشورة » وأسبال ، على الحزب ، هالة من الاستقامة المقدسة . ولاعتبار الخط الحزبي الصحيح للحزب الورع المخلص ولترقية الممارسات والبنيان التي تتطلبها الظروف الروسية الخاصة من المفترض ان تكون شاملة ومناسبة لكل البلاد الرأسمالية . كل ما ذكر خلق مواقف معقدة لا يتحملها الجوّ الذي يجب ان تؤسس فيه النظم الحكومية . اما كون البلاشفة يستطيعون ان يتناقشوا ، وبالفعل قد تناقشوا مع بعضهم بكل حرية ، هذا لا يعني مطلقاً انهم كانوا مستعدين بان يتقبلوا القواعد

والتحديات التي تعيش ضمنها الراء الديمقراطية المتنافسة .

وفيما بعد عندما تقبل تروتسكي ارثوذكسية لينين فمن الطبيعي ان يقلل من اهمية حملاته اثناء شبابه على آراء لينين التنظيمية . وكان احيانا يعترف ، باختلاص غير مألوف بين اصحاب العقائد السياسية ، بانه كان مخطئاً . ولكن قبول إما آراء تروتسكي الشاب او تروتسكي الناضج والحكم عليها بالصحة او بالخطأ ، او ان نقارن آراء الواحد بآراء الآخر يجعلنا نفقد بعض التعقيدات والصعوبات التي تكتنف خطة حياته . فالقضية اذن هي ليست قضية تروتسكي « اللّين » ضد تروتسكي « الصلب » ، شبه المنشفيكية ضد شبه « البلشفية » مع أن هناك ما يبرر مثل هذه المقارنة . كما وانها ليست مجرد قضية تروتسكي « الغربي » وقد جذبته الحرية التي تتمتع بها الحياة الثقافية هناك ، ضد تروتسكي « الروسي » الذي اضطر الى الانغماس في بحر السياسات القاسي بسبب ظروف بلاده . يمكننا ان نرى وبكل وضوح أن التدبذب والشك وعدم الاستقرار في اراء تروتسكي قبل سنة ١٩١٧ فيما يختص بالتنظيم الحزبي ، يمكننا ان نرى ذلك كأنعكاس لكفاح داخلي في كل الاعراف الماركسية وخاصة الجناح البلشفي فيما بين البواعث الديمقراطية والاخوية وحتى التصورية وبين ما يُعتبر ضرورات التسلط التي يفرضها الكفاح للحصول على السلطة . وفي مواضيع مختلفة من خطة حياة تروتسكي نراه يميل بقوة الى ناحية ثم الى الناحية الأخرى انما لم يتخلّ مطلقاً عن الفكرة المرتكزة في ذهنه التي أحسّ بأن عليه ان يكتبها مؤقّتا . هذا سبب من الأسباب التي جعلت كثيراً من الزعماء البلشفيك القدامى لا يشعرون بالركون اليه . لقد استطاع تروتسكي أن يثور مثلهم اثناء سني الحرب الاهلية

القاسية ولكن كيف يمكنهم أن ينظروا الى زعيم بلشفي يأخذ عطلة اسبوعين ليكتب عن الآداب ويتكلم مدافعا على الأقل عن حكم ذاتي فني غير كامل .

ومع أن تروتسكي انحاز الى المنشية فيما يختص بالتنظيم الحزبي فانه بدأ في السنين الأولى من القرن يعبر عن آراء فيما يختص بمشكلة جهورية أخرى - ألا وهي العلاقة بين الثورة الروسية العتيدة وبين الاشتراكيين والاحزاب المتوسطة الحرة - وهذا ما جعله يزيد اقترابا من لينين . اذ ، كما اتفق جميع الماركسيين الروس ، كان الواجب الأول هو الاطاحة بالنظام القيصري وتأسيس حكومة تثبت الحقوق الديمقراطية - وهذا يعني بلغة الماركسيين إتمام الثورة الشعبية للطبقة المتوسطة ، اما المنشفيك فقد ناقشوا الامر قائلين ان على الطبقة المتوسطة الحرة أن تأخذ بزمام القيادة وما على طبقة العوام الا أن تقوم بدور المعارضة . وخالف تروتسكي هذا الرأي مصراً على ان يتعد الاشتراكيون عن احزاب الطبقة المتوسطة ولا يقبلوا حلا وسطا مع حزب الاحرار . مما لا شك فيه ان الأمور لم تكن قد اتضحت تماما لتروتسكي بالنسبة لهذه النقطة ولكن هذا الموقف شكّل الاساس لنظرية الثورة التي قدمها فيما بعد واسماها « نظرية الثورة الدائمة » .

ولم يمحض إلا القليل حتى شمل هذا النقاش ، وقد كان نقاشا اكايميا بشكل واضح ، شمل مصائر الملايين من الناس . انما ولحسن الحظ فقد اعمل موقتا وذلك عندما بدأ صوت الشعب الروسي ذلك الصوت الذي طالما كان صامتا وخاملا شرع يثور ضد الطغيان القيصري . ففسى

بيترز برج قامت مظاهرة قادها الكاهن الارثوذكسي الأب جابون Gapon وكان الحشد ينادي مطالباً بالحقوق الديمقراطية ، ولكن سرعان ما أمر القيصر جنوده بأن يطلقوا النار على المتظاهرين . وتناول تروتسكي قلمه اللاذع وأخذ يكتب من جنيف وهو في حالة عالية من التحمس :

إن يوما واحدا من أيام الثورة كان كافيا، وإن يوم احتكاك رائع بين القيصر والشعب كان كافياً لجعل فكرة الملكية الدستورية تبدو وهمية ، غير عملية وكرية . لقد هب الكاهن جابون وهو يحمل في ذهنه فكرة ملك ناثر ضد الملك . ولكن لم يكن مدعوما بالاحرار الملكيين إنما بالطبقة الكادحة الثائرة . وسرعان ما كشفت القناع عن صراعها الثوري وتحولت من تمرد محدود الى حرب حواجز وأخذ الثوار يصرخون « قُليْسقط القيصر ، لقد دمر الملك الحقيقي فكرة الملك » . جاءت الثورة وبذلك وضعت حداً لعهد الطفولة السياسي » .

وخلال سنة ١٩٠٥ كانت روسيا في حالة ثورة صاخبة . وجعل المضربون يغلقون المعامل وازدحمت شوارع المدن بالمظاهرات كما وان بحارة السفينة الحربية بوتكن Potenkin اعلنوا العصيان . وكان تروتسكي أحد المنفيين الأوائل الذين عادوا إلى بيترز برج حيث عاش فترة من الزمن حياة سياسية نصفها حياة عامة والنصف الآخر حياة خفية . في هذه الحقبة الزمنية لم يكن تروتسكي قد انتمى إلى الزمرة المنشيفيكية ولا للبلشفية ، ولكن طالما ساهم بالكتابة في الصحف عن كليهما وانجز ذلك ببسالة لم يستطع أي فرد من الزمرتين ان يجاريه فيها وبهذا اصبح تروتسكي المدافع عن الثورة البسارية . في تشرين الأول اجتمع في العاصمة مجلس (سوفيت) نواب العمال وهو نوع من برلمان ضئيل الأهمية تألف من

ممثلين عن النقابات وأحزاب اليسار والمنظمات الشعبية وسرعان ما أصبح تروتسكي رئيس هذا البرلمان . فتمسك تروتسكي بالامكانيات المحتملة الرائعة لهذه الوسيلة الجديدة العفوية التي ظهرت في العمل السياسي ، وقد خالف بذلك البلاشفة الذين طالما ارتابوا بالمجالس (السوفييت) لأنهم كانوا يخشون أن تهدد شخصيتهم السياسية وسيادتهم الثورية وبقيت تلك الريبة حتى وصل لينين في تشرين الثاني . وعلينا ان نعرف هنا بأن شجاعة تروتسكي الشخصية وجمعه بين الاهداف السياسية الثابتة بالمهارة التكتيكية وما وهبه الله من المعية في الخطابة كل هذه ساعدت لجعله ، ولما يناهز السادسة والعشرين ، زعيماً من الدرجة الأولى : لقد دخل مسرح التاريخ الحديث ولن يزحزحه إلا فأس قاتل . هاكم قطعة من خطاب امام المجلس ، خطاب مقمّم بالفضيلة المتأججة تحدّث فيه عن نقاش مع أحد الأحرار الذي كان يحثه ليتخذ سبيل الاعتدال . قال :

« ذكرته بحادثة من حوادث الثورة الفرنسية عندما صوت المؤتمر معلناً » ان الشعب الفرنسي لن يتحاور مع العدو وعلى اراضيهم » ولما صاغ أحد افراد المؤتمر مقاطعة ومسائلنا « هل وقعتم حلفاً مع النصر » اجابوه « لا إنما وقّعنا حلفاً مع الموت » . أيها الرفاق عندما تصيح البرغوايون ، وكأنهم يفتخرون بخيانتهم قائلين « انكم تقفون وحدهم وهل تعتقدون انكم تستطيعون الاستمرار في القتال دون مساعدتنا ؟ هل وقعتم حلفاً مع النصر » نقدفهم بجوابنا دون تلكؤ « لا ، إنما قد وقّعنا حلفاً مع الموت » .

وقد واجه هذا المجلس اثناء مدة انعقاده التي دامت خمسين يوماً الورطة المذهلة التي تواجه عادة المؤسسات الثورية . ألا وهي : لقد

كانت له القوة التي يستطيع فيها منازلة الحكومة انما لم يمتلك القوة الكافية للاطاحة بها . واخيراً امسكت القيصرية بزمام المبادرة إذ انها لم تكن قد وصلت الى درجة الانحطاط التي وصلت اليها سنة ١٩١٧ اضيف الى ذلك أن الحركة الثورية لم تكن قد وصلت الى درجة النضوج كما وانها كانت حتى الآن عديمة الخبرة . وفي اعمال القمع التي تلت ذلك قُتِلَ وسُجِنَ الألوف ، وسيطرة الرجعية مرة أخرى على روسيا . وقُدِّمَ تروتسكي والزعماء الآخرون للمحاكمة وعندما اصبحت المحاكمة في ذروتها - إذ انه الآن صمد ثابتا مطمئنا الى قوته ومؤمنا بانّه يعرف انه قد ثَبَّتَ نفسه في صفوف عظام الثوار الأوروبيين ومقتنعا تماما انه قد عثر على مفتاح التاريخ - انتصب في المحكمة شامخ الرأس والقى كلمة كلها ذكاء وصراحة ونَحْمَر : هذا نصّها :

أيها السادة القضاة : إن ثورة الجماهير لا تُصنَع انها تَصْنَع نفسها بنفسها . انها النتيجة الحتمية للعلاقات والظروف الاجتماعية وليست نتيجة لخطّة ترسم على ورقة . الثورة العامة لا يمكن ان تنظم مسبقا انما يمكن ان تنتبأ بها وقد اصبَح الكفاح بيننا وبين القيصرية أمراً لا بُدَّ منه لاسباب تعود اليّنا والى القيصرية على السواء . ومهما كان للسلاح من اهمية ، ايها السادة القضاة ، فإن القيصرية لا تمتلك هذه القوة . لا ، ليست مقدرة الجماهير هي في القضاء على الآخرين انما في استعدادهم العظيم للتضحية بأنفسهم وهذا ما يجعل ثورة الجماهير هي التي تُؤمِّن الانتصار في اللحظة الاخيرة .

والنتيجة ! النفي الى سيبيريا هذه المرة ابعاد مدى الحياة . والجحدير

بالذكر هنا انه وبالرغم من سمات السيطرة والاستبداد المسيطرة على القيصرية فان احكامها لم تكن مجدية في اغلب الاحيان اذ ان تروتسكي حتى وقبل ان يصل الى منفاه في الدائرة القطبية الشمالية ، استطاع ان ينجح في محاولة نجاة ساعده بها فلاح مخمور بالقدوكا وقد استطاع هذا الفلاح ان يقطع الطريق مخترقا العواصف الثلجية الكاسحة وعابراً التوندرا المتجمدة وصابراً على ضراوة البرد القارس حتى تمكن بعد اسبوع كامل من إيصال تروتسكي الى شاطئ السلامة ، الى اوروبا .

لا ريب ان هذه النجاة تعتبر عملاً باهراً قام به تروتسكي ولم يرض على الحكم عليه بالنفي المؤبد الا بضعة اشهر ، واذا القينا نظرة على الماضي يمكننا ان نقول ان هذا الانتصار الشخصي قد احاط به بعض التشاؤم . امّا الآن وقد اصبح تروتسكي في امان فقد تناول يراعه وخط اول اعماله الباهرة ، وقد اطلق على كتابه هذا اسم (سنة ١٩٠٥) وهو دراسة تاريخية اظهر تروتسكي فيه وبكل جلاء وقوة توقعاته « تاريخ الثورة الروسية » .

ورغم ان هذا الكتاب المسمى (١٩٠٥) ليس باناً في بُنيته او مفعماً بالتفاصيل فمما لا شك فيه انه تحفة كتابية تاريخية وخاصة اذا تذكرنا ان المؤلف لم يكن قد بلغ الثلاثين ربيعاً من عمره عندما كتب ذلك الكتاب باجزائه غير المرتبطة تماماً مع بعضها . يفتقر هذا الكتاب المسمى (١٩٠٥) الى التسلسل القصصي التاريخي انه قلماً يتطرق الى التعميم التاريخي النظري الذي يُطْمَح اليه . ولا يمكن مقارنته من حيث وضوح افكاره في تصوير الشخصيات الرئيسية ، ومع ذلك فيبدو ان هذا الكتاب (١٩٠٥) في بعض نقاطه سيّجّل للحوادث المقتنة الجلية اكثر منها لو

كانت تاريخاً اُضيف الى ذلك ان ما فيه من معلومات يمكن الاعتماد عليها انما علينا ان نتذكر ان (سنة ١٩٠٥) لم يقع تحت رحمة خطة عقائدية كما حصل في الكتاب الذي أَلَفه فيما بعد . اُضيف الى ذلك انه لا يقدم عوناً لكشف افق التقدم التاريخي ، فالحوادث والشروح ليست منسجمة مع بعضها وباختصار نقول وبكل دَقّة ان هذه الخشونة في تنفيذ العمل وهذا الشك والتردد العرضيان يسببان على (سنة ١٩٠٥) رداءً من الصدق المحبّب .

مع ان تروتسكي كان قصير النفس في سنة ١٩٠٥ إلا انه كان ما يريد في متناول يده وقد عاش فوضى ودوامة الحوادث التي اجاد وصفها . ويرتفع مستوى سَرْد الحوادث ثم ينقطع اذ ان هناك فجوات بارزة في سرد الحوادث وكذلك في الافكار ، ولا ينتظر منه كمالاً أو فحوى ماركسية كاملة في توالي الحوادث ، التي يظهر بين طياتها وبكل جلاء ، القلق وعدم الخبرة والارتجال . ولنقل هذا بشكل آخر وهو ان تروتسكي في كتابه لم يشعر بانه مضطر بان يعالج المشكلة المزعجة القائمة بين البلشفية وبين الامواج العارمة للجمهاير . ولقد لعب البلشفيك دوراً ثانوياً في كتاب ١٩٠٥ ولم يكن ميالاً بان يعطيهم حتى ولا قلامة ظفر اكثر مما اعتقد انهم يستحقون وبدلاً من ان يصور لنا خطة ثورة لا بُد منها تسيطر على الجزء الاخير من التاريخ نجد في كتابه مجابهات بين العناصر ، بين حكم اقلية تافه لا يؤبه له وبين جماهير الشعب الذين اندفعوا فجأة الى محيط الوعي السياسي ، واخذوا يمارسون ولأول مرة مُتَع حُرّيّة الرأي وحُرّيّة الكلام . ليس هناك « يد سواء كانت مرشدة » ثابتة أم مرتجفة من « حزب الطليعة » . ليس هناك إلا التشريع المُرجّل لجماهير الشعب ألا وهو

السوفييت او المجلس الذي يلجؤون اليه التماسا للتاسك والشرعية .

إن كتابة تروتسكي في كتابه ١٩٠٥ واضحة جلية وكباقي اعماله التاريخية تخلو من الرطانة الماركسية ، فالاسلوب القصصي الذي اشتكى منه لينين لم يختفِ ابداً . ينحني الكاتب امام موضوعه يبحث عن اللغة ثم يندفع خاضعاً لاستمرارية وتتابع الحقائق . ومن وقت الى آخر كان تروتسكي يظهر الهزء والاحتقار لحكم الاقلية هذه الأمور لم يعد تروتسكي بحاجة اليها في كتابه التاريخ إذ الآن بعد سنة ١٩٠٥ كانت الاقلية ما زالت تسيطر وتقبض على زمام الأمور بقبضة فولاذية بينما بعد سنة ١٩١٧ لم يبق منها إلا آثار تافهة وقد ظهرت آثار من اسلوبه المستقبلي فالعاطفة المتألقة التهكمية والعين الثاقبة التي تبحث عن اللحظات الدراماتيكية او تكشف عن الأمور المتناقضة كان كل هذا ما زال جلياً في اسلوبه (كما تظهر لنا الصورة المزخرفة التي يدبجها يراعه لزيارة قام بها الى بيت نبيل حيث كان عليه ان يلقي كلمة في جماعة من الضباط الارستقراطيين) .

من الوجهة السياسية تبرز القوة العظيمة لـ (١٩٠٥) بتشديد تروتسكي على وصف الدولة القيصرية والطبقة السامية الحاكمة فيها بصورة مطلقة وليس على سرد نظريته فيما يختص بالثورة الدائمة تلك النظرية التي قد اصبحت مألوفة وغني عن البيان أن هذه الأمور لم تكن جلية تماماً في كتابه « التاريخ » ، فلنصغ اليه وهو يقول :

إن الحكم المطلق وصل الى ذروة قوته عندما اعتمدت الطبقة المتوسطة البورجوازية على عامة الشعب اصبح لها من القوة ما يكفي

لجعلها نداءً لقوى المجتمع الاقطاعي ولا عَرَّو بان حالة الطبقات المالكة والطبقات صاحبة الامتيازات بسبب ما كان بينها من المقاتلات والمهاترات جعلها تقف امام بعضها بشكل متوازن كما وامَّنَ الحد الاقصى من الاستقلال لمنظمات الدولة . . واستطاع لويس الرابع عشر بأن يقول « أنا الدولة » ولقد بدت الملكية المطلقة البروسية في عيني هيغل كفاية في حد ذاتها وكتجسّد لفكرة مثل هذه الدولة وفي غمرة مساعيها لخلق جهاز دولة مركزي اضطرت القيصرية بأن تحارب الهمجية والفقر والتفكك العام في بلاد كانت اجزاؤها المنفصلة تعيش حياة اقتصادية مستقلة اكثر من مكافحة طلبات الطبقات ذات الامتياز في البلاد . لم تكن المشكلة تكمن في توازن الطبقات المسيطرة اقتصاديا كما هي الحالة في الغرب انما ضعف حكم الاقلية البروقراطية هو الذي جعل منها منظمة مستقلة في حد ذاتها . في هذا المجال تمثل القيصرية شكلاً متوسطاً بين الحكم المطلق الأوروبي والحكم الاستبدادي الآسيوي ويغلب عليها الاقتراب من الحكم الاستبدادي الآسيوي .

سواء عن عمد أو عن غير عمد بدأ الآن تروتسكي يتأثر بجزء من أفكار ماركس - ماركس الذي كان قد كتب بأن فرنسا في عهد لويس نابليون قد اعتمدت نوعاً من الحياة المستقلة « ما هي إلا جسد طفيلي خفيف يتصيد المجتمع الفرنسي كما لو بشبكة ثم يسبل على جميع الثقوب غطاء خائفاً » . أما وجهة النظر التي تقول بأن الدولة يمكنها أن تصبح ليس وكالة فحسب تعمل بالنيابة عن الطبقة الحاكمة وانما يغلب عليها بأن تكون جسماً مستقلاً يضغط بشدة على كل المجتمع - إن هذا الرأي ذا الأهمية القصوى في التفكير السياسي في القرن العشرين هذا الرأي يعلق

عليه الماركسيون الكلاسيكيون اهمية كبيرة . أما تروتسكي فقد ناقش تلك الفكرة في كتابه ١٩٠٥ لأنه كان يحاول ان يشرح الميزات الخاصة لحكم الفرد القيصري (الاتوقراطي) ، اما فيما بعد فكان اهتمامه بهذه المسألة اقل بكثير إذ لم تتوضح له رؤية كافية بكون الحكم المطلق في روسيا ما هو إلا أحد المظاهر المعرّشة فوق انواع خاصة من الحكم الطبقي كمظهر ثابت حقيقي من مظاهر التأخر . ما اصعب تلك الايام التي عاشتها الثورة الروسية اذ أخذ القيصر يمارس اشد انواع الانتقام بالغائه كثيراً من حقوق الشعب . ففي روسيا نفسها كادت الحركة الاشتراكية تنهار أولاً بسبب مضايقات الشرطة وثانياً بسبب الانحلال الاخلاقي الداخلي بينما بقي في خارج البلاد شرادم من الاشتراكية الغاضبة . ولم يتوان تروتسكي في حث البلاشفة والمناشفة على اعادة الوحدة بينهما ، وربما لم يكن قد تفهم تروتسكي تماماً مبلغ الاختلاف بين الحزبين او ربما كان يخشى نتائج تفهمه لتلك الحقيقة . أخذ تروتسكي يتجول من مكان الى آخر رغبة منه احياناً وبأمر ابعاد من الشرطة في اغلب الاحيان وفي جميع هذه الحالات لم يستطع ان يكسب معيشته الا بشق النفس وذلك بالمساهمة في مراسلة الصحف السياسية . وأخيراً وجد نفسه في نيويورك خلال سنوات الحرب ومن هنا أخذ يكتب لصحيفة روسية راديكالية واستمر دائباً على هذا العمل حتى وصلت اليه اخبار ثورة سنة ١٩١٧ فاندفع عائداً الى وطنه . وحري بالذكر هنا انه في غضون السنوات الواقعة ما بين الثورتين الروسيتين انحصر انجاز تروتسكي الثقافي في تطوير نظريته التي تبحث في الثورة الدائمة - ومرافعتها ضد النقّاد داخل الحركة - وهو مجموعة جريئة من الامل المختصة بالستراتيجية الماركسية في البلدان المتأخرة .

(١) روسيا القيصرية بلاد متأخرة والواجب الأول فيها هو الثورة

الديموقراطية للشعب تلك الثورة التي ستجابه المشاكل التي كانت قد حللتها ثورات الشعب فيما مضى . واعني بهذه المشاكل : الاطاحة بالحكم المطلق والغاء العلاقات شبه الاقطاعية في الريف وحق تقرير المصير للأقليات الوطنية المظلومة والدعوة الى انتخاب مجلس لتأسيس جمهورية واعلان الحريات الديموقراطية الخ . ويعود سبب تأسيس حكم مطلق قوي مركزي في روسيا هو كونها بلاد متأخرة منذ زمن طويل وهي في حاجة ماسة لتحمي اراضيها الشاسعة من الغزاة . « واعتقد بان الرأسمالية برزت وكأنها ابن الدولة » وأعني بذلك ان المراكز المبعثرة لتطورات الرأسماليين في روسيا القيصرية بدلا من ان تعارض استبداد الحكومة انحازت وبكل عطف اعتمدت على الحكم المطلق البيروقراطي القيصري .

(٢) على كل حال فواجب الثورة الشعبية يجب ان يُتجز في روسيا بعد ان يكون الشعب قد فقد حماسه كطبقة نائرة تلك الحماسة التي تتمتع بها في عهد شبابه ، ويعتري سبب جُبْن وتردد الشعب من الطبقة المتوسطة البورجوازية الروسي الى تأخر وعزلة المجتمع الروسي . وهناك اسباب كثيرة اجتماعية واقتصادية تحفز الشعب الى معارضة الحكم المطلق القيصري ولكنه مضطر الى الارتباط به بروابط من المصالح والوهم والجن . وفوق كل هذا فقد شاركت هذه الطبقة الحكم المطلق بالخشية المتزايدة من الطبقتين الرئيسيتين في اسفل المجتمع الروسي ألا وهما « الفلاحون والعمال » واعتاد تروتسكي وهو يناقش هذه النقطة ان يقتبس جملة لبيتر ستروث (Peter Struve) ، وهو كاتب ماركسي سابق :

« كلما توغلنا في الدهاب شرقاً في اوربا كلما ازداد الشعب عبودية وجبناً وخسّة في سلوكه السياسي » . وبسبب هذا الضعف المتاصل ليس

في وسع الشعب الاعتيادي الرومي ان يقوم بمبادرة ثورية حتى ولو لمصلحته الخاصة أي انه لا يستطيع ان يصنع ثورته المختصة به . واذن ففي دولة متأخرة كروسيا لا تستطيع الا العامة ان تقوم بانجاز الأمور الواجبة للثورة . او بعبارة أخرى وبشكل قد يبدو متناقضاً فتورة الشعب يجب ان تقوم ضد الشعب .

(٣) وإذا فَبِينَا يتوقف على الطبقة العاملة والفلاحين ان ينقلوا الثورة الشعبية فان هذه الطبقات لا يمكن اعتبارها من وزن متساو اجتماعياً أو تاريخياً . فالفلاحون مثلاً بسبب تشتتهم الجغرافي وسلبيتهم التي امتدت قروناً طويلاً ثم ملكيتهم الحقيرة المتوارثة واخيراً افتقارهم الى الفطنة كل هذه الأمور جعلتهم يظهرون غير قادرين بان يتسلموا زمام الزعامة التاريخية فدورهم لم يخرج قط عن كونهم حلفاء صلبين وإنما ثانويين ، لطبقة الحضر .

(٤) اما الحلفاء الوحيدون للفلاحين فقد كانت الطبقة العاملة في المدن - ما لم يكن الفلاحون عبيداً في أرض تمتلكها القيصرية . فالنتيجة الحتمية التي استخلصها تروتسكي هي ان الثورة الديمقراطية الشعبية لا يمكن انجازها في بلاد متأخرة إلا تحت زعامة الطبقة الكادحة التي قد تكون قليلة العدد وتفتقد الى الخبرة فلا يمكنها والحالة هذه إلا ان تكون تحت زعامة حزب ثوري يتكلم باسم الطبقة الكادحة . على أن العمال بعد ان يكتسبوا القوة لن يتوقفوا امام مشاكل الثورة الشعبية فالجهود الدائبة التي تبذل لتعالج بنجاح هذه المشاكل ستضطرهم دون شك ان يتقدموا وراء حدود الملكية الشعبية وكما كتب تروتسكي فيما بعد : « لكي تنمو الثورة الديمقراطية فوراً لتصبح ثورة إشتراكية وبهذا تصبح ثورة دائمة .

(٥) فالثورة الاشتراكية التي بدأت في بلاد متأخرة لا يمكن إكمالها داخل الحدود القومية وذلك لأن القاعدة الاقتصادية ليست مأمونة كفاية كما وأن الطبقة الكادحة ليست قوية كفاية ولا تملك وعياً كافياً . فالقوة يمكن إمساك زمامها والخطوات نحو الاشتراكية يمكن أن تتخذ في حالة واحدة فقط ألا وهي اذا تلاها بسرعة ثورات مُظفّرة في بلدان أوروبا المتقدمة . ومن البديهي ان تأخر روسيا قد يدفعها قُدماً في المقياس الثوري فتصبح تحت سيطرة الطبقة الكادحة وربما تصل الى هذا الحد قبل التي ينظر إليها بكونها ناضجة تماماً لاحتضان الاشتراكية وذلك بسبب بلوغها كمال النمو الاقتصادي . ولكن هذا التأخر بعد أن يحمل الطبقة الكادحة على تسلم زمام القوة ، هذا التأخر سيسبب تدهورها ما لم يأتيها العون من الخارج . أو كما وضّح تروتسكي فيما بعد : « في بلد تسود به قوة الطبقة الكادحة كنتيجة للثورة الديمقراطية يتوقف مصير الدكتاتورية والاشتراكية ليس فقط على القوى المنتجة الوطنية في النهاية إنما على تطور الثورة الاشتراكية العالمية .

من المسلم به انها اجراً نظرية قدمها ماركسي روسي في السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى كما وانها اعظمها تشخيصاً لمعنى الثورة . وتتجلى هذه الجراءة بشكل واضح حتى في هذه الأيام اذا حاولنا ان نخترق حواجز المعاني الماركسية ونتفحص النظرية واضعين نصب اعيننا التوتر الشديد فيما بين البلاد النامية والبلاد المتقدمة في القرن العشرين . ويرى تروتسكي أن المشكلة المزعجة أي مشكلة العلاقات فيما بين التأخر والتصنيع هذه المشكلة التي في عهدنا هذا تشغل اذهان كل السياسيين العظماء ينهي ان تحملها الجراءة التاريخية للطبقة الكادحة البدائية التطور في

البلاد المستعمرة . اما فيما يختص بالمنشفيك الذين يؤمنون بان سكان المدن هم الذين عليهم أن يقودوا الثورة الشعبية فقد كانت نظرية تروتسكي بهذا الخصوص نظرية تافهة وحتى مارتوف ، اعظم اصحاب النظريات المنشفيك فقد كتب يقول : « يحق لنا ان نتوقع ان تقديراتنا السياسية الرصينة ستحفز الديمقراطية الحضرية لتعمل بنفس السبيل الذي سارت عليه الديمقراطية الحضرية في غربي أوروبا في القرن الماضي باجاء من الرومانطيقية الثورية . ويبدولنا ان مارتوف لم يرَ بوضوح كافٍ كم سيكون شكل « الرومانطيقية الثورية » محدوداً اذا توجب ان تعمل بحوافز من « التقديرات السياسية الرصينة » . أما لينين فرغم أنه وافق تروتسكي فيما يختص بالعجز التاريخي لسكان المدن شعر بأن الطبقة الكادحة الروسية كانت اضعف واقل خبرة من أن تلعب الدور العظيم الذي خصصه لها تروتسكي وأكد بأن الثورة يجب ان يقوم بتنفيذها اتحاد بين الفلاحين والطبقة الكادحة اما فيما يختص بالعلاقة الوثيقة بين هاتين الطبقتين فقد رفض لينين ان يوضحها او يتنبأ بها . ويبدو ان فكرة حكومة ثورية تحل محل القيصرية وتشد برباط قوي الرجل العادي والأهداف الاشتراكية بدا ان هذا أمر غير محبب للينين لأسباب عديدة تاريخياً او معروفة مسبقاً : « ان ذلك لا يمكن حدوثه لأن مثل هذه الدكتاتورية الثورية هو الأمر الذي يمكن أن يكون ثابتاً . . لأنه يركز على أكثرية الشعب الساحقة . اما الطبقة الكادحة الروسية فانها الآن تؤلف أقلية السكان الروس » وفيما بعد أي بعد الثورة الروسية اعترف لينين بالنظرية التي سبق وتنبأ بها تروتسكي واذا تأملنا في الماضي فلا نبالغ اذا اضفنا بأن تروتسكي هو الماركسي الوحيد الذي استطاع ان يرى صورة واضحة حقيقية مسبقة لمجرى الحوادث في روسيا .

ولكن ليس هذا كل ما في الأمر إذ أن ذلكاء تروتسكي في تشخيص مظاهر الثورة من الناحية التاريخية مكنا بعد عدة عقود بأن نبيين الضعف الملازم لها . فالستراتيجية العظيمة الشاملة لتحوّل تاريخي عالمي تحت زعامة طبقة كادحة واثقة بنفسها كل الثقة وبصورة متزايدة وتأخذ مثل هذه الطبقة على عاتقها « المهمة » التي خصنها بها الماركسية - ففي الاوقات الراهنة لا نرى أن مثل هذا التشخيص للثورة قد تحقق كما وانه لا يوجد أي دليل يجعلنا نتوقع تحقيقه ، على الأقل بالشكل الذي يقبله تروتسكي ، لا في الدول المتقدمة ولا في الدول النامية . فهناك طبقات أخرى او تشكيلات اشتراكية تصبو الى ميزات وسلطات الطبقات الصاعدة قد زحزحت الطبقات الكادحة جانبا او جعلتها تخضع لاهداف تتضارب مع التوقعات الماركسية . فيبدو الآن أن سيادة الطبقة الكادحة وهي بداية ونهاية نظرية تروتسكي يبدو الآن ان هذه النظرية اصبحت عرضة للتساؤل بصورة متزايدة في الدول الغربية لأن الطبقة الكادحة اصبحت خاضعة للقيود الاجتماعية وتقبلت عن طيبة خاطر الامتيازات والقوانين المتعلقة بالمصلحة العامة اما في الدول النامية فلأن الطبقة الكادحة في حالة ضعف وقلق نسبي . وسواء كانت هذه الحقائق - وهي دون شك حقائق - تشير التشكك بالخطّة المتعلقة بالطبقة الكادحة ودورها في بناء الاشتراكية أم بالنتيجة احتمالات وجود اشتراكية تركز على جهود ديمقراطية مستقلة للطبقة الكادحة . انه لتساؤل ينبغي ان يراود افكار كل اشتراكي عاقل ويكفي ان نلاحظ هنا ان جميع الجهود التي تبذلها القطاعات الديمقراطية في الدول الديمقراطية الاشتراكية الأوروبية كي تنحرف عن الحدود الحالية عن مصالح الدولة كل هذه الجهود لا تؤيد نظرية تروتسكي .

وكمعظم الماركسيين الثوريين لم يستطع تروتسكي ان يتبين المدى الذي ستعمل فيه الطبقة الكادحة في البلاد الصناعية في نطاق النظم البرلمانية لكي تحقق اهدافها . فالعمال الذين يمتلكون بيوتاً وسيارات واجهزة تلفزة ليس من المحتمل ان يقعوا تحت سيطرة الافكار التمردية الا اذا حُرِّموا فجأة وبصورة قاسية من الفوائد التي كسبوها بواسطة نقاباتهم واحزابهم السياسية . ما زال هناك بعض التروتسكيين المخلصين وبعض الماركسيين الارثوذكس يتشبثون بالآمال والرغبات بان تتحقق تلك الرؤية ولكن تحقيقها ما زال مشكوكاً فيه كما وانه لأمر مشكوك فيه تماماً ان تؤدي الى تحول نحو الاشتراكية .

واذا القينا نظرة على الماضي والى خصائص الوضع الروسي نرى بأن المساعدة التي كان تروتسكي يأمل بأن يحصل عليها من الطبقة الكادحة الأوروبية لانقاذ حياة الثورة الروسية من الغرق هذه المساعدة لم يكن لها أي أثر وبعبارة اشمل لم تكن هذه المساعدة آتية لاسعاف الدول النامية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بمقادير كافية لتقطع الطريق على وصمة الدكتاتورية المطلقة التي ستزدهر هناك . كان لتروتسكي قصب السبق في هذه الناحية السلبية : أنكر وصول المساعدة الكافية من الغرب الصناعي لأنه كان مصرّاً كل الاصرار بأن مثل هذا العون لم يكن ليأتي إلا بواسطة طبقة كادحة منتصرة ، ولا شك بأن التطور الاشتراكي للدول غير النامية سيتخذ شكلاً مُشوَّهاً من اشكال الحكم المطلق ١ .

ولقد مال تروتسكي الى المبالغة في تقدير قدرة الدول غير النامية - بأن تأخذ على عاتقها دور الزعامة القومية - طبقة كادحة قد تتمركز في مراكز صناعية قليلة مثل شنغهاي أو بمباي ، فوجهة نظر تروتسكي أن مثل هذه

الطبقات الكادحة على صغرها وحدثتها ستصل الى الطليعة في نضالها ضد السيطرة الاجنبية تشق طريقها عابرة الاصلاحات الداخلية التي خصها بها الماركسيون لأنها تتعلق بثورة الشعب المدني (جمهورية وتقسيم الأرض والحقوق السياسية الخ) وتسير قدماً وبكل بسالة لتتخطى ما مضى من قرون التخلف وكذلك لتغطي المظهر الرأسمالي للتطور التاريخي . لا يمكن لهذا السبيل بأن يتبلور ليصبح ممكناً إلا بالتحالف مع الطبقة الكادحة المنتصرة في الغرب فشعب هذه البلاد النامية الذي يعتمد على رأس المال الاجنبي ويفتقر الى تكريس نفسه للاهداف القومية سيفشل في تحقيق واجباته « التاريخية » ، وجليد بالذكر هنا أن هذا الجزء من نظرية تروتسكي قد أثبتته التجارب بصورة لا يتطرق اليها أي شك . ولقد ثبت دون أي جدال بأن تروتسكي وحده كان على حق فيما يختص بهذه النقطة لا المنشفيك حتى ولا لينين كان على حق . لا يوجد ولم يوجد ولن يوجد أبداً دخول تدريجي هادئ من قبل الدول النامية الى الحالة التاريخية للتصنيع الشعبي الذي سيعيد فعلاً التطور الغربي . فان الثورة الشعبية إذاً يجب أن تتم دون زعامة شعوب البلاد النامية وربما بشكل معارض لها ولقد ثبتت في هذه الايام صحة هذه النظرية . ولكن تروتسكي فشل في معرفة وجود احتمالات اخرى خلف ظلال التوقعات الماركسية (أو أي أمر آخر في زمنه) . ففي بعض البلدان مثل الصين ولبنان ستم الثورة للحصول على الاستقلال الوطني ضد السيطرة الاستعمارية ستم هذه الثورة ليس تحت زعامة الطبقة الكادحة وإنما بثورة نخبة من المثقفين الوطنيين ينعتون بشبه مثقفين بيروقراطيين حزينين يستعملون عبارات ورموز الشيوعية للحصول على السلطة المطلقة . ستجد مثل هذه النخبة عوناً في الريف أكثر مما تجد بين الطبقة الكادحة في المدن ٢ .

إن واجبات « التحديث » ، اصطلاح عصري حل محل « الثورة الشعبية » في المناقشات السياسية الحديثة هذا الاصطلاح لم تتبناه أي من الطبقات التي كان تروتسكي يعترف بها : لا طبقة سكان المدن ولا الطبقة الكادحة . إنما تعهدت البيروقراطية المستبدة بالقيام بهذه الواجبات هذه البيروقراطية التي رفعت نفسها فوق جميع الطبقات : فوق الطبقة الكادحة المُرْهقة وغير الآمنة وفوق طبقة الفلاحين الخاملين وكذلك فوق طبقة سكان المدن المشتتين . يمكن لمثل هذه المنظمة ان تدعو حشداً كبيراً من الشعب للقيام بتحركات سياسية إنما قلما تمنحهم الحق للتمتع بممارسة سياسات لها قيمتها وبصورة ذاتية . لا يمكن للرأسمالية كما ولا يمكن للماركسية الاشتراكية أن تحسب حساباً لمثل هذه الظروف . يمكن لمثل هذه الزمرة المستبدة ان تمارس احدث انواع الدعاية وكذلك الاساليب الاستبدادية البيزنطية . ومستحاول هذه الانظمة بأن تجرب أمتها الى العالم العصري ، وقلما يصيبها النجاح ، وللوصول الى اهدافها تمارس القمع الوحشي والراديكالية العسكرية والاستغلالات الفطرية البدائية . وبعبارة أخرى يمكننا ان نذكر هنا أن تروتسكي فشل في توقع الظواهر العصرية للدولة المستبدة او لدولة الطبقات الكادحة ، هذه الدولة التي تستطيع ان تبرز بعض سياسات الثورة الدائمة لتصبح سياسات تطور إقتصادي اشتراكي فيه بعض سياسات ثورة مضادة . مع كل هذا ، حتى ومع أخطائها وضعفها ، تبقى نظرية تروتسكي عدسة لها قيمتها للتعرف على ما حدث في القرن العشرين - ولكنها عدسة في حاجة ماسة للاصلاح .

الفصل الثاني

اغتصاب السلطة

غني عن البيان بأن الأشهر المحمومة لسنة ١٩١٧ ألقت قبضتها الحديدية على كل روسيا . وتوضح الآن بأن النظريات التي طالما ناقشها الثوريون وهم في المتفنى أصبحت الآن تقرر الاستراتيجية السياسية للأحزاب الرئيسية . وظهر بأن ما كان موضوع الجدل والمشاحنة بين المختارين سنة ١٩٠٣ أو سنة ١٩٠٦ أصبح الآن ذا نتيجة عملية مباشرة .

وثبت تماما بأن المتهكمين والهازيين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم « واقعيين » أولئك الذين نظروا الى مدهشات نظريي الجناح الأيسر وكأنها موضوع للسخرية ثبت تماما بأنهم هم كانوا من لا يستطيع أن يعالج قضية روسيا الجديدة ، وسقطت زُمر الجناح الأيمن في دياجير اليأس ، أخذت الاحلام تنتابهم احلام اعادة القهصر والسوط والنبلاء والكهنة . وفشل الاحرار الشباب الذين تسلموا زمام السلطة في الحكومة الموقفة فشلوا في تفهم كون الثورة التي أخذت تنتشر في طول البلاد وعرضها ما هي إلا إنقلاب إشتراكي عنصري لا يمكن كبجها وإيقافها تماما في نقطة ما يعتقدون بانها مناسبة وأخذت ميول الاحزاب اليسارية تتحقق طبق الأفكار التي قضاوا سنين في تطويرها . وبدا بأن الثوريين من اعضاء حزب الشعب ، الاشتراكيين كانوا كما كانوا دائما مخلصين ورومانطيين مشوشين ومتقسمين

على بعضهم ، وكان بعضهم اشخاصا صادقين نابعين من صميم الحياة الروسية إلا انهم عجزوا عن معالجة اعمق المشاكل الروسية . أما المنشئيك ، الذين كانوا قد اوصلوا الى حد الكمال الفضائل الكلاسيكية وضعف الديمقراطية الاشتراكية ، فقد تمسكوا بوجهة نظرهم القائلة بأن الثورة لن تستطيع أن تمتد وراء حدود الثورة لسكان المدن لأن روسيا المتخلفة لم تكن قد نضجت كفاية لتتقبل الاشتراكية .

« وبديهي بأن هذه الصيغة نظرية كما وانها مدرسية لأنها اعتبرت كأن التاريخ دائما يسير في مراحل مناسبة ومعينة مدعنة لأوامر كل ما هو ممكن » ، وقد اعتبر تروتسكي وزملاؤه القلائل ، وقد اشتركوا جميعاً في زمرة أسموها مجرويتسي ، اعتبروا احداث سنة ١٩١٧ مؤيدة تماما نظرية الثورة الدائمة . وانهم لعل صواب الى حد ما في حكمهم على تلك الاحداث كثورة عارمة عامة تتدفق من على حدود « الثورة الشعبية » . ولقد اظهر لينين وحده مرونة كافية لطرح بعض الفكاره السالفة وإتخاذ بديلا استراتيجيا بسرعة .

ففيما بين شهري نيسان وتشرين اول من سنة ١٩١٧ توصل لينين بكل ثبات الى مركز تروتسكي .

صرف تروتسكي سنوات الحرب اولاً في اوربا ثم في نيويورك يعمل في الصحافة ويساهم في شؤون الجناح اليسار للفتات الاشتراكية . وعند اندلاع ثورة سنة ١٩١٧ تلك الثورة التي جاءت بالحريات الديمقراطية الى روسيا سارع تروتسكي في الذهاب الى بترسبرج وهو تواق للمساهمة في السياسات الروسية . لقد جاءت ثورة شباط كانفجار شعبي هائل وكاد

هذا الانفجار يكون ذا صفة عفوية (على ان تروتسكي في كتابه « تاريخ الثورة الروسية » ناقش ظروف الثورة قائلا ان الثورة المحلية في بتروغراد وموسكو حيث تكثرت الطبقة الكادحة تزعمها ثُوار خيرون مدربون اكثرهم بلاشفة) . والآن وفي ربيع سنة ١٩١٧ تلك الأمة التي طال عليها الزمن وهي في حالة تامة من البُكم بدأت تتمتع بممارسة مبادئ حرية الكلام العام .

أما وقد افتتنوا بالحريات التي صاروا يمارسونها فقد اندفع سكان المدن يتحاورون ويتظاهرون . أخذت الجرائد الجديدة تصدر والاحزاب تبرز الى حيز الوجود ولقد بدا للرايكيالين ان كل ما كانوا يصبون اليه اصبح الآن بمتناول ايديهم وكأنما قد حدث كل ذلك بواسطة حادثة مباركة من حوادث التاريخ .

ولقد كان الوضع داخل روسيا في حالة ميؤوس منها : الهزيمة في الحرب ، الجيش في حالة تضعضع كامل واقتصاد ممزق كُلِّيا والفوضى تعم اجزاء من الريف ولم يكن هناك أي سلطة او أي مؤسسة معترف بها دوليا بشكل جليّ : لقد جلبت ثورة شباط معها الى حيز الوجود مركزين للقوة متنافسين رئيسيين . الا وهما الحكومة الموقته و« السوفييت » (المجالس) . وبدأت الحكومة الموقته تمارس سلطتها متشبهة بالحكومات الملكية الدستورية ولكنها ما لبثت ان انتقلت الى الاشتراكية المعتدلة عندما اصبحت تصرفات الشعب تميل الى الراديكالية . اما فيما يختص بالسوفييت فقد كانت هيئات مرتجلة من ممثلين أو « برلمان » من الطبقة الكادحة (العمال) والجنود تحت زعامة المنشفيك والرايكيالين .

اما الحكومة الموقته التي ترأسها برنس لفف ، وكادت مليونكوف ،
والزعيم الشعبي كيرنسكي ، على التوالي فقد كانت بطبيعتها مترعزة .
كانت قاعدتها الطبقيه ضعيفه وغير ثابتة : وكانوا على الغالب غير كفاء
لمقامهم كما هو منتظر : فخيرتهم قليلة جداً في جميع نواحي الحياة :
اعلاها وأوطاها فيما يختص بالأمور الديموقراطية .

وكان هناك أقوياء يتربصون ليغتنموا الفرصة ويقضوا على كل من
احزاب اليمين أي التجميع الجديد لضباط اليمين وايضا اليسار أي
الاحزاب البلشفية وهذا يعني القضاء على الديموقراطية الفتية . اصف الى
ذلك بان كل الحكومة الموقته لم تكن راضية واحيانا كانت اعجز من ان
تقوم بتقسيم الأراضي بين الفلاحين وان تضع حداً للحرب المضنية التي
لم يكن منها جدوى . وبما لا شك فيه ان روسيا تستطيع بأن تشن حربا او
تتحمل الثورة انما لا تستطيع ان تواجه الامرين معا . ولقد فشلت جميع
جهود الحكومة الموقته في ارضاء رغبات الشعب ويُعزى ذلك الى اسباب
عقائدية دع عنك الجبن الذي يصاب به الاحرار والديموقراطيون
الاشتراكيون عندما يتسلمون أمور السلطة .

وتأبعت الشهور وبالرغم من التغيرات والتبديلات في هيئته
الموظفين تزايدت عزلة هذه الحكومات الموقته . اذ عندما تثار الامال
العظام خلال الانقلابات الثورية تعجز الاحزاب المعتدلة عن ارضاء
جماهير الشعب . وهذه النتيجة تنسجم تماما مع إحدى قضايا تروتسكي
المنطقية التي تبحث بالثورة الدائمة وانه لتبصر صحيح ذلك الذي جعله
يستنتج بان الثورة لا يمكن ان تحدد طبقاً لصيغة ما . اما لينين ذلك
السياسي الذي تفوق على تروتسكي بصدد الاستراتيجية السياسية فانه

سرعان ما عمل على اتباع نفس الفكرة .

وبما أن تروتسكي قد عارض مشاركة العمل مع الحكومات الموقته حتى وعندما انضم اليها ممثلون عن الاحزاب الاشتراكية المعتدلة تحت زعامة كيرنسكي ، المتأجج حماسا وجد تروتسكي نفسه على طرفي نقيض مع المنشفيك ولفترة زمنية مع البلشفيك ايضا . خلال الاشهر القليلة الأولى من سنة ١٩١٧ كان البلشفيك في بيترسبرج تحت زعامة جناح « مسالم » قدم فكرة لا تختلف اختلافاً جذرياً عن نظريات المنشفيك . (وقد قامت احاديث تتعلق باعادة الوحدة للحركتين) كانت هذه الزعامة المسألة التي تألفت من افراد لم يثقوا هي التي قدمت انظمة للعمل في روسيا وحاولت ان تضغط على الحكومات الموقته ، بالنيابة عما يطلبه الشعب وحاولت ان تعزز ممثليها في المجالس وتحدثت عن حكومة سوفيتية كاملة (من السوفييت) ولكن من الجلي انها لم تفكر مطلقاً ببعث يقوم به البلشفيك خارج اجواء المجالس ولا بتسلط بلشفي كامل بواسطة المجالس (السوفييت) اتبعت هذه الزعامة خط لينين وافكاره القديمة عندما قدم نظريته المتعلقة بـ « دكتاتورية الطبقة الكادحة والفلاحين » . لكن عندما عاد لينين الى روسيا في ربيع سنة ١٩١٧ أخذ يوجه اللوم الى زعامة « المسالين » بسبب سياستهم السلمية وفي اطروحته الشهيرة « اطروحة نيسان » حمل حملة شعواء على الحكومة الموقته واعلن رفضه مشاركة المنشفيك او أي اشتراكيين معتدلين آخرين وضرورة إثارة الشعب لطلب « الخبز والأرض والسلام » وبقيت مسألة السلطة غامضة ومستورة ، ولكن استطاع من له اذن حادة للسياسة ان ينصت ليتعرف الى شكل هذه السلطة من خطابات لينين .

ماذا يعني تسلم زمام السلطة بالنسبة للينين في هذا الوقت ؟ انه ما زال يتحدث في ربيع سنة ١٩١٧ عن تشكيل حكومة سوفيتية « مجالس » يجب ان تكون كل السلطة للسوفييت : حكومة تتشكل من البلشفيك والمنشفيك وتكون مسؤولة امام المجالس « السوفييت » في هذه اللحظة وفقط في هذه اللحظة يمكن لمثل هذه الحكومة ان تتسلم زمام السلطة بواسطة وسائل سلمية .

هكذا كتب لينين وهكذا استمر يكتب لبضعة اشهر . ولكن الاشتراكيين المعتدلين المتحجرين بالتشبث بملههم ، رفضوا ، من حيث المبدأ ، ان يتسلموا السلطة بأنفسهم دون اشتراك احزاب العمال معهم . وما لا شك فيه انهم قاموا بهذا العمل بسلام وبتأييد شعبي . وفي شهر ايلول من سنة ١٩١٧ كتب لينين انه يتسلم السلطة « تستطيع المجالس (السوفييت) ان تؤمن التقدم السلمي للثورة واعتقد ان هذه الفرصة ستكون لهم الاخيرة » . وقد اتهمه خصومه فيما بعد بان كل هذا ما كان إلا حيلة لابعاد الانتباه عن نوايا البلشفيك التي كانت ما زالت تهدف الى التمرد . انما اذا امعنا النظر في آراء أحدث مؤرخي الثورة واكثرهم خبرة أي لينين نجد انه رغم كونه متأكداً من آرائه اكثر من جميع زملائه البلشفيك فانه كان يتأرجح لمدة من الزمن بين فكرة حكومة السوفييت وحكومة يتسلم زمامها البلشفيك . على كل حال فالنقطة المبهمة هنا من الوجهة السياسية انه وبالرغم من نمو الاوضاع الراديكالية للجماهير فان المنشفيك والسوفييت (المجالس) لم يقبلوا التحدي ابداً بمحاولة تشكيل حكومة اشتراكية بكل معنى الكلمة . ولم يتحدث عن مثل تلك الحكومة الا عدد ضئيل من المنشفيك بزعامة جوليوس مارتوف ، اللامع المدهش

وقد انجبه الى هذه الفكرة اكثر الرفقاء ولكن بعد خراب البصرة أي بعد ان تسلم البلشفيك زمام السلطة .

ودون أي اعتراف شكلي - قلّمنا يحتاج الانسان لمثل هذا فيما يختص بالسياسات - بدأ لينين يُعبئ معادله الجبرية واسماها « الدكتاتورية الديمقراطية للكادحين والفلاحين » وضمنها اراء تروتسكي المدروسة والمسماة « الثورة الدائمة » ، والى هذا الحد انتقل لينين من فكرة حكومة المجالس (السوفييت) الى مشروع تمرد بلشفي - على أن هذا الأمر كان معقداً إذ كان على البلشفيك ان يربحوا الاكثرية في سوفييت بتروغراد وحينئذ يستطيعون ان يشنوا حملتهم التمردية . فمن الطبيعي اذن انه قبيل تموز سنة ١٩١٧ انضم تروتسكي واصدقاؤه الى حزب لينين وتسلموا مناصب ذات مسؤولية كبيرة .

اما وقد بدأ يعمل مع حزب منظم لأول مرة في حياته العملية اصبح تروتسكي الآن الناطق باسم البلشفية خلال اشهر غليان الثورة . ويحدثنا « سونخانوف » المنشفيكي الموهوب والذي يعتبر شاهد عيان فيما يختص ببيانه التاريخي عن الثورة الروسية يحدثنا هذا المؤرخ قائلاً : « لقد تحدث تروتسكي في كل مكان وفي كل وقت وقد عرفه كل كادح وكل جندي في بتروغراد واصغى الى حديثه ولقد كان تأثيره على الجماهير كما وعلى الزعماء تأثيراً بالغاً » . ولقد سجل تروتسكي في كتابه « سيرتي » وصفاً جذاباً لدوره كخطيب من الميع خطباء الثورة قال :

كنت عادة اتكلم في الساحات وحتى ساعات متأخرة من الليل احياناً . أما جمهوري فكان من الكادحين والجنود والامهات العاملات

والأولاد المتشردين في الشوارع - أي أدنى الطبقات البشرية ، الموجودين في العاصمة . وكانت الساحة تكتظ بهم فيها فلا ترى امامك الا اجساما نحيلة قد أكل الدهر عليها وشرب ، فالصغار يجلسون على اكتاف آبائهم والرضع على صدور أمهاتهم . لم يتعاط أي منهم عادة تدخين السكاير اما البلكونات فقد كنت انظر الى الازدحام فيها واتوقع ان تنهار لكثرة من كان عليها ، كنت اشق طريقي الى المنصة خلال خندق من البشر وطالما حملني بعضهم فوق الرؤوس لشدة محبتهم لي . أما الهواء فحدث عنه ولا حرج لقد كان ملوثاً بسبب التنفس وطول الانتظار وعندما تراني الجماهير يمتلئ الهواء بالصراخ الحار والهتاف المدوي بالترحيب وانظر هنا وهناك فلا أرى إلا مَرافِق متزاحمة وصدوراً ورؤوساً مترابصة . وما اشبه كل هذا بحمارة من الاجسام البشرية . وكلما مدت يدي كانت تلمس شخصاً ما وكنت اسمع اذ ذاك مَنْ يطمئنني بأن لا اهتم بذلك وان اواصل كلمتي . ولا اعتقد ان هناك خطيباً مهما بلغ به الاعياء يمكنه ان يقاوم مثل هذا التوتر الكهربائي والتعطش الهائل للفهم والتعرف على الاوضاع - الحُوب يطلب المعرفة والفهم والاصرار لاكتشاف الطريق التي عليهم ان يسلكوها . وكنت احياناً اكاد المس حب الاستطلاع الرائع الذي يعم ذلك الحشد والذي بدا وكأنه كيان واحد لحشد هائل ، وعندئذ تذوب وتختفي جميع الافكار والكلمات التي أُعِدَّت مسبقاً ويحل محلها كلمات كلها عطف ومحبة كأجوبة للأسئلة التي يوجهها الجمهور بكل الحاح واصرار ، وكانت أجوبتي تنبثق من صميم قلبي وبكل اخلاص ومحبة ودون أي استعداد مسبق . وفي جميع هذه الحالات كنت اشعر وكأنني أستمع الى خطيب من الخارج يحاول ان يحافظ على ترتيب افكاره وهي تندفق دون استعداد وقد كان يمشي بأن يجد نفسه يمشي وهو نائم فوق سطح وقد يقع في كل لحظة

ويهوي الى الأرض حالماً يصبح واعياً محاولاً ان يجيب بعبارات كان قد أعدّها من قبل .

أما مغادرة الساحة فكان اصعب بكثير من دخولها ويأبى الجمهور أن يحل وحدته والتحامه الجديدين ويرفض التفرق وفي حالة مرهقة من اللاوعي اشعر بأنني التحرك طائراً وعائثاً فوق وعلى مئات الايدي التي كانت تتلقفني من مكان إلى آخر وأنا اقطع شبراً بعد شبر فوق الرؤوس حتى أصل في النهاية الى المخرج . وكثيراً ما كنت الاحظ بين الحشد وجهي ابنتي اللتين تسكنان في مكان قريب مع أمهما اما الكبرى فعمرها ست عشرة سنة واما الاصغر فعمرها خمس عشرة فلا أكاد اشير لهما بالتحية او اضغط على يديهما وانا خارج حتى يفصلني الجمهور عنهما . كان تروتسكي اكثر من خطيب مصّقع واكثر من وسيط كثير الحساسية يتوسط بين الجماهير النائرة والزعامة البلشفية الصارمة . وداخل المجالس (السوفييت) حيث اتخذت المناقشات والخصومات أحد أشكالها بين احزاب اليسار برز تروتسكي كناطق رئيسي باسم البلشفية وقد اكتسب بذلك كراهية وبغض كثير من اخصامه بسبب ما كان يتمتع به من اسلوب خطابي وطول باع في الجدل وشدة بأس وجراءة تبرز من كل كلمة ينطق بها .

وجاءت « ايام تموز » الايام التي شاهدت مظاهرات شعبية محمومة وغير منظمة ، وحتى البلاشفة واجهوا اشد المتاعب في كبش ثورة هذه المظاهرات التي كانوا يخشون ان تطور الى اغتصاب زمام السلطة من ايديهم . وادت هذه المظاهرات الى رد فعل حكومي وتبع ذلك تدهور في الزعامة البلشفية ونتج عن ذلك ان رُج تروتسكي في السجن لبضعة

اسباع واضطر لينين ان يلجأ الى مكان خفي يختبئ فيه ، وانتهر الجناح اليميني الفرصة وبدأ يعمل في شهر آب وقام بانقلاب بقيادة الجنرال كورنيلوف ، ولكن قوة الطبقة الكادحة في بتروغراد بالاشتراك مع حامية بتروغراد الباسلة تمكنوا من صد جنود كورنيلوف ثم تمكنت الفرق النائرة التي ارسلها السوفييت من القضاء نهائيا على جنود كورنيلوف . فانهار الانقلاب وكسب البلشفيك سمعة سياسية للدور الذي قاموا به في حشد الجماهير للاطاحة بالانقلاب . وبهذا مال الميزان السياسي الى جناح اليسار وفي اواخر ايلول نال البلشفيك اكثرية ساحقة في سوفييت (مجلس) بتروغراد واصبح تروتسكي الذي كان قد خرج من السجن لثوه رئيسا للمجلس . وهاكم كلمته عندما انتخب اذ انها تحمل في طياتها بعض التلميحات المفجعة : يقول تروتسكي :

انني متأكد بأن اللجنة الدائمة الشيوعية سيرافقها ارتفاع جديد في تطور الثورة . اننا ننتمي الى احزاب مختلفة وعلى كل منا واجبات يجب ان ينجزها . ولكن ونحن ندير عمل سوفييت بتروغراد سنراعي حقوق الافراد والحرية الكاملة لكل الاحزاب واريد ان اؤكد هنا ان ذراع اللجنة الدائمة لن تستعمل لخلق نشاطات آية اقلية .

اما وقد سيطر البلشفيك على سوفييت بتروغراد ، وهو اكبر مجلس في كل البلاد - فقد اصبح لهم غطاء شرعيا لثورتهم وسرعان ما بدأوا يقومون بعمليات مُنسقة متتابعة بلطف وبنوع معتدل من الصعوبة وقليل من الدماء حتى اطاحوا بحكومة كرنسكي . كتب جوزيف ستالين بعد ذلك بقليل « لقد قام رئيس سوفييت بتروغراد بالتنظيمات العملية للتمرد » ، ولم يكن هذا الرئيس الا تروتسكي وكما قال ستالين « الرفيق تروتسكي »

و من الممكن ان تعلن وبكل تأكيد أن سرعة انضمام حامية بتروغراد الى
سوفييت بتروغراد وان الانجازات التي قامت بها لجنة الثورة العسكرية
(الهيئة المنوط بها ادارة كل التمرد) هذه كلها مدينة بنجاحها بصورة
رئيسية وبالدرجة الاولى لجهود « تروتسكي » وتشكلت حكومة ترأسها
لينين واصبح تروتسكي فيها وزيراً للخارجية . وقبل أن نلقي نظرة على
انجازات تروتسكي كناطق باسم حكومته وخطابا كل العالم وكقائد
عسكري للنظام البلشفي علينا ان نتوقف قليلا لنلقي نظرة على ماهية
ومعنى ثورة تشرين اول . اذ ان أي تقدير لدور تروتسكي كمساهم في
التاريخ العصري يعتمد على ما يمكن للمرء ان يستنتجه ويفهمه من هذه
الثورة .

سيطرت اسطورتان رهيبتان على أفكار الدول الغربية فيما يختص
بثورة تشرين اول . اما الاسطورة الأولى فتحدثنا بان البلشفيك - وهم
يحتفلون بالثورة التي اكملت غليان الجماهير الذي لا يقاوم وهذا يُعتبر
انجاز مدهش لعملية تاريخية تبشر بعهد الثورة الاشتراكية - وقد تحقق كل
ذلك بتوجيه وقيادة قام بها ونفذها خبراء الطليعة البلشفية . اما الاسطورة
الثانية فهي « اللابشفية » أي المضادة للبلشفيك التي تظهر الاسف
الشديد على ثورة تعمل تحت سيطرة اقلية متآمرة إغتصبت السلطة من
ديموقراطية روسية مزعومة وبهذا تكون قد بدأت المظالم التي تميز
السلطات المستبدة الشيوعية المحتكرة للسلطة (التوتاليتاريا) في هذا
القرن العشرين . ومقابل ذلك اسمح لي ايها القارئ العزيز أن ابدي
فكرة خاصة ألا وهي بأنني أرى ان كلا من هاتين الفكرتين تحمل في طياتها
كثير من عناصر الصدق إلا انه يبدو لي ان كلا منهما ما هي إلا صورة

مبسطة بشكل فخم . إذ كلما اقترب الانسان الى الحوادث الفعلية لشهر تشرين اول سنة ١٩١٧ كلما قلّ إقتناعه « بحتميتها » فيما يختص بالماركسية او اللاماركسية وكلما ازداد اكتشافه للاخطاء والضعف والحوادث والفشل والفص التي لم تكن تتهمز كما يجب والعقل البشري كثيراً ما يقبل ظروف الحتمية التاريخية الفاتنة اذ ان هذه الحتمية تحجب كل بديل لما حدث وتُقصي الشكوك وتؤكد ما يشعر به الانسان لما يبدو ضرورة ملحة على انني أرى ان الحقيقة ابعد من ان تفهم بسهولة واكثر تعقيدا .

استمر الحزب البلشفي في النمو طيلة سنة ١٩١٧ وخاصة في المدن الصناعية والتجارية : ولقد قدمت اسبابا لهذا النمو وهي : صعوبة الحياة في بلاد مقهورة وعجز الحكومات الموقته لتوفير حاجات الشعب الضرورية والصلابة العقائدية والرخاوة السياسية للاشتراكي العصري والمهارة البلشفية لاثارة الشغب اصف الى كل ذلك اندفاع شعب رَفَعَ عنه نير القيصريّة نحو الحلول مهما كانت متطرفة ، وتقاطر عشرات الالوف من الاعضاء لينضموا الى الحزب البلشفي ، وبهذا اصبح ممثلاً على لينين ان يعدل نموذجها فيما يختص بالطليعة المنظمة تنظيماً تاماً . ومن البديهي انه داخل حزب كهذا تتولد تيارات لآراء مختلفة يصرح اتباعها بما يختلف في افئدتهم دونما خوف او وجل معبرين عن ميولهم المتنوعة وكل فئة تتنافس وتتصارع مع الفئات الاخرى متشبثة بأرائها . وانقسم الحزب الى اقسام منظمة متنوعة . يقول رابينوفتش في دراسة تعمّق بها هذه الفترة في كتابه « استلم البلشفيك زمام السلطة » : خلال الاشهر الحرجة المحمومة لسنة ١٩١٧ ظهرت صراعات عنيفة فيما بين اللجنة المركزية ولجنة بتروغراد وكذلك بين زعامة الحزب ولجنة الثورة العسكرية (التي اقيمت كوكالة

تابعة لسوفييت بتروغراد ولكنها كانت بالفعل تحت السيطرة البلشفية) .

وانقسم الحزب الى اقسام اهمها بزعامة لينين وتروتسكي اللذين تمسكا بكل الاشياء المريثة للتمرد والقسم الثاني « بلاشفة حزب اليمين » بزعامة كمينيڤ ورايكوف ، وزينوفيف ، ونوجن ، وكلهم اعضاء في اللجنة المركزية وكانوا يجتهدون العمل الدائب المستمر داخل المجالس (السوفييت) وألفوا إئتلافا من الاحزاب اليسارية ليحل محل حكومة كرنسكي غير المناسبة . وبما لا شك فيه انه لولا سلطة لينين الشخصية الساحقة التي احسن استعمالها وبشكل فعّالة داخل الزعامة البلشفية والحاحه بان يتحركوا جميعا نحو هدف واحد هو الثورة والتمرد والافسوساجهون جميعا معارك حزبية متواصلة - وباختصار فلولا دور لينين التاريخي الحاسم لما قام الحزب البلشفي بثورة تشرين اول . إن طبيعة هذا الدور يجعلنا غير قادرين على الاثبات المؤكد لكل ما نذكر . ولكن يبدو لي ان الدلائل مقنعة بصورة كافية . ولقد قال تروتسكي كثيراً في كتابه « التاريخ » بأن كثيراً من قدامى البلشفيك تأزروا في المواقف الحرجة واصبحوا اقل قبولا لآراء لينين من تروتسكي نفسه الذي كان ما زال جديداً بين الزعماء البلاشفة . ومن كتاب راينوفتش نبتين ، بأن جزءاً كبيراً من الزعامة البلشفية كانت ترتاب بآراء لينين فيما يختص بالثورة ويؤكد راينوفتش ، بانهم كانوا اكثر عدداً ممن صوت ضد لينين .

أما على صعيد الطبقة الكادحة والجنود فيبدو ان ما كانوا يهدفون اليه في المدن الرئيسية وما كان يمثلوهم يطلبون بالحاح واصرار فهو حكومة سوفييت وهذا يعني تشكيل حكومة من احزاب اليسار المختلفة حكومة تستمد سلطتها من صلاحيات المجالس القوية ومن متانة استقرارها والتي

تتمهد باصلاحات واسعة المدى : (تقسيم الأراضي ومفاوضات للسلام ووضع حد لاحكام الاعدام وسيطرة العمال على جميع نواحي الانتاج الخ) ثم سرعة انعقاد لجنة تأسيسية تُقرر بصورة رسمية شكل الحكم في روسيا . ويبدو ان جميع الدلائل التي تأكد منها المؤرخون تثبت هذه النقاط . وبالفعل عندما اغتصب البلاشفة السلطة جابهوا مصاعب كبيرة في اخفاء ثورتهم تحت قناع واقٍ هو « الشرعية السوفيتية » . مع انهم قدموا للسوفييت « الامر الواقع » كما اصر لينين على تسميته بكل اخلاص .

ولناخذ على سبيل المثال سوفيتياً له آراؤه الخاصة على الصعيد السياسي : السوفييت الذي تأمس في كرونسدات ، وهي مركز للاستول قرب بتروغراد ويشتهر هذا المركز بما لبخارته من الافكار الخاصة المستقلة عن غيرها . تختلف الاعتقادات السياسية في هذا المركز الراديكالي اختلافاً يَبْسُأُ عما خلقته الثورة البلشفية من آراء واعتقادات. اقترح هذا السوفييت « Kronsdat » كما يقول راينوفتش ، ما أسموه « انفجار حاسم » والانهاء من الرأسمالية ، ثم نُقِلَ السلطة الى العمال والفلاحين والجنود وهم جميعاً الثوار الحقيقيون ثم خُلِقَ جمهورية ديموقراطية « واعلنوا ، يقول راينوفتش ، بان جميع الفئات الاشتراكية ستمثل في هذا السوفييت المقترح ومن البديهي انه من المتوقع مواجهة صعوبات جمة ليس اقلها مشكلة كيفية التوفيق بين من يريد الاستمرار في الحرب ومن يريد وضع حد لها .

وترددت في الجوا اصداء نوعين من الحكومات : الاول يشترك في السوفييت الحاكم كل الاحزاب اللابشفية وفي هذه الحالة يشكل

البلشفيك حزباً معارضاً مخلصاً للحكومة والنوع الثاني مجلس يشترك فيه جميع الاحزاب بما فيها البلشفيك وهكذا يكون اتجاه السوفييت الى ناحية اليسار . ودارت مفاوضات معقدة بين احزاب اليسار . أما داخل حزب المنشفيك ، الذي أخذ يحسر كثيراً من التأييد الشعبي ، فقد برز فيه جناح يساري بزعامة مارتوف تدرّج في ارتقاء سلم القوة ، اتفق جماعة مارتوف مع البلشفيك في التطلع الى نهاية سريعة للحرب والى سلسلة من الاصلاحات الفورية التي ، ومع ابتعادها نوعاً ما عن الاشتراكية ، ستدفع بالثورة قدماً الى الحدود البرجوازية تلك الحدود التي مازال حزب المنشفيك متمسكاً بها . وقد رأى اليمين من حزب البلشفيك ان في مثل هذا الائتلاف مخرجاً واقعياً للثورة يحفظها من مصير محتوم - وقد رأى كامينيف وزينوفيف ان ذلك قد يؤدي الى كارثة (ومن الغريب ان قلّة من البلشفيك قد تنبأت بأن النجاح قد يؤدي الى كارثة اشدّ هولاً) .

أما داخل صفوف البلشفيك فقد قام كامينيف وزينوفيف بقيادة الزعماء المعارضين للثورة مدعين بأنه بعد مرور بعض السنوات ستقوم نزاعات شديدة داخل حزب البلشفيك معارضة للافكار اللينينية الارثوذكسية . واننا حين ننظر اليوم الى هذه الاقوال نرى بأنها كانت حكيمة . لقد ركّزوا معارضتهم لآراء لينين وقدموها بشكل عبارات تكتيكية (فتيّة) مشددين على صعوبات وخطار الثورة بغض النظر عن الثمن الغالي الذي سيدفعونه عند الفشل . انما ليس من الصعب ان نلاحظ من ثنايا مناقشاتهم بأن مشاكل البلشفيك ستزداد عنفاً إذا بالفعل تسلموا زمام السلطة . ففي بيان موجه الى اللجنة المركزية عشية شهر تشرين الأوّل شدّد زينوفيف وكامينيف على اهمية البرجوازية الضعيفة

اي الطبقة المتوسطة . و اضافوا بان الطبقة الكادحة لوحدها لا تستطيع بأن تتم الثورة - او بعبارة أخرى الوصول الى الاهداف الاشتراكية التي اعلنها الحزب . و اردف الزعيمان : « لا يمكننا ان نُغضّ النظر عن وجود طبقة ثالثة ضخمة بيننا وبين طبقة الفلاحين ألا وهي طبقة البرجوازية الضئيلة العدد القوية الفعل ، هذه الطبقة هي التي انضمت اليها اثناء مشكلة كورنيلوف ، وبهذا جلبت لنا النصر وما من شك بانها ستندمج اليها وتحالفنا مرات عديدة ولكنها الآن اقرب الى الطبقة المتوسطة بشكل عام مما هي اليها » .

ولقد إرتاب كامينيف وزينوفيف بادعاء لينين بأن اكثرية من السكان الروسين يساندون البلشفيك (هل كان لينين بالفعل يؤمن بهذا القول ؟) وكانت وجهة نظرهما بأن اكثرية الطبقة الكادحة ونسبة مئوية كبيرة من الجنود كانت تؤيد البلاشفة ولكن غير ذلك مشكوك فيه ، و اردف الزعيمان مؤكدين بانه في حالة الانتخابات للمجلس التأسيسي سيجد البلاشفة انفسهم اقلية مطلقة متأخرين كثيراً عن السوفييت الذي يدعمه الفلاحون . وقالوا : أما بخصوص ما يدّعيه لينين بأن اكثرية حزب العمال الدولية مع البلاشفة فاننا ولسوء الحظ نعلن ان هذا غير صحيح . وللثورة في البحرية الالمانية دون شك اهمية كبيرة انما عرضية ومن المستبعد بأن تمت تلك الثورة أي مساعدة فعّالة للثورة العمالية في روسيا . وأخيراً فمن المضر كثيراً ان نُقدّر قواتنا فوق ما نستحق .

من الناحية التكتيكية كان كامينيف وزينوفيف مخطئين . ثبت بان اغتصاب السلطة تمّ بمتمهى السهولة ولم يكن للمحاذير التي عبّر عنها البلاشفة المعتدلون أي اساس . أما على الصعيد التاريخي الأوسع فاننا إن

أمعنا النظر بالثمن الذي دفعه البلشفيك حتى يحتفظوا بسلطتهم والثمن الذي على الشعب الروسي ان يدفعه اذا استمر البلاشفة متمسكين بزمam السلطة عندئذ نحكم بان النقاش الذي اثاره كامينيف وزينوفيف له ما يبرره . اذ بالفعل سيتحول فلاحو الطبقة المتوسطة في الريف الروسي الى عبء ثقيل على كاهل النظام الجديد . فيثبت بأن الطبقة الكادحة غير قوية كفاية ولا واثقة بنفسها تماما بحيث تحافظ على معنوية اشتراكية حقيقية او ان تمنع التباين العظيم بينها وبين الاتوقراطية (حكم الفرد) البلشفية على الصعيد السياسي . واما لما يختص بالطبقة العاملة العالمية فيجدر بي ان اسجل ملاحظة لتروتسكي اثناء حوارهِ مع مارتوف سنة ١٩١٧ : قال تروتسكي : لو أن روسيا ستقف وحيدة في العالم دون أي يد مساعدة فأنني أقر هنا بأن التعليل الذي ابداه مارتوف ذاكراً (بأن روسيا لم تكن قد نضجت كفاية لتقبل الاشتراكية) لو حصل هذا لكان مارتوف على حق .

صرح نوجن ببيان له قيمته من الصحة في المستقبل ونوجن هذا شخصية لا نعرف عنه الكثير إلا انه بلشفي معتدل . فبعد ان تسلم الحزب زمام السلطة لاح في الجوتساؤل يدور حول تشكيل حكومة إئتلافية ولكن الزعامة المسيطرة اصرت على تشكيل حكومة بلشفية مقصورة على الحزب وعندها قدّم العديد من البلاشفة استقالتهم وبينهم نوجن ، الذي قال : « إن مثل هذه الحكومة لا يمكنها ان تبقى محافظة على سلطتها إلا بواسطة الارهاب السياسي » وأردف انها تمثل نظاما غير مسؤول ولا شك بانها ستزيل جميع المنظمات العمالية من كراسي الزعامة السياسية . تصلح هذه العبارات التي تفوه بها زعيم بلشفي من المرتبة الثانية كستندر قوي يدعم مناقشات زينوفيف وكامينيف وربما أيضاً تجيب

على السؤال الذي اطلقه لينين في كتابه « هل سيحفظ البلاشفة بالسلطة في الدولة ؟ » اذا كان ١٣٠٠٠٠ من ملاكي الأراضي استطاعوا ان يحكموا روسيا بعد ثورة سنة ١٩٠٥ فماذا يمنع اذن ٢٤٠٠٠٠ الف من اعضاء الحزب البلشفي من حكمها الآن ؟ (علي ان اذكر ان الـ ٢٤٠٠٠٠ يمكنهم ان يحكموا اذا توصلوا الى ، وزادوا على ، روح الظلم والاستبداد التي مارسها الـ ١٣٠٠٠٠ الذين حلّوا محلهم » .

ان ما ارتآه البلاشفة اليمينيون « المعتدلون » يقارب كثيراً ما اقترحه مارتوف أي : دورة برلمانية معتمدة منطقياً على تشكيل حكومة سوفيتية مسالمة ونحضر هذه الحكومة لجمعية تأسيسية يكون فيها الأغلبية المطلقة لأحزاب اليسار وحينئذ تستطيع هذه الاحزاب ان تسبل الصفة الرسمية على سلطتها الديمقراطية . ومن الجدير بالذكر هنا بأن مناقشات لينين وتروتسكي لهذه السلسلة الموصلة الى الحكم الديمقراطي هذه المناقشات لها وزنها وما يبررها . كيف يمكننا أن نتوقع أن يقوم المنشفيك ومجالس (السوفييت) بسنّ القوانين الاصلاحية اللازمة بينما نرى انهم اثناء الاشهر التي تولّوا فيها زمام الحكومات الموقته لم يعملوا أي شيء في هذا السبيل ؟ وكيف يمكن لحكومة إئتلافية إشتراكية بان تتخذ موقفاً واضحاً على صعيد الحزب ونحن نرى الاحزاب الإشتراكية مقسّمة بصورة لا رجاء فيها . ؟ أو ليس من الجلي بأن مثل هذا النظام سيكون بالتأكيد ضعيفاً وغير مجّد ويؤدي الى انحطاط متزايد في الروح المعنوية للشعب وبعد ذلك الى النصر المحتمل لثورة جديدة يمينية مضادة ؟ طبعاً هناك اجوبة على هذه التساؤلات . لقد اصبحت الفئة المضادة للحرب بين صفوف المنشفيك اقوى مما كانت عليه . ستُجبر ممثلو الكتل الشعبية

الحكومة الاشتراكية بان تقف في وضع اكثر ثباتا . ولقد كان دعم العمال والجنود للحزب السوفييتية (المجالس) قويا لدرجة يصبح فيها انتصار ثورة مضادة بعيد الاحتمال . ان المسائل التي نعالجها هنا طريقنا اليها كلها نظريات وتوقعات واحتمالات وانه لمن غير المتوقع التوصل الى نتائج مضمونة بالفعل . انما عندما نعود الى السوراء لنلقي نظرة على النتائج التاريخية التي اسفر عنها تسلم البلشفيك زمام السلطة فمن الصعب علينا ان نؤمن بان مصير روسيا سيكون أسوأ لو أن الحزب إتبع الخطوط التي رسمها زينوفييف وكامينيف ونوجن والمعتدلون الآخرون . وهناك احتمال ، على ضالته ، بان روسيا ستحافظ حيثنذ على نظام ديمقراطي . وهنا يمكن للمرء ان يجيب على دور الفرد في مجريات التاريخ . اذ كان لسلطة لينين المتفوقة ومواجهه السياسية ومقرراته الحائقة على الثورة نتائج حاسمة .

خلال الاسابيع التي تلت مباشرة اغتصاب السلطة توترت العلاقات الى اقصى حدود التوتر وظهرت الخلافات بشكل جلي بين كل من البلاشفة وحزب اليسار المنهزمين . وحدثت مجابهات بدا من خلالها ان الموقف كان اشد حرجاً واعمق مما ظهر اثناء الجدل والخصام :

- منتصف نهار ٢٥ تشرين اول . لقد انتصرت الثورة في بتروغراد . انعقد سوفييت بتروغراد ، واعلن تروتسكي : « بالنيابة عن لجنة الثورة العسكرية أعلن ان الحكومة المؤقتة لم يعد لها وجود » .

اصوات حماس وهتاف من جمهور المستمعين . علينا أن نذكر هنا انه قبل يومين فقط من هذا الاعلان قال تروتسكي ان نزاعا مسلحاً « اليوم أو

غداً عشية مؤتمر السوفييتات (المجالس) الروسية ليس في نيتنا ابداً .
وقاطع تروتسكي صوت من بين المستمعين : « يبدو انك تتحدث سلفاً
عن رغبات مؤتمر السوفييتات الثاني ! » والنهب تروتسكي بحماس الثقة
الثورية واندفع يجيباً بصوت مرتفع « ان رغبات مؤتمر السوفييتات »
الثاني قد قررها وعبر عنها بكل وضوح ثورة الكادحين والجنود » وهكذا
فقد تأكد البلاشفة المنتصرون بأن السوفييتات لن يكون لها أي ارادة
مستقلة وقد تمكنوا من التوصل الى ذلك بواسطة السيطرة على ارادة العمال
الكادحين والجنود .

- في نفس المساء انعقد مؤتمر السوفييتات لجميع روسيا . حصل
البلاشفة على اغلبية مطلقة وهذا يظهر انهم استطاعوا ان يدخلوا الى قلوب
الجماهير (قبيل تموز كان عدد حزب البلاشفة في بتروغراد ٣٢٠٠٠ اما
المنشفيك فبلغ عددهم ٣٠٠٠٠) . اثناء انعقاد المؤتمر شن المنشفيك
والراديكاليون حملة شعواء ضد البلاشفة بسبب اغتصابهم للسلطة وقالوا
« ما هذا إلا إنتهاك للأصول الديمقراطية إن ذلك يُقَوِّض شرعية
السوفييت اقترح مارتوف وهو يتكلم باسم الجناح اليسار لحزب المنشفيك
ان يتبنى المؤتمر قراراً سلمياً فيما يختص بالنزاعات مع النظر في تشكيل
حكومة برلمانية لجميع السوفييتات تكون الطليعة للجمعية التأسيسية ..
وهتف النواب لهذا الاقتراح ونهض لوناشرسكي ، وقال « ان حزبه لا
يعارض ابداً هذا الاقتراح » هذا مع العلم ان لوناشرسكي ، كان بلشفياً
معتدلاً . والسؤال هنا « هل قيل هذا باخلاص ؟ » لقد آمن باخلاص
بعض البلاشفة اما البعض الآخر فقد قال بان ذلك الاقتراح لم يكن إلا
لكسب الوقت بحيث يستطيعون ان يعزّزوا سيطرتهم . أُقِرَّ اقتراح

مارتوف بالاجماع . وعند هذه النقطة قام المنشفيك والراديكاليون اليمينيون بغلطة كبيرة لأنهم انسحبوا من المؤتمر قائلين بأن ذلك القرار قد نُقذ بالقوة^(١) أما مارتوف الذي أصبح في اشد حالات الحيرة بين رغبة للتنديد بالتمرد البلشفي وحاجة ملحة لايجاد حل وسط فارتأى ان يتبنى المجلس قراراً يحمل على « الأنقلاب » ويدعو الى حكومة ديموقراطية تشمل البلاشفة . وعند هذا ينهض تروتسكي وهو الناطق الفد باسم البلاشفة ، ويقف على المنصة قريباً جداً من صديقه القديم مارتوف . كان عندئذ في القاعة شاهد امريكي اسمه جون ريد ، واخذ يصف لنا ردّ تروتسكي الذي كان يقف منحنيًا الى الامام « بوجهه الشاحب القاسي بينما تدفقت كلماته بصوته العذب الهازيء » قال جون ريد : قال تروتسكي :

إن ثورة جماهير الشعب ليست في حاجة الى تبرير . ان ما حدث هو ثورة وليس مؤامرة . نحن الذين شلّدنا طاقات جنود وعمال بتروغراد . واذن فليس هناك ما يسمى حلّ وسط . اما بالنسبة لمن تركنا ولمن يطلب منا ان نقوم بهذا علينا ان نجيب : ما انتم إلا بؤساء مفلسين . لقد لعبتم دوركم فاذهبوا الى حيث تنتسبون : الى صندوق القمامة والى زباله التاريخ .

لا شك ان كلمات كهذه ينطق بها رجل سيحكم عليه بالنفي فيما بعد تبدو مخيفة ومحنة في نفس الوقت . مخيفة ومحنة لأن قائلها قد فشل في الرؤية بأن الذين ينتهون الى صندوق قمامة التاريخ هم ليسوا دائماً غير الجديرين او حتى الذين على صواب على الصعيد السياسي .

ويصبح مارتوف وهو يرتجف في حالة قنوط تامة « واذن فسنغادر هذا

المكان ! » ويلذكر بوريس نقولا فسكي ، صديق مارتوف أن هذا الأخير : مشى بصمت ولم ينظر الى الوراء حتى ولم يتوقف حتى وصل الى باب الخروج وعند ذلك التفت اليه شاب بلشفي وقال بمرارة ظاهرة : « إن ما كنّا نفكر به هو أن مارتوف على الأقل سيبقى معنا » . لدغت هذه الكلمات صميم قلب مارتوف توقف ورفع رأسه في تلك اللحظة الحاسمة كما لو انه اراد ان يجيب ولكنه اقتصر على القول : « ستدرك يوما ما جسامنة الجريمة التي تشترك فيها » .

من غرائب المصادفة ان هذا العامل البلشفي ، إيشان أكولوف قد اختفى عندما قام ستالين بعمليات التطهير في الثلاثينات من القرن العشرين وكان كلمات مارتوف كانت كتورية لما سيحل بهذا الشاب بقيت هناك امكانية ضئيلة لانعقاد حكومة سوفيتيات صرفة . ففي اوائل تشرين الثاني اعلن الاتحاد عمال سكك الحديد فكجمل ، اثناء انعقاد جلسة من جلسات مؤتمر السوفيتيات بان الاتحاد ما زال يصبر على معارضته استلام حزب واحد كل السلطة . وطالب الاتحاد بعناد بأحداث نظام يركز على القوى العاملة لجميع الاحزاب الاشتراكية ثم وضّح الاتحاد بانه يصبر على ابقاء سيطرته على جميع السكك الحديدية وانهى الاتحاد اعلانه بالتهديد بقطع الاغذية عن بتروغراد في حالة ممارسة الاعمال الانتقامية ضد اعضائه . ولا شك بان تهديدا كهذا له قيمته لأن لهذا الاتحاد قيمته المحلية الاستراتيجية . وتتابع المفاوضات : لزم لينين وتروتسكي الصمت لبرهة . وحرى بالذكر هنا ان المؤرخ ليونارد شاييرو ، الشعاع يقول : « ظهرت المفاوضات وكأنها محاولة مغلصة لتشكيل إئتلاف اوسع وبهذا تُجنّب حرب اهلية ويُستبعد حكمُ الاقلية بالقوة » . وهنا مرة ثانية ودون

احكام الرأي يتخذ المنشفيك والراديكاليون اليمينيون وضعا اقل ما يقال فيه انه يدل على الكبرياء الفارغة : واعلنوا اول ما اعلنوا بان البلاشفة يجب ان يُستثنوا من مثل هذه الحكومة لأنهم ، قالوا ، قد انتهكوا حرمة الديمقراطية (لا شك في ذلك ولكن يجب ان لا ننسى انهم يمتلكون القوة . .) . وبعدئذ تنازل المنشفيك والراديكاليون اليمينيون عن تطرفهم ووافقوا على تشكيل حكومة إئتلافية يشترك فيها البلاشفة ولكنهم اشترطوا ان يمنع كل من لينين وتروتسكي من الاشتراك في مثل هذه الحكومة . لو أن تلك الاحزاب الاشتراكية التي كانت حينئذ لا حول لها ولا قوة إختارت بان تساند لينين وتروتسكي لما استطاعت ان تقوم بعمل الفضل . ونهض لينين في جلسة تالية من جلسات اللجنة المركزية البلشفية وقال : « إن النقاش الذي بدأه اتحاد سكك الحديد » فُكجل » لم يعالج كما يجب اذ في رأيي انه كان علينا ان ننظر اليه كخطأ سياسي لعمل حربي ، واعني بذلك اعطاء الحكومة البلشفية وقتا كافياً لارسال تعزيزات الى موسكو حيث لم تكن الثورة قد وصلت الى كما لها بعد . وفي غضون هذه التطورات اخذت شقة الخلاف بين البلاشفة تزداد عمقاً .

وحدث في ١٥ تشرين الثاني ان صوت بعض البلاشفة المعتدلين ضد الخط الذي كان حزبهم يسير عليه فيما يختص بالمفاوضات للتوصل الى حكومة إئتلافية وذلك أثناء إنعقاد اللجنة التنفيذية المركزية للسوفييتات . وبعد يومين قدم سبعة او ثمانية اعضاء من الحكومة البلشفية استقالتهم وذلك احتجاجا على تعطيل صحيفة حرة برجوازية ، ولكن سرعان ما فشل تمردهم وذلك اولاً لأن المعارضة ضد لينين داخل الزعامة لم تكن ثابتة تماماً ولم تكن تركز على مبدأ مقبول وثانياً لأن الاحزاب الاشتراكية الاخرى اظهرت عدم كفاءة بشكل واضح اضعف الى ذلك انه كانت قد تمست

المصادقة على القرار . وبقيت القوة في يدي لينين وترتسكي على الأقل في العاصمة ومع انه قد دخل الحكومة عناصر من الراديكاليين اليمينيين لبرهة من الوقت ولكن البلاشفة هم الذين حكموا . واستمرت المعارضة قادرة على الكلام لبرهة وجيزة هذه المعارضة التي تزعمها الراديكاليون المنشقون وبعد ستة اسابيع مضت على ثورة اكتوبر كتبت جريدة مكسيم غوركي ، نوفايا جيزا ، انتقادا لاذعاً هاجمت فيه الحكام الجدد .

لقد كانت سيطرة السوفييتات حبراً على ورق خيالا وليس حقيقة . واجه مؤتمر السوفييتات الثاني لجميع روسيا واقعاً تسلم فيه البلشفيك زمام السلطة وفقدتها السوفييتات . واستمرت جلسات المؤتمر في جو مشبع بالتمرد اذ ان البلشفيك اعتمدوا على قوة الحربة والبنديقية . اما في المدن الاقليمية حيث كانت السوفييتات في موقف تردد وحيث لم يكن البلشفيك قد حازوا بعد على اكثرية أخذ البلشفيك يلغون الرعب في قلوب اعضاء السوفييتات . وتحول الشعار الذي كان يقول « للسوفييتات كل القوة » الى « للأقلية البلشفية كل القوة » . لقد تزايدت سلطة السوفييتات في التدهور وكادت تصبح لا شيء . وعبارة « جمهورية سوفييتات » اصبحت بلا معنى ، كلمات جوفاء . والصحيح ان الحكم اصبحت في يد اقلية استأثرت بكل السلطة . جمهورية قلّة من القميسارين أي رؤساء الادارة .

ربما كنت قد بالغت في فكرة الحكومة الائتلافية الاشتراكية اذ بعد ثورة اكتوبر (تشرين اول) لم يبق من الفكرة إلا أمل ضعيف . لا بأس بالفكرة من حيث صحتها إنما تكمن اهميتها بكونها حيكة لمقاصد الشخصيات الرئيسية السياسية التي كانت تبشر اعمالها حينئذ . وناقش

حماة البلشفية الذين هدفوا الى تغطية الفكرة بنوع من الشكل الديمقراطي فقالوا انه ليس هناك ما يمكن ان يسمى « لا ديمقراطي » في ما قام به لينين عندما شكل حكومة مؤلفة من اعضاء حزبه فحسب . اذ كثيراً ما يحدث هذا حتى في أعرق الأمم الديمقراطية . لا غرو ان هذا صحيح تماماً ولكن هذا الأمر أي ان حزباً واحداً يتسلم زمام السلطة يجب ان يكون نتيجة لوسائل ديمقراطية وان يستمر باحترام حقوق الاحزاب الاخرى التي لم تدخل الحكومة وحينئذ يعتبر هذا الحكم ديمقراطياً ولكن بما ان هذه الشروط لم يمكن للبلاشفة أن ينفذوها بشكل مناسب لذلك فان المفاوضات التي اجروها في اواخر سنة ١٩١٧ مع الاحزاب الاشتراكية الاخرى اسفرت عن فشل تام . كان تروتسكي على صواب الى حد ما عندما عثف مارتوف بقوله انه ليس هناك من حل وسط لأن هذا يعني ان حزباً إغتصب السلطة بالقوة ميسشارك الاحزاب الاخرى بهذه السلطة تلك الاحزاب التي سبق وانتزع منها السلطة . ومن البديهي ان مثل هذه المشاركة ليست مستحيلة إنما ليست محتملة . وقد تحدث تلك الامكانية لو أن القوى الاخرى كانت قوية كفاية للضغط على البلاشفة لاتخاذ تلك الخطوة وما من شك في أن وجود مثل هذه القوات كان بإمكانها ان تقف في سبيل التمرد في الوقت المناسب وقبل كل شيء آخر . أمّا البلاشفة المعتدلون فما من شك بانهم أسفوا كثيراً وشعروا بالقلق والشؤم ولكن لم تكن عندهم القوى المعنوية والفكرية حتى يعارضوا لينين لأنهم رأوا انهم في حالة انتصار وجهة نظرهم فان لينين سيقف معارضاً لهم وانهم ليخشون ذلك .

لقد اعلن لينين لدى عودته الى روسيا بعد ثورة شباط سنة ١٩١٧ بان

روسيا الجديدة ستمتع بحرية أكثر من أي دولة اوروبية أخرى . كان على صواب لم تشهد الحريات العامة اثناء حكم القيصرية ما شهدته الآن من النشاط السيامي الذي عانى سكرات الموت اثناء حكم القيصرية وأصبحت الطبقات الاشتراكية قادرة على العمل بكل نشاط وتكلم بما تشاء علانية وهكذا فعلت كل الفئات السياسية الاخرى التي رزحت السنين الطوال دون ان تستطيع التفوه بينت شفة . وكذلك تطورت اشكال اشتراكية جديدة ولجان محلية للفلاحين - ان ما ذكرته هنا ما هو إلا بعض ما برز الى النور بسبب الثورة . وحرى بالذكر هنا انه بين شهري شباط وتشرين اول كانت مشاكل البلاد الاجتماعية قد تراكمت او على الأقل بدت للعيان بشكل كاد أن يكون اسرع من ان يُستطاع حلها . وبالتأكيد لقد أصابت احزاب اليسار المتطرفة ، البلاشفة وغير البلاشفة ، بالعديد من انتقاداتهم عندما قالوا بان الحكومات الموقته كانت جبانة ومناسبة للحكم . ويبدو ان البلاد كانت في حاجة لنوع من الاستقرار ولا يمكن للحكمى السياسية التي ميزت سنة ١٩١٧ ان تستمر الى ما لا نهاية وقد استطاع لينين ان يرى ان اللحظة قد حانت وقد لا تحين مرة أخرى اللحظة التي يمكنه فيها ان يتسلم زمام السلطة . وليس هناك اي ظل من شك بأن مواهب تروتسكي الخطابية كان لها الاثر الفعال في تحقيق برنامج لينين . ولكن في هذه الفترة القصيرة من النجاح ليس هناك من يستطيع القول عن روسيا ما قاله لينين في ربيع سنة ١٩١٧ : أي انها افضل بلد في اوروبا .

وبدا بان آراء تروتسكي صاحب النظريات قد تحققت ففكرة التحول من البرجوازية الى الثورة العمالية الكادحة التي أخذت تتحقق قدمت تبريراً تاريخياً رائعاً لتسلم البلشفيك زمام السلطة . ووضحت نفس هذه

النظرية السبب الذي سيقود هذه الثورة الى الانهيار والتدهور ما لم تنقذها ثورة اخرى تأتي من الغرب . ومن المعروف بانه اذا تسلم زمام السلطة نظام الاقلية فعلى تلك الاقلية ان تستعمل الاجراءات القمعية ثم الى تصفية بعضها البعض رغم انها تكون قد اغتصبت السلطة باسم الاشتراكية والجدير بالذكر ان الناقدين في ذلك الوقت قد حذروا من هذه النتيجة . وفي هذه الحالة ايضا عندما يتسلم زمام السلطة اقلية باسم الاشتراكية فعلى هذه الاقلية ان تلجأ الى الاعمال المرتجلة والى الترددات المستهجنة وتتخذ خطوات عشواء لم يحلم بها أحد في ما يختص بالسياسات الاقتصادية ، سياسات اقتصادية لم يهتم احد في درسها . لقد لاحظ سوخانوف في مذكراته عن الدعاية البلشفية قبل اغتصاب السلطة فقال : « لم تكن هناك حتى اقل اشارة الى المنهج الاقتصادي » .

أعلن عن هذه الصعوبات التي تلت اغتصاب السلطة كل من المؤرخين المساندين للبلشفية والمقاومين لها . كتب اسحق دوتشر ، الموالى للبلشفية في سنة ١٩١٧ ، والفترة التالية مباشرة :

في مبدأ الامر لم تفكر ديموقراطية سوفيينات العامة بانها دولة مستبدة محتكرة لكل شيء وتتكون من طينة واحدة وذلك لأن قادة هذه الدولة كانوا واثقين بان جميع الشعب الروسي يشاركونهم في جميع امانيتهم . ولم يخطر على بال اولئك الزعماء بسرعة ماذا عليهم ان يعملوا اذا ثبت خطأ هذا الاعتقاد .

فكرة تدل على الذكاء إنما ليست صحيحة . وطالما تساءل مارتوف وشاركه في ذلك محبوا الاصلاح داخل الحزب البلشفي ، حذروا جميعهم بما

سيسفر عنه الاستبداد بالسلطة استبداد يمسك بزمامه نظام الاقلية ذلك النظام المسيطر على مجتمع ممزق فقير محاولا فرض تغييرات راديكالية على شعب شكوك محب للمقاومة لن يؤدي مثل هذا الحكم إلا الى ديكتاتورية لم يكن هناك من استطاع ان يتنبأ بالاهوال الستالينية في اسوأ اوقاتها انما رأى الكثيرون من احزاب اليسار وغيرهم من الظروف التي كانوا يعيشونها اصبحت مقدمة مناسبة لحكم ستاليني . أو لم يجذر تروتسكي نفسه ، تروتسكي القديم ، من مثل هذه الامكانيات ؟

أما تروتسكي وقد وصل الآن الى ذروة القوة والسلطة بما اتصف به من الشجاعة والمواهب الرائعة فقد تمتع الآن بتحقيق كل احلامه الثورية . لم يعد يفكر ابداً كما كان يفعل سابقاً بتروتسكي القديم الذي طالما حذر وأذعر من حكم الفرد او الاقلية المغتصية ، فهل كان ما توجس منه سابقاً على وشك الحدوث ؟ . اقتنع تروتسكي الآن بان الرؤية التاريخية التي كان دائماً يقرنها مع الماركسية مكنت الثورة التي هزت العالم بان تنتصر . ولكن تروتسكي افتقر الى الافكار الناقدة أو الرؤية التي قد ترى مأساة المستقبل لذلك فلم يتبادر لذهنه أي شك بأن ما سيحصل هو نتيجة اسفرت عن عماء التاريخي .

أكان هناك شيء فطري أو « خطيئة أصلية » من حيث المذهب أو العقيدة ، في صميم الحركة البلشفية مما سبب القضاء على بروز التوتاليتارية ؟ (حكم التجمع) ؟ أو ان الحقيقة اكثر تعقيدا مما يظهر ؟ وهذه العناصر المحبة للتسلط التي ملأت عقول البلاشفة وقد اصبحت الآن بارزة بشكل جلي هذه الروح التسلطية التي اسفرت عن قرارات خاطئة أو ما كانت هذه العجرفة التسلطية وما احاط بها من ظروف تاريخية

هي التي وقفت سداً منيعاً في سبيل الحكم الديمقراطي بغض النظر عمّن سيتسلم زمام السلطة في روسيا ؟ . لا يمكننا ان نجيب على مثل هذا السؤال بما يستحق من التأكيد . واليكم في ما يلي ما كتبه ليونارد شابيرو مسانداً وجهة نظر البلاشفة في كتابه « اصل الاتوقراطية (الحكم المطلق) الشيوعية » ويعتبر ما في هذا الكتاب بياناً واضحاً عما سببه الحكم البلشفي من تحطيم مستمر لجميع الحريات .

قال شابيرو :

ان ولعهم بالعدالة كان سيقودهم الى الكارثة حيث انهم لم يستطيعوا رؤية الحاجة الملحة للتوفيق بين المصالح المتضاربة التي لا بد من وجودها في كل دولة بشكل أو بآخر . وعندما تخلو الدولة من القضاء النزيه والقضاة المستقلي الارادة فيصبح الاغراء قوياً لدرجة تجعل الحكومة أولاً تُضَحَّى بالاكثريه لفائدة الأقلية ثم تُضَحَّى اليوم في سبيل الغد واخيراً تُضَحَّى بجيل كامل في سبيل اجيال المستقبل ويبدو ان هذا ما قام به لينين ومن خَلَفَه . ولكن يجدر بي أن أؤكد هنا أن ما قاموا به عند بدء إنطلاقهم كان عن عقيدة راسخة بانهم كانوا بذلك يخدمون قضية العدالة .

يبدو أن هذا نقدٌ عادلٌ مُتَزَنٌ . يختلف اختلافاً بيناً عن الفكرة غير الناضجة التي تؤكد انه لا فرق بين (الستالينية) والبلشفية أو الفكرة القائلة بأن البلشفية ليست إلا حكماً مستبداً في جوهرها .

بما ان هذا الكتاب ليس تاريخ الثورة الروسية فلا حاجة للاستمرار بهذا الابتعاد عن الموضوع الاساسي . يكفي ان نذكر هنا بأن المجلس التأسيسي الذي كان للبلاشفة فيه ٢٥٪ من الاصوات حُلَّ بالقوة وبهذا

تكون آخر فرصة للحياة البرلمانية قد ضاعت . لكن دعنا نُفَكِّر ، ماذا كان البلاشفة يستطيعون ان يعملوا ؟ كيف يمكن ان يخضع نظام قام على أكتاف ثورة الى احتمالات خسارة كل شيء حتى وإحتمالات الكبح والطرْد بواسطة مجلسٍ انتخب بالاقتراح العام ؟ لو كان البلاشفة مستعدين ان يقبلوا بمثل هذا الاستسلام لما كان هناك داع للقيام بهذه الثورة .

ولكن يبدو صحيحا ان البلاشفة في المدن الكبيرة كانوا يتمتعون بشعبية كبيرة سنة ١٩١٧ ، وبعد ذلك بفترة قصيرة . ويبدو صحيحاً أيضاً بأن ثورة البلاشفة كانت أكثر من مجرد إنقلاب قامت به أقلية متآمرة . ولكن مع كل هذا لا يمكننا أن نفكر بانهم عندما إغتصبوا السلطة قد إنتهكوا حرمة العقائد الديمقراطية الجوهرية مبادئ وعقائد بشر بها كثير من البلاشفة . وقد حدث مرة انه حتى ونقاد لينين داخل الحزب قد غضبوا النظر ، حتى وقد قبلوا وباركوا الثورة لقد كانوا في مركز اضعف من ان يقاوموا منه النتائج اللاديموقراطية .

هذه الثورة ثورة أكتوبر (تشرين اول) التي حضنت بين ذراعيها آمال عددٍ لا حصر له من العمال الروس والجنود والفلاحين والتي استمدت من قاموا بها الكثير من التقاليد والعقائد الاشتراكية الأوروبية وفجروا هذه العقائد في ارجاء بلاد لم يعرف سكانها إلا العذاب المرير ، هذه الثورة خلقت ظروفاً أدت الى فشلها في النهاية . ففي اليوم التي انتصرت فيه الثورة اطلقت العنان لثورة مضادة قامت من داخل الثورة بسبب الافكار الخاطئة وبسبب انانية الكثيرين من الذين حاربوا وماتوا في سبيل هذه الثورة . ونحن ننظر من هذا البعد نلاحظ ان الثورة والثورة المضادة لا يمكن الفصل بينهما .

الفصل الثالث : البشفية تنال من نفسها

عزم تروتسكي بصفته وزيراً للخارجية في حكومة البلاشفة الجديدة ، كما قال مازحاً ، ان يصدر بعض البلاغات الثورية ثم « يغلق الدكان » . أما الحقيقة فكانت أكثر تعقيداً اذ كان عليه بان يشكل بصورة إرتجالية وزارة جديدة على انقاض الوزارة القديمة . اصف الى ذلك أن عليه ان يدير مفاوضات برست - ليتوفسك ، الصعبة مع المانيا الامبراطورية تلك المفاوضات التي جاءت بالسلام الى روسيا ولكن بأعلى ثمن . خلال هذه المفاوضات اختلف تروتسكي مع لينين . اقترح لينين ان توقع الحكومة الجديدة معاهدة مع المانيا مهما كان الثمن لأنه كان يشعر ان السلام ضرورة قصوى لبقاء البلاشفة . أما تروتسكي ، وقد كان يأمل بان تقوم في المانيا ثورة عمالية ، فقد اتخذ تكتيكاً خاصاً للعاقبة وذلك بواسطة خطبه الثورية الملهلة امام الممثلين الالمان في برست - ليتوفسك . وداخل حزب البلاشفة تبنت زمرة يسارية سياسة حرب ثورية بقيادة نقولا يوخارين وأخذت هذه الزمرة تنشر جريدة خاصة واصبحت تشكل حزباً صغيراً داخل الحزب . ويظهر من هذا انه كان لا يزال يحق لزعماء الحزب بان يخالفوا بعضهم البعض .

سنة ١٩١٨ ، عندما نشبت الحرب الأهلية في جميع روسيا اصبح تروتسكي وزيراً للحربية . لم يكن لتروتسكي أي خلفية عسكرية اللهم الا النزر القليل من خبرة اكتسبها عندما خدم خلال حرب ثانوية نشبت في البلقان . واستطاع تروتسكي بسرعة ملهلة بان يخلق جيشاً من لا شيء تقريباً وذلك بما كان يتمتع به من المبادئ الثورية والحماس الثوري وليس

اي شيء آخر . وكان تحت تصرفه بضعة آلاف من البلاشفة من اعضاء ميليشيا الحزب او الحرس الاحمر الذين حاربوا في الثورة ويمكن في افضل الاحوال اعتبارهم شبه قوة عسكرية . اصف اليهم جماعة لا بأس بها من ضباط الجيش الروسي الذين عن طيبة خاطر رغبوا في خدمة النظام الجديد بصفة غير سياسية وكذلك جواهر من متطوعين غير مدرّبين كانوا يفتقرون الى التدريب اللائق وتنقصهم الاسلحة .

لمدة سنتين تقريباً عاش تروتسكي في قطار مسلح اعتُبر مقرأً عسكرياً سياسياً متحركاً للجيش الجديد واخذ تروتسكي يتنقل بسرعة من جبهة الى اخرى يعمل بنشاط يكاد يكون وحشياً ويعرض نفسه لمعارك في منتهى الخطورة هادفاً لَلَمْ شعث جنوده الخائفين والمرتبطين ومصرأ على منح الضباط القدامى جميع سلطاتهم العسكرية ولكنه احاطهم بشبكة محكمة من القوميسارين (رؤساء الدوائر) ، ومحاولا جهده لرفع مستوى الكفاءة والنظام بين الجنود الذين قد فسدت اخلاقهم ووهنت عزائمهم منذ أمد طويل وفوق كل هذا كان تروتسكي يحث جنوده بأن يحاربوا ويموتوا في سبيل قضيتهم وذلك بما كان يلقيه عليهم من خطبه الطنانة ومنشوراته الرائعة . وهكذا تمكن تروتسكي مع من ساندته بان يخلق جيشا يتمكن في النهاية من التغلب على الروس البيض . وكان قد فهم تماماً بان ارادة النضال والاصرار عليها هي التي تقود جيش الثورة الى النصر النهائي الحاسم . وليس هناك أي شك في ان النصر سيكون مؤكداً ما زال الجنود المحاربون يؤمنون بانهم صليبيون يحاربون للتوصل الى عالم افضل وبانهم مستعدون لمواجهة الموت مقتنعين تماماً ، كما قال تروتسكي في خطابه « بانهم شركاء في محاولة تاريخية ليس لها نظير سابق لخلق مجتمع

جديد تعتمد فيه كل العلاقات البشرية على التعاون ويصبح الانسان أخا للانسان وليس عدوا له .

الواقع ان هذا « المجتمع الجديد » خلال الحرب الاهلية كان ابعد ما يكون عن الأخوة . وهذا منتظر تماما ، فانهايار الصناعة والجهود والتضحيات الضخمة التي تطلبها الحرب الاهلية ثم العراقيل والتدخلات التي ما فتئت قوى الرأسمالية تمارسها وكذلك اخطاء وعدم خبرة البلاشفة في ما يختص بالامور الاقتصادية ثم ضعف حماس الفلاحين (الذين كان مهمهم الوحيد هو الحصول على الأرض ولا شيء آخر) وأخيراً التفكك الذي حلّ بالطبقة الكادحة نتيجة للشلل الاقتصادي والخدمة العسكرية والهرب من المدن التي كانت تتضور جوعاً - ويعني كل ما ذكرنا الالام والجوع والموت والظلم ولا شيء آخر . وأخذ البلاشفة يلجأون الى إجراءات متطرفة ما حلموا بها ولا خطرت على اذهانهم في برامجهم السابقة . فأتموا جميع انواع الصناعات وحظرت التجارة الخاصة وارسلت جماعات من الحزب الى الريف لطلب الغذاء من الفلاحين وكانوا احيانا يدفعون الاجور عيناً (ليس نقداً) ولم يعد للنقود الحكومية أي قيمة تذكر . واصبح كل شيء على الصعيد السياسي يزداد في اساليب الظلم والارهاق . واما باقي الجماعات اليسارية التي حاولت ان تحفظ التوازن بين مساندتها للبلاشفة وانتقادها لتصرفاتهم المتطرفة هذه الجماعات اصبحت واقعة تحت الرقابة الشديدة القاسية لجماعة « الشيكا » أي البوليس السري الجديد . وجددير بي هنا ان اذكر ملاحظة اسحق دوتشر ، قال : شيوعية الحرب هي الفكرة الساخرة الماركسية لمجتمع المستقبل . يجب ان يملك مثل هذا المجتمع كصورة خلفية موارد عالية

التطور ومنتجة بطريقة منظمة تماماً كما ينبغي ان يكون حائزاً على مقادير وافرة من البضائع ومختلف الخدمات . وينتج كل هذا بالغاء اللامساواة الاقتصادية الغاء نهائياً وبجعل مستوى المعيشة بصورة مناسبة للمجتمع . على ان شيوعية الحرب ، عكس ما ذكر ، نتجت عن تفكك اجتماعي . ولا شك أنها حاولت الغاء اللامساواة ولكن الضرورة قضت ان ينجز هذا العمل بواسطة تدتي مستوى المعيشة وجعل الفقر يعم البلاد بأسرها .

من هذه اللحظة المأساوية نستطيع ان نرى صورة تروتسكي الشعبية كقائد حربي ، كل شخص يعرف صورة تروتسكي وهو يرتدي معطفه الحربي الطويل ولحيته القصيرة المدببة وقامته المنتصبة المهية الملكية ، أما فيما يختص بالبلاشفة العسكريين وخاصة من كان يرى منهم بأن الحرب الاهلية تشكل الخبرة المركزية لكل حياتهم لم ينس تروتسكي بان يبرز بشكل واضح هذا الحنين التاريخي لقضيتهم ، وقد اصيب مثقفو العالم بالدهول وهم ينظرون الى هذا الخطيب الألمعي وقد تحول في غمضة عين الى رجل اعمال بما كان يتصف به من ارادة لا تقهر . ولكن ماذا كان رأي المنشفيك والفئات اليسارية المهزومة الاخرى في ما يختص بتروتسكي ؟ كانوا ينظرون اليه بنظرة كلها كراهية كانوا يبغضونه اكثر من أي حاكم من الحكام الجدد فوصفوه بانه متعجرف قاس ودكتاتوري وقد تجرد من كل كلماته الجوفاء والاحساسات التي اظهرها وهو في المنفى ، اما اولئك البلاشفة الذين كانوا يتصدرون المراكز الحزبية وكانوا يواجهون اشد الاخطار وبرزوا الآن ليتمتعوا بمباهج السلطة اولئك كانوا ينظرون الى تروتسكي بانه دخيل متطفل على البلشفية . واصبح تروتسكي كما رآوه ذكياً انما مغروراً واكثر شعبية من ان يستطيع أي انسان بان يهاجمه إلا في

بعض العبارات النقدية الخفية ومن الجلي انه لم يُقبل أبداً في صميم حياة البلاشفة الزعماء اثناء السنوات القليلة التي تلت الثورة عمل تروتسكي كزعيم للدولة اكثر منه زعيماً للحزب . ولم يكن يملك الوقت ولا الميل للتمتع بمحاسن السلطة البيروقراطية وما لا ريب فيه ان خشونته سببت عداً كثير من موظفي الحزب الذين استطاعوا بعد بضعة سنين بان يأخذوا بالثار منه . صار تروتسكي ينظر الى نفسه كضابط كبير في جيش الثورة العالمية ولم يعد يتحمل اي ازعاج مما كان يحدث في مكتب منظمة اللجنة البلشفية المركزية وانها لغلطة فظيعة - اذ في بلاد ليس فيها الاحزاب واحد او حتى متعددة الاحزاب ما يحدث في مكتب المنظمة قد يؤثر بعمق على السياسة الانسانية . كانت علاقات تروتسكي مع لينين عادة ودية الا انها لم تكن علاقات وثيقة ورغم الاختلافات المتكررة بينهما فقد استمرا يعملان معاً ولكن بدأ غشاء من الحملات والاتهامات القديمة ينسج خيوطه بينهما . قالت زوجة تروتسكي وهي تستعيد بعض ذكرياتها :

كان الطعام في الكرملين الذي تناوله الزعماء اكثر من بسيط واقتصادي تماماً . اعتاد تروتسكي ان يقول « علينا ان نعيش حياة ليست افضل مما كنا عليه ونحن في المنفى » ووافقته على ذلك لأنني كنت اعرف تماماً حالة الحرمان التي كان يعيشها العمال . على كل حال كنت اشتغل لدرجة لم يكن فيها أي مجال للاهتمام بالغذاء ولم يتمتع بنوع من التوفيق ورغد العيش الا أصحاب الاعمال الخاصة القليلون وكذلك اصحاب الاراضي السابقون الذين كانوا يعيشون بعيدين عن السوق السوداء . حدث مرة ان جلس تروتسكي الى وجبة طعام ولاحظ وجود قطعة من الزبد فسأل مندهلاً « من أين جاءت هذه ؟ » . لقد احضر لنا هذه القطعة النادرة من

الزبد ليونيد سربراياكوف سكرتير اللجنة المركزية الذي كان الطبيب قد اعلمه عن حالة الضنك التي نعيشها ، ولقد مضت عدة شهور حتى تمكن اعضاء الحكومة ان يحصلوا على طعام شبه مقبول .

استطيع ان اقرر هنا ان اوضح صورة تمثل تروتسكي خلال السنين التي تلت الثورة مباشرة هي تلك التي رسمها لنا فكتور سارج الكاتب الذي امضى مدة يعمل في مركز الشيوعية العالمية .

قال فكتور :

ليس هناك من استطاع ان يتحمل مصير شعب بمثل هذا الاسلوب . كان تروتسكي في الحادية والاربعين وفي قمة سلطته وشعبيته وشهرته كان قائد جماهير بتروغراد في ثورتين وخالق الجيش الاحمر ذلك الجيش الذي قال عنه لينين وهو يحدث غوركي : لقد أَلَفَ تروتسكي من لا شيء ، وهو المسؤول شخصياً عن كثير من الانتصارات في معارك حاسمة في سفياجك وكازان وبلكوفو ، واليه يُعزى تنظيم جميع الانتصارات في الحرب الاهلية ولقد تفوق على لينين بواسطة مواهبه الخطابية وفي مقدرته التنظيمية في ما يختص بالجيش ثم السكك الحديدية اضيف الى ذلك ما كان يتصف به من مواهب مرموقة في ابتكار النظريات ، أما في ما يختص بلينين فكانت ثروته الكبيرة الفكرية وعظمته البارزة هي في كونه حتى وقبل الثورة ، زعيم حزب البلاشفة في أول تكوينه وهذا الحزب الصغير هو الذي شكل نواة الدولة وعمودها الفقري تلك النواة التي كانت دائماً ترتاب بأفكار رئيس مجلس الحرب العالي (تروتسكي) تلك الافكار الغزيرة والشديدة الميوعة .

حدث مرة في مؤتمر الشيوعية العالمية ان ظهر تروتسكي وهو يرتدي بدلة رسمية بيضاء خالية من الاوسمة وعلى رأسه قبعة عسكرية عريضة بيضاء وكان مظهره بالفعل عسكرياً تماماً بصدره القوي العريض ولحيته السوداء الفاحمة وشعره الاسود ونضاراته اللامعة ، بدا موقفه اخشن من لينين وبدأت عليه ملامح السلطة والقوة . واسمحوا لي هنا ان اقرر ان تروتسكي بدا لي ولاصدقائي نحن النقاد الشيوعيون بهذا المظهر وبشكل بارز تماماً . لقد كنّا نعجب به جميعاً انما لم نكن له أي حب .

وعلى صعيد المناقشات البلشفية التي ظهرت الان والتي اخذت تعالج اعادة الاعمار بعد الحرب كان دور تروتسكي شاذاً ومثيراً للخط . صار تروتسكي يسعى جاهداً - كما فعل النظريون الآخرون في المخيم البلشفي امثال لينين وبخارين - ليشق طريقه خلال صعوبات لم يتكهن بها أي ماركسي روسي إذ لا أحد قد تخيل ما يشبه شيوعية الحرب . (ومع ذلك فان بعض النقاد قد تكهنوا بذلك) ففي كانون الأول سنة ١٩١٩ قدم تروتسكي سلسلة من المقالات الى اللجنة المركزية للحزب ناقش فيها ضرورة الشغل الالزامي ووجود الجيش العامل الذي يحكمه النظام العسكري بواسطة اتخاذ اجراءات مشددة لا بد منها لرفع مستوى الاقتصاد المفكك لكي يصل به الى ادنى مستوى انتاجي حيث الحوافز الاعتيادية قد تبدأ بالعمل ثانية . وكان لخطه تروتسكي هدفان رئيسيان : ان يجد طريقاً لاعادة الطبقة العاملة الى المعامل التي هجرتها وان يكتشف وسيلة لاستخدام نشاطات الجيش الاحمر لاعادة بناء اقتصاد البلاد . وكان يكمن وراء هذه الخطه مشكلة فادحة ألا وهي ان الاقتصاد كان في حالة مريعة . واذاً فلا بد من استعمال الوسائل الاجبارية في البدء لكي تكون

فعالة ، وقال تروتسكي ان الفكرة التالية كانت أن « أجهزتنا الفنية قد بليت وعلينا ان نعوض باستمرار عن هذه النواقص بواسطة الطاقات البشرية النشيطة » . وناقش قائلنا :

من الضروري ان اصرح هنا بكل جلاء وعلى مسمع من آذان جميع الأمة بان حالتنا الاقتصادية اسوأ بمائة مرة مما كانت عليه ظروفنا العسكرية وكما كنت قد اصدرت اوامري سابقاً مناشداً الطبقة الكادحة بان تبادر الى ركوب الخيل وحمل السلاح فأنني اعود واناشدهم اليوم بان يعودوا الى المعامل وان يسازعوا الى الانتاج .

ورغم أن لينين قد دعم هذا الاقتراح إلا انه لاقى مقاومة قاسية من بين صفوف البلاشفة وخاصة نقابات العمال الذين ما زالوا يتأثرون بالضغط الشعبي ويخشون من تعزيز النخبة البيروقراطية العسكرية . ولمدة قصيرة اقيم عدد من معسكرات العمل مما سر له تروتسكي وبدأ يكتب بصورة بعيدة عن الواقعية عن دور هذه المعسكرات في « بناء الشيوعية » .

في اوائل سنة ١٩٢٠ ، بدأت افكار تروتسكي تتحول بصورة حادة وغريبة . فخلال رحلة الى الأورال خرج قطاره العسكري عن الخط وبالرغم من الرسائل البرقية المحمومة بقي القطار بين الثلوج لعدة ساعات وبدأت التحقيقات لمعرفة السبب واكتُشف أخيراً بان السبب كان يُعزى الى الهلادة وعدم الكفاءة الناتجة عن نقص الطعام والعمل المرهق والسنين الطويلة من التعب . وعرف تروتسكي انه اذا لم يستعمل الارهاب فانه لا يمكن اجبار الجماهير على العمل حتى ولو كان الهدف

التوصل الى ادنى حد ممكن من الانتاج المفيد لهم اذا توصلوا اليه . واقتراح تروتسكي الان كثيراً من الاجراءات التي يجب ان تنفذ خلال سنة واسماها « السياسة الاقتصادية الجديدة » . إنتهى بذلك نظام إسترداد المحصولات وسمح للفلاحين بان يبيعوا فائض محصولهم بربح لهم وهكذا فقد اعتبر هذا وكأنه رجوع جزئي الى السوق الحرة وهذا النظام هو الذي كان يهزأ منه البلاشفة والذي كان النقاد المنشفيك يدعون اليه .

بالاختصار هُزم اقتراح تروتسكي . فبايعاز من لينين تمسكت اللجنة المركزية الى « الاجراءات المفزعة » والمُسماة « اجراءات الشيوعية الحربية » . واصبح ما ظنَّ بانه عمل إرهابي في البدء يُعتقد الان بانه « عادي » او على الاقل لا بد منه ولسوء الحظ لم يُصرَّ تروتسكي على وجهات نظره ، ولقد كره تروتسكي بان يرفع آراءه الى المراتب الحزبية خوفاً من ان يثير ذلك نتائج مدمرة ونزاعات لا نهاية لها داخل صفوف الحزب بعد انتهاء الحرب الاهلية فاضطر ان يرجع الى برنامج السابق برنامج عمل المعسكرات والى الاساليب المدهلة في الحياة الاقتصادية كان المنطق بجانبه اما الحقيقة فلم تكن . فقد بدا منطقيا انه أمّا وقد رفض الحل لمصلحة المجتمع فلم يبق بديل عن الاجبار . اما من الوجهة السياسية فقد كان هذا كارثة ويا لها من كارثة . لانه بذلك أعان تلك القوى المتغلغلة داخل الحزب والتي اخذت تستعمل الاساليب القمعية التي تتمشى مع الانتقاد وعدم الرضاء .

نشاهد هنا تردد يائس فظيع في السياسة الاقتصادية ليس فقط فيما يختص بتروتسكي بل ايضا في جميع الحركة البلشفية . ولقد اصبح البلاشفة وعددهم ٢٤٠,٠٠٠ والعهد الصحيح سنة ١٩٢٠ اصبح

١٠٠٠ ، ١٦١٢ ، في عزلة تامة عن الشعب . اولئك البلاشفة الذين اعتقد
لينين انهم سيحكمون البلاد . جابهتهم الآن الكوارث الاقتصادية التي
لم يلمحوا بها وما تمكنوا من التغلب عليها . فأخذوا يستخدمون إجراءات
متطرفة إرتجالية مستخدمين بيروقراطية الدولة بشكل متزايد مما سبب
ارهاقا اجتماعيا ونفسانيا في الطبقات الدنيا . وأصبح الحكام البلاشفة الآن
يدفعون ثمن فشلهم لعدم تدقيقهم في معرفة نتائج اغتصابهم السلطة كما
وان جميع البلاد ايضا صارت تدفع ثمن هذا الفشل .

انه لحري بالذكر ان ما بقي من الحرية التي سمحت لشيء من
المعارضة جعلت رافائيل ابراموفتش ، ينهض اثناء احدى المناقشات
العامة ويوجه استجوابا الى كتائب العمال ضمنه نقداً جارحاً قال : هل
لكم أن تبيّنوا اذا كانت إشتراكيّكم تختلف عن العبودية في مصر ؟
اسمحوا لي ان اذكركم بان الفراعنة بنوا الاهرامات بأساليب مشابهة
لأساليبكم . فها أنتم تسخّرون الجماهير وتجبرونهم على العمل . واجاب
تروتسكي « إن ابراموفتش لا يرى فرقاً بين النظام المصري ونظامنا . لقد
عَرَّبُ عن باله الطبيعة الطبقيّة للحكومة وانني اذكر هنا انه ليس الفلاحون
المصريون هم الذين قرروا من خلال مجالسهم بناء الاهرامات أمّا الالتزام
هنا فنتائج عن حكومة عمال وفلاحين .

انه لحوار ظهر فيه تروتسكي في اضعف حالاته اذ انه نسي او تناسى
بانه قُبِّلَ سنة ١٩٢٠ ، لم يعد للعمال الكثير ليقروه بأنفسهم . اتخذت
كل القرارات الحكومة البلشقيّة متذرعين باسم الطبقة الكادحة العماليّة
بينما كانت معظم القرارات ليست في صالح العمال . لقد خسر البلاشفة
جزءاً كبيراً من الدعم الذي قدمه لهم العمال منذ ثورة تشرين اول وهاكم

فيما يلي ملاحظة سجلها دوتشر ، قال « لو سمح البلاشفة الآن باجراء انتخابات عامة للسوفييتات لكان من المؤكد ان يُطاح بهم ويفقدون سلطتهم » . وعلى هذا الصعيد لا يمكن تبرير سياسات الحكومة لمجرد كونها « حكومة عمال » . ولا يحق للحكومة الادعاء بانها حكومة عمال إلا اذا عملت على تنفيذ السياسات التي ترفع من شأن العمال . وأسوأ من كل هذا ان نقاش تروتسكي قد مهد السبيل لتصويب الممارسات الستالينية التوتاليتارية .

ويظهر ان الجيش الذي كان تروتسكي يدعي بانه يدافع عنه اخذ يرتاب بأهداف تروتسكي ولما أخذ يحاول تبرير المظالم التي مارستها الفئات الاشتراكية المتمردة إستند الى الضرورة الماسة لكسب الحرب الاهلية وإنفاذ الاقتصاد المنهار . ولما التفت من دوره الحربي الى دوره لانفاذ وانعاش الانتاج الاقتصادي جمع جميع مواهبه ووجهها نحو هذا الهدف . على ان دوره السياسي اتخذ طريقا تسلطيا قاسيا لا يمكن تبريره رغم أن هذه الاجراءات اتخذت خلال الحرب . ولما اجبر تروتسكي بسبب الظروف التي لا تطاق والتي سببها حصر السلطة بيد زعماء البلاشفة من جهة وللاجراءات الشاذة المستغربة الظالمة من جهة أخرى بينما كان من السهل انتهاز هذه الفرصة لتعميم الانفتاح على الحياة السياسية والاشتراكية بما يكون فعالاً ومجدياً لانفاذ الموقف أقول ان تروتسكي أجبر على سن قوانين ظالمة قضت على ما تبقى مما سُمي « الديمقراطية السوفياتية » وأسوأ من كل هذا ان تروتسكي قام بهذه الأمور بحماس شديد كما لو انه اراد ان يمحو من ذهنه ذكرى ما قاله في السنين الأولى .

في هذا الوقت اي سنة ١٩٢٠ ، نشر تروتسكي كتابه « الارهاب

والشيوعية » ، وربما كان هذا اهم كتبه في ما يختص باطاعة الحكم . لقد انشأ كتابه هذا مجيباً على إنتقادات كارل كوتسكي ، للنظام البلشفي . يُبرز هذا الكتاب خيلاء الحاكم صاحب السلطة وعدم تحمل القائد الذي إعتاد على التمتع بأقدار الحرب الاهلية أي نقد من أي نوع وقد نرى هنا أنراً للمحاور الذي قبل بضع سنوات كان يوجه الى لينين إنتقادات لا تختلف أبداً عن النقد الذي وجهه كوتسكي الى تروتسكي انما علينا أن نؤكد هنا ان هذا الكتاب « الأرهاب والشيوعية » هو عمل رائع يتصف بقوة حوارية بارعة لازعة قلماً وصل إليها أي كتاب آخر .

يرتكز اساس فكرة تروتسكي على قوله : « لم يفكر التاريخ منذ اقدم الازمنة وحتى الآن بطريقة أخرى لدفع الجنس البشري الى الامام غير قيام حكومة ثورية بشكل عنيف تقودها الطبقات التقدمية للقضاء على ظلم الطبقات المحافظة المهترئة » . لقد كثرت المواعظ اثناء الحرب بين الفصائل الحمراء والبيض مواعظ تذكر « بقدسية الحياة البشرية » ، وتندد بفظائع البلاشفة في الحرب الاهلية . وهذه الممارسات البلشفية « الارهاب وأخذ الرهائن الخ » . التي كثر الكلام عنها كانت مسببة إما عن متفرجين يحاولون النقد واطهار الفضائل والتنديد بما هو مخالف للفضيلة وهم جالسون في بيوتهم بعيدين عن مسرح الحوادث أو انهم فئة من الناس التي رفضت ان تعترف بضروريات الأمور الواقعية . فلنصنع هنا الى تروتسكي وهو يوجه اسئلة الى كوتسكي بأسلوبه اللاذع القوي :

قال : على البرجوازية التي اطيع بها أن تطيع الدولة السوفيتية . بأية وسيلة ؟ لقد إعتاد الكهنة على المزاع الشعب بواسطة ترديد عبارات العقاب في المستقبل . اننا لا نملك مثل هذه الموارد تحت تصرفنا . ولكن

حتى وجههم الكهنة لم تكن تقف لوحدها بل كان هناك ايضاً النيران الحقيقية المتدفقة من ديوان التفتيش المقدس ومن العقارب اللاذعة التي تكمن في الدولة الديموقراطية . أيمكن ان يكون كوتسكي يعتمد في حوارهِ عن فكرة البرجوازية بأنه يستطيع ان يكبح جماحها بواسطة الأوامر الطبقيّة الختمية التي اعتبرها كوتسكي في آخر ما كتب بأنها « الروح القدس » ؟ أما نحن من جهتنا فلا يمكننا تقديم العون من « الروح القدس » انما نقدم العون الذي نستطيعه وعليه هو شخصياً أن يجهز ويرسل بعثة كانتية (الفيلسوف كانت) الى مملكة زعماء البيض دانينكن وكلشاك .

فاذا سلّمنا بفكرة تروتسكي القائلة بأن سياسات النظام البلشفي هي استجابة ضرورية لا بد منها للحرب الاهلية ولا تسمح مثل هذه الحروب للطوائف الامور المختارة الى طرقها ، وبيان استعمال الصنف من كلا الجانبين لا يستوجب اللعنة بل يجب أن نحكم على ذلك حسب ما تقتضيه الصفات الاجتماعية للقوى المتصارعة - فاذا سلّمنا بكل ما ذكرنا فيظهر لنا جلياً ان حوار تروتسكي قوي متين . ولكن تروتسكي استمر يسائل نفسه اذا كانت هذه الفرضيات يجب ان تُقبل بكاملها وبدون أي سؤال .

الأجدد بنا ان نعتبر نقد الراديكاليين غير البلشفيك الذين كانوا يدعمون نظام لينين الموجه ضد الحرس الابيض مفيداً كأنه محكٌ لظهار الخطأ والانتهاكات التي تقوم بها السلطة ؟ ألم يكون هناك حوافز للتسلط المطلق في الممارسات البلشفية غير التي حفزتها الحرب الاهلية ؟ وهل يجب علينا أن نعلّق الحوار السياسي خلال الحرب الاهلية (لم يفكر تروتسكي بهذا الأمر في ما بعد وهو يطور سياساتها اثناء الحرب الاهلية الاسبانية) ، واذا كانت الجماهير الروسية قد كرسّت نفسها بكل حرارة

الى جانب البلاشفة كما يدّعي تروتسكي ألا يفسح هذا مجالا لبعض الاعمال المتبادلة في الحياة السياسية لكلا الجانبين حتى وفي اصعب الظروف وأدقها ؟ ولنسّلم ان الحرب تفرض ضروريات لا بد منها - ليس أقلها ضرورة قتل الانسان - الا يجد باولئك الذين يدعون بأنهم يمثلون مستقبلاً بشرياً أفضل الا يجدر باولئك بأن يفكروا بالسماح لبعض الاساليب المفيدة ؟ أليست هناك قوانين كابحة يمكن تنفيذها حتى وفي اصعب الظروف وأدقها ؟ قوانين لا يهتم بها أمثال دانيكن وكولشاك ، وانما هم لينين وتروتسكي ، ولو كان ذلك فقط كعلامة للسيادة التاريخية الاخلاقية للجانب التقدمي ؟ أولاً يجدر بنا ان نفكر بالخطر الناجم من التبرير الظاهر للطرق البغيضة بأن هذا سيؤدي الى فكرة لجعل مثل هذه الطرق دائمة ؟ .

لا شك ان مثل هذه الاسئلة يمكن ان ترتدي حلة اكثر تعقيداً ولكن ربما كان من الأفضل أن نحتفظ بها بسيطة غير معقدة . ويبدون ان هذه الاسئلة معقدة كانت أو بسيطة لم تُربك تروتسكي أبداً وهو يكتب « الارهاب والشيوعية » يمكن لمن إعتاد على سماع هذا الصوت المسيطر على الكتاب أن يتصور بسرعة الاستهزاء واللامبالاة التي يقابل بها أي رية أو شك يدخل في أذهان « الطبقة المتوسطة الحقة » ومع ذلك فان نقاش تروتسكي يبدو أبسط وقل جاذبية من حملة كوتسكي . أخيراً الخصب هنا بأن خلاصة قول تروتسكي هي أننا « نحن الماسكون زمام السلطة نمثل القوى التقدمية لذلك يحق لنا أن نتخذ الاجراءات التي مارسناها بالفعل » . يُبد أن استعمال إصطلاحات مثل « أساليبنا نحن » تجعل الغايات المستهدفة مشكوكا بها لأن تكرار استعمال مثل هذه الوسائل يجعل

من المستحيل التوصل إلى الغاية المنشودة . واننا لنشاهد دائما ونحن نستمع إلى هذا الحوار نوعاً من تكرار ذكر كلمة « نحن » وكأنها اسطورية كما لو انها إمتلاك فخم للدلالة على تقدم البروليتاريا ويبدو ان هذا يمثل لنا ذروة وجهة النظر البلشفية . « نذكر هنا ان كلمة « نحن » اخذت طريقها الى الفناء في مستهل القرن العشرين مفسحة المجال لنوع من الموضوع السياسي » .

هذا وليس هناك نقطة سببها الجدل مع كوتسكي اكثر اهمية من الفكرة التي يشرحها لنا تروتسكي في كتابه ، الفكرة التي جعل عنوانها « التعريف بالحزب البلشفي مع مصير ومصالح الطبقة الكادحة » قال تروتسكي :

« ان استمرار إستقلال حركة نقابة العمال ، خلال فترة الثورة البروليتارية أمر مستحيل كإستحالة سياسة الإئتلاف (مع الاحزاب الاخرى) . لقد وصلت نقابة العمال الى مركز من اهم المراكز الاقتصادية في هذه الحكومة حكومة البروليتاريا . واذن فانها تقع تحت سيطرة الحزب الشيوعي . ومن الجدير بالذكر ان اللجنة المركزية لحزبنا تقرر ليس فقط المسائل المتعلقة بالمبادئ في نقابة العمال ولكن ايضا المشاحنات الخطيرة التي طالما تفجرت داخل النقابة نفسها » .

سنة ١٩٣٦ ، اعلن تروتسكي وهو يكتب عن دستور ستالين مُعرِّفاً بالدولة والحزب ثم الحزب والبروليتاريا بانها « مغالطات سفسطائية ولكنها جوهرية للمذهب الرسمي » . وبما لا شك فيه ان هناك فرق شاسع بين « روسيا لينين سنة ١٩٢٠ وروسيا ستالين سنة ١٩٣٦ » ، مع كل هذا

الا يجدر بنا ان نذكر أن السفسطة التي هاجمها تروتسكي في كتابه وكان على صواب في ذلك تجد بعض التوقعات في الفقرة التي إقتبسناها من كتابه ؟ لا شك ان توقعه كان صحيحاً ويعتبر هذا من فضائله . اليكم ما قال أيضاً ، مردداً الاسئلة الموجهة إليه ا

ولكن أين ضماناتكم ؟ يسألنا بعض من يعتبر نفسه من الحكماء ، أين ضماناتكم بكون حزبكم وحزبكم فقط هو الذي يعبر تعبيراً شافياً عن مصالح التطور التاريخي ؟ إنكم وقد دمرتم قوى الاحزاب الأخرى منعمت بذلك منافستهم السياسية واسفر ذلك عن حرمانكم من امكانات فحص اعمالكم .

ويجب تروتسكي على هذه الاسئلة :

في فترة ترتدي فيها الخصومات مظهراً مكشوفاً فيصبح لدى الحزب الحاكم مادة عالية المستوى يستطيع بواسطتها فحص أعماله دون تعميم الجرائد المشفية المحتمل . تذكروا ان نوسك ، (الديمقراطي الاشتراكي الألماني المبعوض لسبب دوره في وفات روزا لكسمبرج وكارل ليبخنخت) قد سحق الشيوعية ولكنها نمت اما نحن فقد كبعنا جهاج المشفيك والراديكاليين فاخفقوا جميعاً .

الا يجد تروتسكي وهو في اوائل حياته السياسية او تروتسكي فيما بعد الا يجد هذا الجدال مربكاً ؟ إذ من يستطيع ان يؤمن بان النمو هو دليل واضح للتصحيح السياسي ؟ أليس من الجلي ان حوار تروتسكي مقارب كثيراً لما قاله اخصامه الذين اخذوا يهزأون من الحركة التي ترأسها في الثلاثينات من القرن العشرين وظاهر ان المشفيك قد تكاثروا في

العشرينات من القرن العشرين قبل ان يقضي عليه التشيكا . لا - ان هذا الكتاب لا يُشرف تروتسكي فاني اقرر هنا انه ليس هناك أي كتاب يوضح الرباط الوثيق بين اللينينية والستالينية او يبين خطأ من الاستمرارية من لينين الى ستالين أكثر مما يظهره كتاب تروتسكي « الارهاب والشيوعية » .

لقد كان سحق كوتسكي أمراً سهلاً أما مكافحة المشاكل التي وصفها كوتسكي فقد كانت أكثر صعوبة . لقد كانت الفترة التي تلت الحرب الأهلية مليئة بالألم المبرح في ما يختص بتروتسكي وكذلك المنشفيك ككل . اذا لا شيء حدث كما تخيلوا وتأملوا او توقعوا . لقد اصبحوا سادة فوق الخرائب وحكاماً مسيطرين وحاكمين على جائعين . لقد حدث في اوروبا ثورات وإنفاضات وانقلابات فاشلة ولكن في روسيا لم يحن بعد يوم الانقاذ بواسطة البروليتاريا العالمية . ما زالت قطاعات كبيرة من الطبقات الكادحة وربما الاكثرية في اوروبا منضمة الى الديوقراطيين الاشتراكيين . لقد عرف البلاشفة فيما بينهم بانهم يسيطرون على البلاد ويحتفظون بسلطتهم بواسطة قوة الجيش وقوة الشرطة . وعرفوا تماماً ان الفلاحين الروس كانوا يكرهون السياسة الزراعية للنظام البلشفي . وقد فهموا تماماً ان الطبقة الكادحة قد فقدت حماسها الثوري . قال اللورد أكتن ، القوة تفسد والسلطة المطلقة تؤدي الى تمام الفساد المطلق ولكن لا يبدو هذا مزعجاً اذا كانت السلطة في أيدي نوع من نخبة من الناس وخاصة الذين لم يقعوا في قبضة عقائد متطرفة . يستطيع الحكام الذين لا يشعرون بحاجة لتبرير استبدادهم باظهار مثل عالية من الاخوة والمساواة ، مثل اولئك يطمثون تماماً للمظالم التي يقومون بها والدم الذي يهرقونه . اما بالنسبة للحكام الذين يشعرون بان اخذهم السلطة ناتج

عن التزامات تعهدوا بها بشكل حار وعن مُثلٍ عليا تبناها ولم يترددوا أبداً بالتضحية بأنفسهم (والآخرين) لأجل هذه المثل فمن المثير حقاً ان نرى امثال هؤلاء ينتهون الى زمرة من الدكتاتوريين القساة حتى ولو استمروا بالاستناد بشدة الى شعار « دكتاتورية البروليتاريا » . في نظر البعض قد يؤدي هذا الارتباك الى اعادة نظر مدروسة تماما ويعتبر آخرون ان ذلك ليس إلا الانغماس في مساخر البيروقراطية الكسولة وجماعة أخرى تعتبر ان ذلك ليس إلا تصميماً لتجربة مسيرة تاريخية آملين ان يتوصلوا الى المثل التي تبناها في السنين الأولى .

انني لا اقرر هنا بان تروتسكي او آيا من القادة الروس الآخرين قد ساروا سيراً واعياً على أي من الطرق التي ذكرتها . لم يحن الوقت بعد لهذا الأمر . ما زالت هناك ارادة صلبة ثورية وولع هائل جنوني بالسلطة وتصميم واصرار على صواب العقائد التي تتحلّى بها الطليعة . انما بدأت علامات الفزع والريبة في الظهور ومن الطبيعي انها توضحت في ما مضى أكثر منها في الوقت الحاضر .

تأرجحت افكار تروتسكي في ما بين مركزين في نهاية التطرف . . ففي احدى النقاط توقع تراجع او تراخي السياسة الاقتصادية الجديدة . ومن ناحية أخرى اندفع نحو شيوعية عسكرية متطرفة آملاً بذلك راب صدع الخيوط الاقتصادية الممزقة في الاقتصاد الروسي . استجاب كثير من الروس الآخرين بطريقة مختلفة تماما . فقد نددت جماعة من المنشقين من داخل الحزب - المعارضة العمالية المكونة رئيسياً من العمال الثوار و يرأسهم شليابينفوك ، الزعيم المحنك ، نددت بهذا الاتجاه العسكري البيروقراطي الذي سار عليه النظام الجديد . وطالبت هذه الجماعة بالحاح بان تتسلم

نقابات العمال ولجانهم زمام تسيير الامور الاقتصادية . بيد ان هذه الفكرة شبه النقيابة هددت بشكل واضح جلبي احتكار الحزب للسلطة وكانت غير عملية بناتاً في ما يختص باقتصاد مُرنجمل وفي حالة من الفوضى الشديدة . ولهذين السببين المذكورين عارض كل من تروتسكي ولينين هذه الجماعة . وظهرت هناك فئة اخرى من حزب الديمقراطيين الوسط المؤلف رئيسياً من المثقفين وطالبت هذه الفئة بكل إلحاح اعادة الديمقراطية الى الحزب والسوفييتات واثناء التحدث عن « الثقافة الروسية المدنية » ذكرَ اولئك الديمقراطيون الوسط الحزب الى القيم التي ذكرها لينين سنة ١٩١٧ ، في كُراسه « الدولة والثورة » . أما تروتسكي فقد تحدث بمهارته المنطقية السياسية وشدد في نقاشه الى درجة غاية بالتطرف المتشدد وذكر بانه لا بد في تلك الاوقات الحرجة من زيادة سلطة المؤسسات الحاكمة .

هذه القضايا التي اخذت تنخر في عظام الحزب تفجرت سنة ١٩٢٠ ، وحملت اسماً غريباً ألا وهو « حوار نقابات العمال » وبدأ في البدء ان لا شيء هناك يدعو الى القلق انما تطورت الأمور في النهاية وتفاقمت . ناقش تروتسكي الفكرة قائلاً ان نقابات العمال يجب ان تندمج في الدوائر الحكومية ، اما لينين فلم يكن راغباً في منح النقابات أي حرية في ممارسة اعمالها فقد ظهر واقعياً أكثر من تروتسكي وابدى ليونة في منح النقابات نوعاً من الاستقلال الذاتي لأنه اعتبر هذه النقابات وكالات يمكنها ممارسة الضغط على الحكومة لكي تلمي حاجات العمال الماسة .

في المؤتمر العاشر المشهور للحزب سنة ١٩٢١ قال تروتسكي :

إن الحزب مُجبر على الانقياس على دكتاتوريته بغض النظر عن

التأرجحات الموقّعة في امزجة الجماهير العفوية وايضاً بغض النظر عن التدبذبات حتى وفي طبقة العمال لا ترتكز الدكتاتورية في كل لحظة على مبدأ الديمقراطية العمالية ، مع ان الديمقراطية العمالية هي بالطبع الطريقة الوحيدة التي يمكن بواسطتها جلب الجماهير الى الحياة السياسية بشكل متزايد مستمر . لا يمكن حتى لاعظم التصورات الجدلية ان تنكر العضلات الغامضة الجمّة التي تتمخض عنها هذه الفقرة الصريحة في فحواها . وربما كان العنصر المنقلد السالم الوحيد المتواجد بين الزعماء البلاشفة خلال العشرينات من القرن العشرين هو ان الحوار داخل الحزب بقي صريحاً واحداً وبهذا أمكن سماع سلسلة من الآراء التي يشمل بعضها ما يمكن ان ترتاح له احزاب أخرى لو كانت الظروف أفضل .

وما زال النظام البلشفي يتمتع بدعم الجمهوريات اليسارية الأوروبية ، وانفصلت اجزاء من الاحزاب الاشتراكية وساعدت في تشكيل الشيوعية الدولية . . وكثير الحمس والتلميح عن « تجربة السوفييتات » - وقد استمر ذلك لعقدين او ثلاثة عقود - همسات مميزة ولها معناها اكثر مما توقع الزعماء البلاشفة حتى واكثر بكثير مما اعترفوا به ، همسات بدأت تسمع في الدوائر الحرة واليسارية بان الثورة قد خسرت سحرها ولا يمكن اتهام مثل هذه الاصوات بانها معادية للثورة .

في ربيع سنة ١٩٢٠ ، قام برتراند رسل بزيارة للاتحاد السوفييتي ورغم قصر هذه الزيارة فانها تمخضت عن كتاب انشأه برتراند في اواخر تلك السنة واسماه « النظرية البلشفية وممارساتها » ولا يزال هذا الكتاب جدير بان يُقرأ . وبعد ان اعلن رسل بطريقة لا يرقى اليها الشك بانه

خصم للرأسمالية ومعجب بالاهداف النهائية للشيوعية كتب رَسَل بان
اصدقاء البلاشفة في الغرب ! « يعتقدون بان دكتاتورية البروليتاريا
(العمال) ليست إلا شكلاً جديداً من أشكال الحكومة التمثيلية حيث لا
نجد إلا أصوات العمال الرجال والنساء . ويعتقدون ان ما يسمى
البروليتاريا (الطبقة الكادحة) هو البروليتاريا بلا زيادة ولا نقصان بيد
ان ما يسمى « دكتاتورية » لا يعني تماماً « دكتاتورية » . هذا عكس
الحقيقة تماماً . اذ عندما يتكلم شيوعي روسي عن الدكتاتورية فانه يعنيها
بالحرف الواحد ولكن عندما يتحدث عن البروليتاريا فانه يرمي الى ما
تعني بشكل « بكوكي » ساخر . انه يعني « الوعي الطبقي او الضمير
الواعي من البروليتاريا أي الحزب الشيوعي » . وانه يقصد بذلك اشخاصا
هم ابعد ما يكون عن البروليتاريا الاشخاص الذين دائماً تكون اراؤهم
صائبة ويستثني منهم اصحاب المعاشات الذين لا يتمتعون بالأراء
الصائبة .

ان الضرورة الملحة لتثبيت الشيوعية في الاذهان تنتج مناخا شديد
الحرارة حيث يجب ابعاد كل نسمة عليقة من الهواء وتصبح البلاد شبيهة
تماماً بجامعة يسوعية ضخمة جداً .

في أوائل العشرينات من القرن العشرين ظهر بان طلاوة الجمل
التي دَبَّج رَسَل بها كتابه لم يُعَدَّ لها نظير الا بالفقرات التي كتبها جوليس
مارتوف ، ذلك الشخص التمس الذي كان يحاول بان يظهر كمعارض
مسالم للبلاشفة وقد باءت محاولته بالفشل الذريع . اذ في ما بعد تحدث
تروتسكي عن مارتوف وأسماء « هاملت الديموقراطية الاشتراكية » وقد

نسي بان هاملت كان يتمتع بموهبة عظيمة ، ألا وهي ملاحظة ما كان باليا في الدانمارك، وهاكم في ما يلي ما قاله مارتوف في احدى مقالاته الاخيرة قبل مغادرته روسيا :

لم تقم الدولة السوفيتية في أي وقت بأي عمل لالغاء موظفي القطاع العام وابداهم بطريقة انتخابية ولم تقم بأعمال قمعية ضد الشرطة المحترفين ولم تضع حداً للإحتكار الانتاج الاجتماعي ولم تخفف من القوة التي مارسها لاختضاع المجتمع المحلي لسلطة الدولة . بالعكس نرى ان الدولة السوفيتية بُدِي ميولاً في الاتجاهات المعاكسة . تظهر ميولاً نحو تكثيف مركزية الدولة ميولاً لتعزيز الاجبار والاستبداد الى اقصى حد ممكن كما وتظهر ميولاً نحو انماء وتطوير جهاز دولة اكثر اختصاصاً في عمليات القمع . قمع يفوق كل شيء سبقه .

غيرت نظرة البلاشفة الى الدولة الآن ولم تعد هناك طريق معبدة حتى ولا أي وسيلة نحو نظام دولة اشتراكية احصائية وقد ضُمّر ما فيها من اعمال ومن معاهد ، كانت الدولة البرجوازية قد انجزتها ، اي ان ما قالوه سنة ١٩١٧ قد اصبح الآن وكأنه ما كان (ما قاله لينين في كتابه : الدولة والثورة) . ويبدو الآن أن طريقهم نحو نظام اشتراكي متحرر من الدولة لم يعد إلا بالتضخيم الهائل والتطوير الزائد لهذه الاعمال وفي هذه الحالة وبمظهر مختلف تماماً تطوير معاهد ومؤسسات الدولة بصورة مشابهة تماماً لتلك التي وُجدت في عهد الدولة البرجوازية . واستمر اولئك الاذكيا في رفضهم فكرة البرلمانية الديمقراطية ومن الغريب انهم في نفس الوقت لم يرفضوا تلك الاساليب المتعلقة بسلطة الحكومة التي شابهت تماماً من حيث تنفيذها اساليب الحكومة البرجوازية البرلمانية والامثلة على ذلك كثيرة

منها : البروقراطية والشرطة وجيش دائم له انظمة خاصة تختلف كل الاختلاف ومستقلة تماماً عن كادر (انظمة) الجنود ، الخ .

وثبت الآن انه لا بد من الانفجار : جاء ذلك في شتاء سنة ١٩٢١ . في هذه السنة طافت عصابات من الفلاحين الجياع الذين تحولوا الى عصابات لصوص طافت في الريف الروسي . وعمت الاضرابات في المدن الرئيسية وسبب نقص الوقود الى اغلاق كثير من المصانع اضيف الى ذلك أن عمال النقل كانوا ينالون ما بلغ من ٧٠٠ الى ١٠٠٠ وحدة حرارية من الطعام يوميا رغم العمل الشاق الذي كانوا يقومون به واخذ العمال الجياع يقومون برحلات الى الريف آمليين أن يقايسوا ما معهم من الملابس او الادوات المنزلية بما يسد رمقهم من الغذاء وبهذا تحذوا حظر الحكومة على المتاجرة وبدأ دخان الثورة يتصاعد في طول البلاد وعرضها .

وما زاد الطين بلّة ان البحارة في مركز كرونستات ، البحري نظموا انفسهم كقوة سياسية ذات طاقه ذاتية وبهذا رفضوا سلطة الزعماء البلاشفة المحلية . وقاد هذه القوى انقلابيون ورايكياليون يساريون ورايكياليون مستاجرون واصبح شعارهم البنارز الصارخ « الثورة الثالثة » الهادفة الى ارجاع السوفييتات المدمرة الى سالف قوتها الفعلية . طالبوا بانتخابات حرة للسوفييتات تشترك فيها كل الاحزاب اليسارية البحرية . وطالبوا ايضاً باطلاق حرية الكلام وكذلك حرية الصحف لجميع العمال والفلاحين والفوضويين واحزاب اليسار الاشتراكيين . ثم طالبوا بتخفيف القيود المفروضة على الاقتصاد مثلاً اعطاء الحق للفلاحين لاستعمال كل ارضهم بشرط ان يستفيدوا من العمل المأجور ، وكذلك

منع الحق لصغار الصناع بالاستفادة من صناعتهم مع تخفيف الشروط المفروضة عليهم ورغم انهم لم يكن لهم سياسة متماشكة كانوا يمثلين حماساً ديمقراطياً ثورياً وقد تمكن الملاحون بما تمتعوا به من الحماس الثوري من ان يكسبوا تأييد اكثر من ٣٠٪ من القطاع الشيوعي المحلي .

وشعر البلاشفة بالخطر المهدد وقد اعلن لينين لدى انعقاد المؤتمر العاشر للحزب بأن ثوار الكرنستات لا يريدون الحرس الابيض ويرفضون سلطتنا ايضاً وليس هناك من شك بان هذا البيان اصدق بكثير من دعايات البلاشفة في ذلك الوقت تلك الدعايات التي كثيرا ما ذهبت الى تلطيخ الثوار الكرنستات زاعمة بانهم يمالئون الحراس البيض . على ان الحكومة قررت بان لا تتقدم بأي حل وسط فطالبهم تروتسكي في الخامس من آذار بالاستسلام غير المشروط . وعندما أهمل انذاره استعد الجيش الاحمر للهجوم . تقع كرنستات على بعد سبعة عشر ميلا من بتروغراد على خليج فنلاند ، وتستطيع الجيوش ان تصل الى الجزيرة ما دام الثلج سميكاً كفاية ولكن عند ذوبان الثلج يكاد ان يصبح الثوار في مركز لا يقهر . وقد انضم الى المهاجرين وفود من المؤتمر العاشر للحزب بما في ذلك المنشقون من حزب المعارضة العمالية وحزب الوسط الديمقراطي . مثي الجنود وهم يرتدون الملاءات البيضاء على الثلوج وكانهم موكب من الاشباح . ولكن القذائف التي اطلقت من كرنستات مزقت الجليد ففرق كثير من الجنود ولكن الكتائب المتقدمة تمكنت من الوصول الى داخل الحصن وتغلبت على الثوار . كانت الاصابات فادحة في كلا الطرفين ولكن عمليات القمع فأقل ما يقال عنها انها كانت وحشية .

أثناء استعراض للجيش في الثالث من نيسان قال تروتسكي : « لقد
انتظرنا اطول مدة ممكنة لعل إخواننا البحارة يعودون الى صوابهم وترتفع
الغشاوة التي اعمت عيونهم فيروا الى اين سيوصلهم العصيان . لكن
واجهنا خطراً عظيماً وهو الخوف من ذوبان الجليد ولذلك قررنا ان نشن
الهجوم » .

وعندما اعيد الحوار في مسألة كرنستات سنة ١٩٣٨ ، وعندما بدأ
الجناح اليسار المناهض لتروتسكي ينتقد اجراءاته حينئذ وفي الدور المتشدد
الذي لعبه اثناء عمليات القمع أجاب تروتسكي وبكل عناد بأن الثورة قد
عرضت النظام البلشفي للخطر . ولو سمح لها بالانتشار لآثارت موجة من
التعرد في طول البلاد وعرضها . اضيف الى ذلك ان بحارة كرنستات ما
عادوا اولئك الثوار المثاليين الذين تمخضت عنهم ثورة سنة ١٩١٧ ،
والذين مات معظمهم في الحرب الأهلية وحلّ محلهم فتيان من الفلاحين
الذين لم تكن لهم خبرة سياسية كافية . انما بحلول سنة ١٩٣٨ ، ما عاد
تروتسكي يتحدث عن الحراس البيض ولا عن تأثيرهم .

حتى ولو سلمنا بمناقشات تروتسكي المتأخرة عن ثورة كرنستات فان
هذه الثورة ستبقى لطخة سوداء في جبين تاريخ اوائل البلشفية . اما وقد
اصبح هذا النظام دكتاتوريا تسلطيا فلم يعد امامه إلا ان يلجأ الى قوته
الحربية ضد الجماهير الثائرة الغاضبة - لا جدوى من هذا طالما استمر
النظام في رفض حتى اختيار ديموقراطية جزئية . ليس هناك أي شك في ان
البلاشفة قد عملوا بكل فظاظة وشراسة . على أن فكتور سارج ، كتب
يقول : لاحظت هناك شعوراً بالذنب والعار والحزن يعمّ زعماء الحزب
العظام اذ بعد وقت قصير على اغتصاب البلاشفة للسلطة قال واحد منهم

متكهنًا أن الجهود التي يجب أن تبذلها الأقلية لصيانة الحكم الدكتاتوري لا بد أن تؤدي في النهاية إلى « الارهاب والرعب » ، وقد صدق في قوله إذ قد وصلوا الآن إلى « الارهاب والرعب » .

لقد خيم جو من الكآبة فوق المؤتمر العاشر للحزب في نيسان سنة ١٩٢١ . أصبح من الجلي أن هناك طلبات رئيسية لا بد منها لثلاث تشاور البلاد متفجرة تحت عبء الشدائد التي كانت تعانيها في ظل الحياة البلشفية . قدم الآن لينين « السياسة الاقتصادية الجديدة » ووافق عليها النواب بعد أدنى من النقاش . وقد اعتمدت هذه السياسة في معظمها على افكار كان تروتسكي قد رفعها قبل سنة ولكنه لم يكافح لتنفيذها بما ينبغي من قوة . اظهرت هذه السياسة الجديدة الاقتصادية جوعاً جزئياً إلى السوق الحرة : شُيخ للفلاح بأن يبيع الفائض من انتاجه وسمح لاصحاب رؤوس الاموال الخاصة بأن يديروا صناعات على مقياس صغير وضمن حدود خاصة كما وسمح لاصحاب رؤوس الاموال الاجنبية بأن يستأجروا ويستفيدوا من مناطق معينة من الاقتصاد الروسي . ولما خشي البلاشفة من أن التحسن الاقتصادي الذي ستسفر عنه هذه السياسة - وهو تحسن حدث بالفعل بسرعة غير متوقعة - سيضع عناصر من الفلاحين والمثقفين المعادين للنظام لهما سوا عداء شديد أقرروا ان يربطوا التسهيلات الاقتصادية بالتشدد على الصعيد السياسي ، فإصرار من لينين وفاق المؤتمر على قرار يحظر تأليف تكتلات داخل الحزب تركّز على خطة سياسية . لقد كانت هذه التكتلات سمة بارزة للحياة البلشفية منذ بدء تسلّم البلاشفة زمام الحكم واصبحت بمثابة حوار رئيسي في يد من شعر ان هذا الحزب على الأقل في تنظيمه الداخلي كان ديموقراطياً

تماماً . لقد قدّم هذا القرار اساساً عملياً وعقائدياً مهد الطريق للبيروقراطية الحزبية تحت زعامة ستالين واتباعه . . ومع ذلك فمن العدل ان نضيف بان الغاية المتوخاة من هذا القرار كانت اقامة منتديات حزبية داخل الحزب ونشرات تتضمن حوارات شتى يستطيع بواسطتها اعضاء الحزب ان يعبروا عن وجهات نظرهم المتباينة كما وان القانون كان قد نُقِدَ لأسباب طارئة مؤقتة . وقد قال لينين في المؤتمر :

« اذا كان هناك اختلاف جوهري (داخل الحزب) فليس في نيتنا ان نحرم الاعضاء من الادلاء بأرائهم امام الحزب . فاذا - على سبيل المثال - برز سؤال في ما يخص سلام برست - ليتوفسك . هل نستطيع ان نتكفل بان اسئلة على هذا الامر سوف لا تظهر ؟ لا ، ليس في امكاننا ضمان ذلك . فمن المحتمل اذن بان يصبح من الضروري ان نناقش الامر ونسأل ونجيب من على النصّة . هذا من اوضح الأمور » .

وبكل تّؤدة وخطوة خطوة وفي هذه الفترة التاريخية المصرية كما لو انها كانت مطابقة لحقيقة من الحقائق غير المعلنة ولكنها مذكورة في كتاب تروتسكي « نظرية الثورة الدائمة » أخذت الدكتاتورية البلشفية تكافح وهي في عزلة تامة وفي حالة احتضار مريع في حالة تدهور وفي حالة فساد لا علاج له . اما وقد وصلت الحالة بالبلشفية الى هذا السجن الانعزالي وقد ارهقت وهي تحاول جلب الاشتراكية الى بلد ممزق الاوصال نازف الدماء ، وقد اضطرت الى استعمال وسائل وإجراءات لم تعلم بها إنما دفعها الى ذلك عقائد لا ترحم فلم تتورع عن إسالة الدماء كل يوم معتقدة ان كل هذه المظالم لها ما يبررها للوصول الى سياسات متحررة أكثر فأكثر

ولكن في نفس الوقت التشدد المتزايد في النظام الدكتاتوري ، وفي هذا الوقت الحرج وفي هذه الحالات المتأزمة تعثرت البلشفية وسقطت في القرن نيران الستالينية . ولكن هذا الاصطلاح لا يمكن ان يدل على ما كان القدر يخفي ، وماذا كان ينتظر البلاشفة وجميع الشعب الروسي في عهد الستالينية . ولم يبق إلا إنتفاضة خفيفة يائسة حاول بواسطتها لينين لمدة بضعة اشهر وتروتسكي لبضعة سنين حاولت البلشفية بكل ما عندها من ثقل استعادة قوتها السياسية والادبية ، حاولت إستعادة مركزها الاجتماعي السالف انما كانت الجهود غير مجدية والوقت قد فات ولم يعد هناك أي أمل .

الفصل الرابع :

قيام الستالينية

في السنين التي تلت الثورة مباشرة أصبح لينين ينظر الى الأمور بانحاجه نظري وبتشدد أقل بكثير من تروتسكي . لم يستطع تروتسكي ان يقاوم ميوله نحو النظريات الفخمة والذبدية المتطرفة والمواقف المتصلبة . وعارض لينين العملي الافكار أكثر فأكثر التعريف السهل المتعلق بإتصال الدولة البلشفية مع الطبقة الكادحة . ولقد أحسن لينين ، وهو دائم الانتباه ومفتوح العيين ، عندما وصف النظام بانه « دولة عمال مشوهة » ، على العمال في هذه الدولة ان يحموا ليس فقط الدولة ضد اعدائها. ولكن أيضاً عليهم ان يحموا أنفسهم من دولتهم . ورغم ان هذه الفكرة ما زالت تبعد بعداً شاسعاً عن مفهوم الديمقراطية الصحيحة فصح هذا القول المجال للنظر الى لينين وأفكاره نظرة واقعية مرنة .

في كلمة القاها لينين امام المؤتمر الثالث للشيوعية الدولية سنة ١٩٢١ كرر الفكرة التي تبناها جميع الزعماء البلاشفة قال :

«حتى قبل الثورة البلشفية وكذلك بعد الثورة اعتقدنا بان الثورة لا بد حاصلة اما مباشرة أو على الأقل بسرعة في البلدان الأخرى المتخلفة كما وفي البلدان الرأسمالية المتقدمة بصورة بارزة وإلا فلا ينتظرنا إلا الفناء » .

والآن بتدهور الاقتصاد الروسي والهزيمة التي واجهتها الثورات في اوروبا في السنين ١٩١٩ - ١٩٢١ ظهرت علامات واضحة بان تنبؤات لينين ستتحقق . ولكن بصورة لم يتخيلها لا لينين ولا تروتسكي . استطاع الحزب البلشفي ان يحافظ على كيانه كمسيطر على مجتمع مُزَق

منعزل محاصر داخل حدود روسيا المتقلصة ولكن بهذا العمل اضطر الحزب ان يجري تغييرات اساسية في العقائد السياسية وفي السلوك الاشتراكي والميزات الاخلاقية .

فلمنع الانهيار الاقتصادي او الانفجار الاجتماعي اقترح لينين كجزء من سياسته الاقتصادية تنازلات على نطاق واسع على صعيد جماعات الفلاحين المعادية للنظام . ولكن هذه التنازلات ساعدت على خلق طبقة من الفلاحين المحافظين الاغنياء والمتوسطي الحال . وعندما عادت جمهرة الجنود بعد الحرب الاهلية وقد جفت حماسهم الثورية واختفت سمى الوطنية من قلوبهم كانوا عاملاً فعالاً في تقوية الميول المحافظة في الريف .

وهكذا حدث في المدن لقد فقد العمال نشاطهم الاجتماعي . فالبعض سقطوا في حالة مريرة من الفساد وتحول آخرون عن مبادئهم وأصبحوا مناهضين للنظام . لقد مات الكثير من الذين كرسوا انفسهم للبلاشفة ماتوا في الحرب الاهلية . وهذه الحقيقة هي التي طالما شدد تروتسكي عليها في شرح اسباب انحطاط المستوى الاخلاقي الحزبي . وهناك جماعة أخرى قد انهكهم التعب ، وجماعة أخرى ما زالوا يمارسون ميزات الموظفين البيروقراطيين في كل مكان ، وذلك بما تمتعوا به من السلطة للحصول على مصالحهم الخاصة مما جعلهم يعتمدون بصورة متزايدة عن العمال الذين كانوا يحكمون باسمهم . وبغض النظر عن المساعدة الكبيرة - تلك المساعدة غير المنتظرة في وقت اتصف بأزمة اقتصادية عالمية ومن الغريب ان ذلك لم يشجع نظرية البلاشفة المتحمسة المتكررة على صعيد الثورة العالمية - وبغض النظر عن هذه المساعدة ما كانت تحتاج اليه البلاد بصورة خاصة هو تهديد وانعاش للأفكار ، ونسمة من الحرية تبعث حياة جديدة

ونشاطاً جديداً وطاقات منتجة . وعلى ان اذكر هنا أن البلاشفة بعد سنة ١٩٢١ ، رفضوا ان يسمحوا لأي حزب غير حزبهم بان يمارس اعماله بصورة شرعية وهكذا يكونون قد ساهموا بحفر قبرهم بيدهم . ولقد ساهم كل اجراء قمعي قامت به الدكتاتورية ، حتى عندما كان ذلك نتيجة لطائرة أسفرت عنها الحرب الأهلية أو الانهيار الاقتصادي ، ساهم ذلك في تقويض الادعاءات العقائدية والاخلاقية تلك المبادئ التي كرس الكثيرون من المساندين انفسهم لها . وبهذا اخذ ينمو داخل النظام تورم سرطاني خبيث . ثما وإزدهر بسبب الحرمان والسخرية والوحشية .

بدأت طبقة جديدة تقوي نفسها ، طبقة برزت في نفس الصباح الذي قامت به الثورة : وأقصد بها حزب الدولة البيروقراطي الذي نال منذ بدء تكوينه تأييد ومساندة المثقفين الفنين ومدراء المعامل والضباط العسكريين وفوق كل هؤلاء الموظفون في الحزب من الذين لم يمض على إنتمائهم الى البروليتاريا إلا وقت قصير . هذه الطبقة التي أقل ما يقال فيها انها ضيقة النظر ، فظة وريفية اللهجة ، وبدائية الثقافة ، تميزت هذه الطبقة بسايلوجية ومظهر متسلط غريزي (وتضم احيانا متعصبين سوفيت غالواً في تعصبهم) . نظرت هذه الطبقة الى العمال كما لو انهم مادة يجب ان تأخذ شكلاً صحيحاً ونظرت الى المثقفين كوسائل للدعاية ليس إلا ونظرت الى الشيوعية العالمية وكأنها مساعد ثانوي يجب إستغلاله أما بالنسبة للماركسية فقد إعتبرتها هذه الطبقة نظاماً خاماً جديداً ما عليها إلا إستغلاله لتبرير مطامعها .

وعندما نتكلم عن بيروقراطية الدولة الحزبية في بلد قد أممت فيه

الصناعة فنعني بذلك اننا نتكلم عن نُخبَة أو صفوة من الناس تسلموا زمام الحكم من عهد حديث قد يكونون طبقة حاكمة جديدة استطاعت بكل تطفل أن تُهَيِّج على كل مؤسسة في الحياة الروسية . ومن الواضح أن كثيراً من اعضاء هذه الدولة الحزبية لم يلاحظوا أهمية هذه العملية . انها لبِدْعَة تاريخية لم تخطر على بال المخططين الماركسيين اللهم في بعض العبارات التي وردت في كتب ماركس والتي نوّهت بالتصرفات الاجتماعية المميزة للحكم الاستبدادي في الشرق . فاذا تمعنا في بعض مقالات زعماء البلاشفة نستطيع ان نفهم منها وخاصة من مذكرات فكتور سارج انه طالما جرت مناقشات بشكل يدل على التردد واحاديث مضطربة مشوشة تدل بما لا يحتمل الشك بانهم بدأوا يتحققون وباحساس مملوء بالحزن مدى التصدّع الذي حلّ بانتصارهم . واستطاع الرفاق الحزبيون بأن يهيموا في الأروقة عن هذا الحيوان الهائل الذي خلقوه . وقد شن لينين في اواخر حياته سلسلة من الحملات على هذا النمو الزائد للبيروقراطية ولا شك بأنه قد لاحظ مظاهرها رغم انه لم يرَ اسبابها ومن الجلي انه كان يهين نفسه لنضال حزبي ضد هذه الطبقة التي كان على رأسها ستالين وكان ستالين نفسه هو المتحدث باسمها . وبالرغم من مرضه الخطير تحدث لينين عدة مرّات عن القِيحة المتزايدة المتفشية في الدوائر الحزبية الحاكمة وقد تحقق بان هذا التدهور الخلقي كان مقدمة لفوضى خطيرة كاسحة . ويظهر ان لينين اخذ يميل نحو فكرة خلق مؤسسة مستقلة استقلالاً شبه ذاتي قد تستطيع ان تكبح من جماح التضخم الهائل في نظام الدولة وطبقاً لما قاله موثي لِيُون ، في دراسته لهذه الفترة كانت هناك اشارة غامضة بخصوص جعل الحزب المشفيكي حزباً قانونياً وأيضاً ربما الوصول الى نهاية كبح جماح البيروقراطية . ولكن ما كانت هذه الخطوات إلا آخر درجات السلم

بالنسبة لزعيم فقد السيطرة على العملية التاريخية التي كان هو رائدها .

ولن نستطيع ان نعرف فيما اذا كان بالامكان إيقاف الوثبة الستالينية لو استطاع لينين ان يتابع حياته السياسية لبضع سنين اخرى . في سنة ١٩٢٨ بعد أن انضم نقولاي بوخارين ، الزعيم البلشفي الى ستالين للتغلب على تروتسكي قال « ان جذور الشر تكمن في كون الحزب والدولة قد اندجما معاً » ومن الجدير بالذكر ان ستالين حطم نقولاي هذا بعد وقت قصير . أجل لقد وجد أناس مجهولون قالوا الكثير انما لبعض الوقت .

لا يمكننا بشكل حاسم ان نحكم ونؤكد النقطة التي هزمت فيها دكتاتورية لينين الثورية لتحل محلها التوتاليرية الستالينية وربما كان هذا الامر ليس له اهمية تذكر . لقد كان ذلك تحول تدريجي أو ، اذا استعملنا الاصطلاحات الماركسية ، ثورة مضادة بدأت اثناء الثورة او بعدها بقليل ، داخل مركز القوة في النظام اللينيني . وقد وصل ذلك التحول الى لحظة حاسمة خلال العشرينات من القرن العشرين ووصل الى ذروته في الثلاثينات من نفس القرن ، وذلك بالابعاد الجماعي للفلاحين والقضاء على البلاشفة القدامى ومحاکمات موسكو . وبعد أن قوت سلطتها ومكنت سيطرتها انزدت الطبقة البيروقراطية الجديدة تستغل الفرص لتخطيط اقتصادي مركزي مميز لاقتصاد مؤتم . وتعهدت الطبقة الجديدة « تجميعاً ابتدائياً لرأس المال » بصورة جعلت التجميعات التي قامت بها المجتمعات البرجوازية السابقة تبدو وكأنها نموذج حي يكرم الحكام . وكيف كان ماركس سيحكم على نظام « الجمع » هذا الذي عمل به ستالين بكل شدة وعنف ، لا نكاد نستطيع ان نتخيل هذا الحكم اذ ان ماركس ندّد بشدة

وبشكل عنيف بتجميع رؤوس الاموال الذي مارسه البرجوازية .

خلال كل هذه العمليات اظهر تروتسكي نفسه كناقذ مثقف ليس له نظير ولكنه لم يكن خصماً سياسياً ماهراً . ولأسباب لم يستطع أي مَن كتب سيرة حياته او حتى من زملائه ان يفسرها بصورة مرضية إتبع تروتسكي سنة ١٩٢٣ ، ولوقت ما بعد هذه السنة سبيلاً أقل ما يقال فيه انه سبيل خاطيء مليء بالاغلاط ، فكان احياناً ينقض كالصاعقة موجهاً سخطه على نقائص البيروقراطية التي كان يلتمسها في كل مكان وطالما إستمد من المنطق الماركسي ما استطاع به ان يجري تحليلاً رائعاً لهذه الظاهرة ولكنه بعد كل هذا يستسلم لفترات من الصمت بسبب المرض او بسبب الانسحاب المحزون من على مسرح الحوادث . ولدي الان تقارير موثوق بها عن تصرفات تروتسكي في هذه الفترة ، لم يكن يتغيب ابداً عن أي اجتماع للجنة المركزية البلشفية ولكن كان اثناء الجلسة يستغرق في قراءة رواية فرنسية تلهيه عن سماع المناقشات الصاخبة لأنه كان يعتقد ان مثل تلك المناقشات لم تكن جدية بأن يصغي اليها . أي صورة تمثل لنا هذه الحالة : فريش الجيش الاحمر السابق منكب على رواية فرنسية لأنه

لم يستطع ان يتحمل سماع خطابات الرفاق . ويبدو الان كما لو ان تروتسكي شعر بأن نفس الحوار الذي كان هو ولينين قد أجرياه في أول الفترة التي بزغ فيها نجم الثورة أي : ان لم تسارع الطبقة الحاكمة في الغرب لنجدتنا فاننا سنهلك ، وبدا الان جلياً ان نهوض وانتصار الستالينية لا بد منه . وبدا كأن تروتسكي قد أصيب بمرض في قلبه لرؤيته ما أخذ يحدث بين البلاشفة المنتصرين . واخذ « القبضايات » يسببون مضايقات وازعاجات للزعماء التروتسكيين ، البلاشفة الممتازين ، رغم

انهم كانوا موظفين في الجهاز الحزبي واخذت التهديدات العنيفة تنهال على المتمردين من داخل الحزب اضيف الى ذلك الحوار البدائي الموجه من الاوساط الستالينية واخيراً أول خطوات التعصب الستالينية ضد السامية .
وشعر تروتسكي بالعجز الكامل امام هذا الوحش الذي كان تروتسكي هو المسؤو ل عن تقويته معتقداً انه سيصاب بالعجز المؤدي الى الفناء بعد ان يصل الى ذروة النجاح .

اننا لا نعرف ما يكفي عن الاسباب التي ادّت الى الهزيمة الساحقة التي حلّت بتروتسكي ، انه كان دائماً يفتقر الى المهارة في ممارسة المناورات داخل الحزب . لقد كان فاقد الصبر الى الدرجة القصوى وواقعياً أكثر مما يجب ومتكبراً لدرجة اضرّت به . لقد كانت مسيرته أفضل وأنجح بكثير عندما كان يعمل كماركسي حر التصرف في الصحف وتفوّق كزعيم للجماهير المتمردة ولقد إنضم الى جناحه اليساري المعارض المع العقول داخل الزعامة البلشفية وعلى رأسهم بريأبراجنسكي ، وراكوفسكي ، وراديك ، وف . سميرنوف . ولكن تروتسكي وحلفاءه اخفقوا اخفاقاً ذريعاً في نضالهم للسيطرة على جهاز الحزب واعتقد ان هذا الفشل كان نهائياً وذريعاً لأن السيطرة على جهاز الحزب تعني السيطرة على جهاز الدولة .

قد يعتقد الانسان أن تنازع البقاء على صعيد الزعامة الشيوعية قد يُشغل جميع طاقات تروتسكي ولكنه لم يشغله الى هذه الدرجة اذ بالحقيقة احس بإشتمزاز قوي لاضطراره بان يعالج الأعمال الدنيئة ، وفيما بعد ان يعالج مسألة قبضايات الجهاز الحزبي . وشعر تروتسكي بالمتعة

وهو يكتب عن موضوعات لا تتعلق مباشرة بالنضال الحزبي وكان يُسر كل السرور بفكرة حياة مختلفة النواحي متعددة الجوانب .

سنة ١٩٢٢ ، نشر تروتسكي كُتَيْباً غريباً أسماه « مشاكل الحياة اليومية » . يشعر من يقرأ هذا الكُتَيْبُ انه امام تروتسكي كشخص لم يألّفه من قبل . استطاع تروتسكي في هذا الكُتَيْبُ ان يجمع ذروة الافكار اللروسية وربما اصداء من تولستوي وتارجنيف ، وضمّن كُتَيْبه ايضاً كثيراً للواقع المألوف ويظهر لمن يمعن النظر في هذا الكُتَيْبُ انه يفوق كل كتابات الادباء الماركسيين تندفق فيه بكل جلاء صور لتروتسكي الواعظ وتروتسكي المدرّس وتروتسكي المؤلف الاخلاقي . كم يبدو هذا غريباً وقدرأ ولكنه ايضاً أحياناً يبدو ساحراً .

كان صوته يدوي كالرعد وهو يندد بشرب الفودكا في روسيا هذه الممارسة التي زادت عن كونها عادة . وطالما قال للرفاق الذين شابهوا في سوء أخلاقهم موظفي القيصرية السالفين ان الدمائية ضرورة لازمة للاشتراكية لا تقل اهمية عن الكهربائية والتصنيع . قال تروتسكي في احدى عظاته : إن الكلمات الرديئة هي احدى تركات العبودية تحط من قيمة الانسان وتفقده الاحترام وخصص بالذكر هنا لغتنا الروسية البلديّة . فمن الطبقة السفلى من شعبنا يبدو لي ان اللغة البلديّة ما هي إلا نتيجة لليأس والمرارة ولوق كل هذا فالعبودية حالة لا أمل فيها ولا نجاة منها .

اما الشتائم التي تتنوّه بها الطبقات العليا فهي تعبير عن السيادة الطبقيّة والغطرسة التي تنبثق عن ممارسة إستملاك العبيد والجدير بالذكر هنا ان الثورة وما احاط بها من القساوة وسفك الدماء دون رحمة هي دون

شك دلالة واضحة على يقظة البشرية .

فلتخيل اجتماعاً للزعماء الحثنيين القساء القدامى مثل ستالين ومولوتوف وأردجونيكيدزا ، وهم يجلسون الى مائدة يتعاطون إحتساء نصيبهم من الفودكا في مكاتب اصبحت الآن مريخة وهم يتبادلون النواذر عن ذلك المتطفل اليهودي - الطهري تروتسكي الذي يكثر من كتابة المواعظ ويندد بالشتائم والكفر ويدوي الهواء بقهقهتهم وسخريتهم .

وما لا يرقى اليه أي شك الحكمة التي دفعت تروتسكي ليندد ويشجب عادة الشتم وأهم من كل ذلك ما كتبه من مقالات حامية عنيفة على صعيد حقوق المرأة قال : ولا يمكننا أن نسمي الثورة ثورة إذا لم تقم هذه الثورة بمد يد العون للمرأة ، إن المرأة الآن مستعبدة الى درجة لا تصدق فهي حجرة عثرة في سبيل التطور الاشتراكي فاذن علينا ان نزيل عنها عبء هذه العبودية . وبكل حكمة وتعقل تناول قلمه وديج مقالات ضد الميول المادية التي كانت تنمو بشكل متزايد بين صفوف البلاشفة الغلافرين . لقد ترك التخلف الروسي طابعه ليس فقط على المجتمع القديم بل أيضاً على الحكام الجدد . أصبح طعم السلطة يثير العناد . وأدت عزلة البلاشفة الحكام الى التبرير الجاف للإجراءات المتخذة للاحتفاظ بالسلطة كما وان البلاشفة على صعيد انظمة الحزب كانوا يحاولون جهدهم ليجعلوا الماركسية كفلسفة يمكن بواسطتها الإجابة عن جميع التساؤلات وأكثر من هذا تستطيع أن تحرس كل الألسن . وبهذا سنحت فرصة ذهبية حتى لأتفه الأشخاص بأن يتحدثوا عن أسخف الأمور بحماية حراب الزعماء وفلسفة الحزب .

وطالما تحدث تروتسكي المثقف شاجباً مثل هذه العجرفات على انه كماركسي متشدد كثيراً ما قدم لها يدَ العون دون قصد . (أما لينين فلم يكن ليهتم بالأمور الثقافية واتخذ موقف اللامبالاة في ما يختص بالأدب والفنون طالما ان هذا لا يهدد السيطرة الحزبية السياسية مع ان ذوقه الأدبي الخاص كان تقليدياً . .) ولم يكن تروتسكي نفسه متحرراً من الإدعاءات بان الجدل هو مفتاح كل معرفة - وأسوأ من هذا - بأن الجدل هو المرشد المزعج . في العشرينات من القرن العشرين حاضر تروتسكي امام حشد من العلماء الروس بخصوص العون الذي بإمكانهم ان يحصلوا عليه من الجدل . اما ما شعر به العلماء حيال هذه المحاضرة فلم يعلم به أحد مع أن كل من له أي اتصال بالعلماء يستطيع ان يخمن ، بيد اننا بوجه الاجمال نستطيع أن نؤكد بانه ضمن الحدود التي فرضتها روسيا اللينينية مثل تروتسكي الصراحة الثقافية التامة . إستمع في ما يلي الى دفاعه عن الفرويدية (مذهب العالم فرويد) ضد الماركسية العامة الفظة :

قال :

ان محاولة الاعلان بان التحليل النفسي للماركسية هو شيء ليس له نظير وانه يجدر بنا بان لا نلتفت ابدأ الى الفرويدية يدل دون شك على السذاجة الكاملة وبساطة التفكير . فالفرويدية نظرية عملية تفسح المجال لاستنتاجات وفروض تدل على فرضية مادية . وانني لمتأكد بان التجارب عليها ستظهر صحة رأيي في الوقت المناسب .

لقد ظهرت الفضائل الثقافية الكاملة لتروتسكي بما قدمه من كتابات ادبية رائعة ، لو كان تروتسكي قد كرس نفسه كلياً للأدب لأصبح ناقداً

من اعظم نقّاد القرن . ان كثيراً من القطع التي خطّها يراعه لا تزال تبدو
نضرة واضحة تتدفق برائع الأفكار والجمل والعبارات الطنانة . اسمعوا
ما يقوله تروتسكي في مقالة من مقالاته المتأخرة عن الكاتب الروائي
ساليين ، « لقد دخل ساليين الى عالم الاداب الرفيعة كما يدخل غيره من
الرجال الى منازلهم » وهذا ما يمكنني ان اقله عن تروتسكي نفسه انه يظهر
بما لا يرقى اليه أي شك علامات الناقد الصحيح وهي ليست مجرد اسلوب
ولوذعية وفكر إنما الموهبة الخلاقة التي تغطى اللثام عن الميزة الاساسية التي
يتصف بها الكاتب وصوته وعواطفه وميوله ومنطقه وتصوراتة . واليكم في
ما يلي بعض الجمل من مقالة عن تولستوي كتبها سنة ١٩٠٨ :

يمتد ممر قصير من قصر المالك مباشرة الى كوخ الفلاح . لقد اعتاد
تولستوي الشاعر ان يمشي عبر هذا الممر بكل متعة وحب حتى وقبل ان
اصبح تولستوي أديباً عظيماً وحول ذلك الممر الى طريق خلاص وإنقاذ .
حتى وقبل الغاء العبودية ما فتىء يعتبر الفلاح كخاصته كان ينظر اليه
كجزء لا يتجزأ من المادة التي لا غنى له عنها وكنوع من ممتلكاته
الروحية . ومن وراء « حبه الطبيعي للشعب الكادح » ، ذلك الحب
الذي لم تشبه أي شائبة الذي يحدثنا تولستوي عنه ، يبرز لنا عن بعد
ساحق صورة جذّة الارستوقراطي تلك الصورة التي استطاع تولستوي
بكل مهارة وإتقان أن يجعلها تظهر في حلة لامعة بهيئة البستها عبقرية
الفنان روعة ليس بعدها روعة .

انه لا يعرض ابطاله امام الجمهور أبداً ، كما يفعل تيرجنيف ، وسط
تصاعد تفجرات الالاعاب النارية ومضام وتوهج المغنيسيوم انه لا يرسم

له مواقف ليقوي مراكزهم امام الجمهور لا يخفي شيئاً ولا يتستر على شيء يقدم لنا شخصية عظيمة لا تألوا جهداً في البحث عن الحقيقة . لقد تحول بير بيزوخوف ، في نهاية الرواية الى رب عائلة أنيق ومالك سعيد . أما ناتاشا روستوف التي تأخذ بمجامع القلوب بإحساساتها الشبه طفلية فقد حولها بمهارة سحرية ودون أي رحمة الى انثى بسيطة لا تصلح إلا للولادة وتربية اولادها وتعمل بين يديها حفاضات للطفل ملطخة بالوحل . ولكن خلف هذه الصورة اللامبالية التي يبدو وكأنها لا تقيم وزناً لأدوار الأفراد تنبثق صورة ربّانية رائعة تحيط بجميع الأفراد ، حيث الجميع يستنشقون عبر الاتقان وروعته وتسربلهم هالة من الانسجام والتوافق .

ويصح القول بان هذه الجهود الخلاقة يتخللها احساس جميل بالوهية الكون حيث لا يمكن أن ينافس هذه الروعة لا جمال ولا قباحة ، لا العظمة ولا التفاهة لأن هذه الجهود الخلاقة ترى كل الحياة في الدورة الابدية لمظاهر العظمة والجمال . هذا الجمال يمثل من يحرث الأرض ، هذه الشخصية المحافظة بطبيعتها رغم المشاق التي تواجهها وهذا هو ما يسبل على قصص البطولة لتولستوي المشابهة لأسفار موسى والابليادة .

أنشأ تروتسكي أول محاولة أدبية له في عالم النقد الأدبي « الأدب والثورة » خلال عطلته الصيفية سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٢٣ ، وهو من أسمى أنواع الأعمال النقدية كما ويجدر بنا أن نذكر انه قام بهذا الانجاز الرائع وهو يرزح تحت ضغوط أعماله الجمّة في ذلك الوقت . واذا تصفحنا هذا الانجاز نرى انه مجرد اطروحات لم تجمع معاً لتؤلف كتاباً ولكنه يتّسم بطلاوة كلامية لا تبارى وعبارات تتدفق من بين ثناياها معان جميلة ساحرة تظهر متألفة حتى في الترجمة الانكليزية التي كثرت الاخطاء في

ترجمتها ويمكننا ان نتصور تروتسكي الآن وقد ابتعد عن أعباء الحياة الراضحة تحت أجواء الحرب الشيوعية وبعيداً ولو لفترة أثناء عطلته عن قباحة الحزبية البلشفية يمكننا أن نتصوره يتنفس الصعداء إذ انه قد اندمج ثانية في حياة « أكثر سحراً » حياة طالما اشتاق لها حياة الفن التي يهيم حباً بها .

ينقسم الكتاب الى قسمين : ففي أوائله ونخاته يشن هجمات مركزة على المذاهب العمالية النظرية تلك المذاهب التي كانت تدعي إذ ذاك بوجود « أدب بروتيتاري » في الاتحاد السوفيتي . كما وأن الكتاب يموي بين صفحاته فصولاً عن بعض الكتاب الروس المعاصرين امثال بايلي ، ومياكوفسكي ، وغيرهم وقد كتب هذه الفصول بنوع من التسرع والتشدد .

على صعيد الماركسية المحدودة والذاتية النظام يتبين لنا ان الفصول النظرية في الكتاب المذكور معتبرة كأمر محدد بصورة نهائية . يستهل تروتسكي الكتاب بتحييل قوي للدور الذي تلعبه التقاليد لأنها تأخذ بعين الاعتبار كلاً من تشابكات التجارب الثقافية المعقدة التي تحدث ببطء والقوة المحركة الديناميكية الداخلية للتاريخ الأدبي . فهو أسلوب يقرب ما يكون الى مهارة ت . س . اليوت ، ولكنه بالطبع لم ينبثق من مشاركة وثيقة جداً في الحياة الأدبية الفعلية .

ومع أن ماركس نفسه سلم بقوة التقاليد من خلال ملاحظاته المبعثرة هنا وهناك على صعيد المواضيع الثقافية فإن قلة من الكتاب الماركسيين قد

حاولوا ان يوضحوا هذا الرأي بنفس الاهتمام والمهارة التي كرس تروتسكي في توضيحها . انه يتفهم تماماً وقَّعَ وصورة التغييرات الأدبية ، هذه التغييرات البطيئة في حدوثها والتي تقررهما جزئياً الحياة الداخلية للثقافة نفسها ، يفهم تماماً أن مثل هذه التغييرات لا يمكن أن تسيطر عليها ظروف الثورة السياسية ولا يمكن أن تقع تحت نير سلطتها .

قال تروتسكي :

إن الثورة الدراماتيكية للحياة السياسية لا بد من ان تؤثر على الصفة الداخلية للفنون عاجلاً أو آجلاً إلا انها ليس في مقدورها بأن تصرف النظر عنها نهائياً ، ولا يمكنها أن تُملي إرادتها عليها كما وانها لا تستطيع أن تصدر مراسيم حتى ولا طلبات تتعلق بها . يؤكد لنا التاريخ ان تشكيل ثقافة جديدة تتركز في مضمونها على الطبقة الحاكمة يتطلب ردهاً طويلاً من الزمن ولا تصل الى ذروة كما لها إلا في الفترة السابقة للإنحطاط السياسي لتلك الطبقة .

لا أعتقد ان فشل تروتسكي في توضيح ما يعني بقوله « ردهاً طويلاً من الزمن » له أهمية تذكر كأهمية تحديره الضمني ضد كل فرضية تدعو الى أن الثقافة يمكن أن تُخلَقَ ويصبح لها كيان واضح بواسطة أمر رسمي أو مرسوم . ومن الأمور البارزة المهمة في الكتاب آخر جزء من العبارة التي تربط الانبثاق الثقافي بالإنحطاط السياسي ولا شك بانها فكرة متصلة على صعيد الدراسات الجدية الحديثة ولكن تروتسكي لسوء الحظ لم يوضح هذه الفكرة بشكل متقن .

عند هذه النقطة في حوارهِ تبدو الخطط الماركسية شمولاً تاماً

ومتفائلة . فطالما بقيت « الدكتاتورية البروليتارية » ضرورية فقلما يوجد احتمال لبروز ثقافة بروليتارية واضحة إذ مما لا شك فيه انه لا توجد أوقات فراغ كافية ولا أوقات فائضة ، ولا راحة ولا تقاليد . ولكن عندما تتحسن ظروف الحياة المادية تحسناً مرموقاً وعندما يخف التوتر الاجتماعي السياسي حتى يصل الى نقطة تبدأ عندها « الدولة البروليتارية » بان تضمحل حينئذ تتحسن الظروف التي يمكن فيها خلق ثقافة وتمتزج البروليتاريا بصورة متزايدة في مجتمع إشتراكي وتتححر من ميزاتها الطبقية وحينئذ لا تسمى بروليتاريا . اذا وجد هناك أي عنصر تخيلي مزعج في هذه النظرة المستقبلية فهناك أيضاً إصرار على فكرة ماركسية هائلة تلك الفكرة التي أهملت بشكل واضح خلال عهد الستالينية المظلم القاتل : بأن رسالة البروليتاريا التاريخية هي التحلل الذاتي : إسمعوا ما يقوله تروتسكي بشكل مقنع :

ان البروليتاريا كانت ولا تزال طبقة غير مالكة . ولقد منعها هذا وحده من ان تحصل على العناصر المميزة للثقافة البرجوازية تلك العناصر التي نفذت الى موجودات الجنس البشري لتبقى الى الابد . لقد توصلت البرجوازية الى السلطة مسلحة تماماً بثقافة عصرها بينما ، من الجهة الاخرى ، توصلت البروليتاريا الى الحكم مسلحة أيضاً إنما بالحاجة الملحة للسيطرة على الثقافة .

ويتابع تروتسكي قائلاً بينما يستلزم التحول الى الاشتراكية مواجهة صعوبات من أنواع مغايرة للثقافة على الاجمال ومغايرة أيضاً لأي جهد لاإتجاهل « ثقافة بروليتارية » بحالة خاصة . وبما أنه يجب ان يُنظر الى هذا التحول كمرحلة تجريبية من مراحل التاريخ البشري حيث النضال

المكبوت في سبيل تقرير المصير فان ثقافة العهد الانتقالي يجب ان تتحرر من الأوامر الحزبية . ليست مملكة الفن بمملكة ينبغي ان يسيطر عليها الحزب » ما كان تروتسكي مستعداً بأن يقبل دون أي شرط وجهة النظر القائلة بان الثقافة مملكة من ممالك النشاط البشري مستقلة في حد ذاتها . وأصر تروتسكي بانها بالنهاية معتمدة على « قاعدة مادية » وانه يحق للحزب ان يتدخل ضد الهجمات السياسية المكشوفة .. وخلال العشرينات من القرن العشرين أيد تروتسكي المثقفين البلاشفة الذين تبنوا فكرة متساعحة نسبياً في ما يختص بالانحرافات الأدبية .

ولكن هناك ناحية أخرى في كتاب تروتسكي - ناحية تستمد من كل من النواحي العقائدية وعلى صعيد الأمزجة . ويمكنه ان يقول بكل مهارة بأن « العمل الفني يجب أن يحكم عليه بقانونه فحسب ، أي بقانون الفن » ثم أضاف « يمكن للماركسية فقط ان تفسر لماذا وكيف قد تولد ميل للفن في فترة تاريخية معينة » . هذه العجرفة العقائدية التي لا تؤيدها البراهين او الحوارات تدخل الى الأذهان إدعاءات مريبة لا حد لها تقول بأن « الماركسية لوحدها » يمكن ان تسبل نوراً على هذا او ذاك مع ان التفسير الواضح عادة لا يتبع تفسيراً كهذا . وهناك مصدر شخصي لعجرفة تروتسكي التاريخية هو شغفه بالروح الدينامية أو التغيير بشكل ثوري هائج . ويستمر تروتسكي بانتقاده مع انه أحياناً بشكل ودي ، كاتباً إثر كاتب وعملاً بعد عمل لافتقارهم الى التوتر الديناميكي والى القوة الدافعة في المدينة هذه الأمور التي تبدو في نظره من ميزات العصر الثوري ، فكانه يبحث عن قصيدة أو رواية جوهرية تتضمن كل روح العصر . أي عمل من نوع جديد براق يحمل بين طياته كل القوى

التقليدية ويتلأأ فيه مجد وعظمة المستقبل .

أمل برآق ولكنه فاشل وخطر كما ظهر في النهاية . إذ لا بد أن يؤدي مثل هذا الطلب الى فراغ الصبر والضجر وهذا بدوره يؤدي الى عدم التحمل وعدم التحمل يؤدي الى حق الملك وهذا الاخير يقود الى السجن . ولا ينطبق هذا الأمر على الأقل على الأدب . لقد انزلق تروتسكي منحدرأ من على هذا المقياس لرد الفعل . ولكن ليس في وسعنا إلا أن نلاحظ التشابك بين نظريته الادبية والنهاية المطلقة لمزاجه الأدبي وإذن فإن « الانشودة الثورية » لا يمكن ان تكتب على الأقل بالشكل الذي اراده تروتسكي لها وبشكل حاسم وللأسباب التي يراها تروتسكي نفسه مؤدية الى التشكك بإمكانية « ثقافة بروليتارية » لنفس هذه الأسباب يجب ان تكون هذه الانشودة مميزة ومعلمة ومعجدة بواسطة العوامل الماضية . وبما لا شك فيه انها ستصاب بنوع من الصعوبات بسبب المتطلبات المستقبلية . فلا عجب اذن ان يقول الشاعر ميياكوفسكي في تورية غير قابلة للترجمة وبشكل دعابة : بانه حتى وأكثر الموظفين الكبار ثقافة سيظل موظفأ « قوميسارأ » .

وظمأ تروتسكي الشديد كان الى قصيدة أو أسطورة يمكنها أن تحتضن بشكل كامل روح العصر وتكشف عن تلك الروح - ولم يعرف مثل هذا الظمأ في أواخر كتابه إلى هراء خيالي يتحدث عن روح عصر لم يحن بعد ، عصر الانسان الشيوعي عندما « تتطور كل عناصر الفن المعاصر إلى اللدوة » في هذا المستقبل المبارك اللاطفي « سيصبح الانسان قوياً للدرجة لا تقدر ويصبح كذلك أكثر حكمة وتعقلاً . . وسوف يرتفع نموذج

الانسان العادي إلى مستويات ارسطوطاليس وغوتية أو ماركس-Aristotle
Goethe, Marx ومن على هذه السلسلة سترتفع ذرى أخرى » .

قبل بعض عقود قد يرى المعجبون بروتسكي في الفقرة السابقة مثلاً
على سمو وعظمة رؤى تروتسكي . أما الآن وفي هذا العصر الأقل تحمساً
فقد يعجب المرء في ما يختص بالعلاقة بين الخيال البعيد والسياسات
القاسية المتسلطة المستبدة التي مارسها البلشفية الحاكمة تلك السياسات
التي مارسها تروتسكي منذ الثورة . وليس من المؤكد أبداً بأنه سيأتي
وقت يرتفع فيه « الانسان العادي الى مستويات ارسطوطاليس وغوتيه
ومثل هذه الفكرة لن تبدو لنا جذابة حتى ولا محتملة .

تكمُن قوة « الأدب والثورة » ، بغض النظر عن تخطيطها لفكرة
« الأدب البروليتاري » في الفصول التي تبحث في الكتاب على انفراد
بكونهم مسرعين ، ممزقين ، هازئين ، محبين ، معجبين وفارغي الصبر .
ولقد نجح تروتسكي وهو يسجل آراءه عن الشاعر الموهوب ميياكوفسكي
اذ تمكن الى حد ما بأن ينزلق ليصل الى ما تحت جلد الشاعر ، وقد تمكن
ولو بشكل تصوري ان يقدم نضال الشاعر ليصل الى علاقة عملية بين
صخب النفس واضطرابات الحياة . ولقد لاحظ تروتسكي ضعف الشاعر
وهو يبحث عن عبارات طنانة ويصرف النظر عن الماركسية يحتفل
بالاناشيد الشخصية وغير السياسية . قد يكون تروتسكي مخطئاً في تقديره
أعمال ميياكوفسكي ولكن هذا لا يعد شيئاً مقابل مهارته النفاذة والحساسة
عند الانتقاد .

يعتبر تروتسكي سيد الخلاصات القصيرة التي تستطيع بواسطتها

وبنظرة سريعة ان تتعرف على صوت الكاتب او روحه وهاكم ما كتبه عن
الشاعر الفلاح كليوف :

انه يعلمكم بالفردوس من خلال الثورة ولكن هذا الفردوس ليس إلا
مملكة مزركشة مبالغاً فيها يسكنها الفلاحون : فردوس ينتج القمح
والعسل : عصفور يغني على الجناح المحفور للبيت وشمس تسطع
بالوانها الماسية والذهبية الحمراء . وهذا الشاعر ، كليوف ، يدخل الى
بيته الريفي الراديو والمغناطيسية والكهرباء بشيء من التردد وتظهر هنا
الكهرباء وكأنها ثور عملاق برز من ملحمة ابطال ريفيين ويبدو بين قرينه
طاولة محضرة ملأى « . وهاكم ملاحظة اخرى عن أعمال اندري بايلي :

من البديهي بان الكلمة البشرية تعبر ليس فقط عن معنى ولكنها
تتضمن ايضا قسيمة صوتية كبيرة ولولا هذه الصفة لما كان هناك تفوق
سواء في الشعر أم في النثر ولن أنكر على بايلي الميزات التي تُعزى له على
هذا الصعيد . على كل حال لا تستطيع الكلمة مهما بلغت من القوة
والرنين بان تقدم اكثر مما نضع فيها . يبحث بايلي مفتشاً عن الكلمة
المناسبة ، تماماً كما يبحث الفيناغوريون عن الاعداد ، وعن معنى خاص
ثاني محتمل لهذه الكلمة . ولهذا يجد بايلي نفسه في تيه من الكلمات . اذا
وضعت اصبعك الوسطى على الابهام بالعرض ولست جسماً فانك تحس
وكأنه جسمان واذا كررت هذه التجربة تشعر بالغرابة اذ بدلاً من
الاستعمال الصحيح لعضو الحس اصبحت هذا الاحساس خاطئاً . تقدم
اساليب بايلي الفنية نفس هذا الانطباع تماماً، فانها مجموعات خاطئة بشكل
لا يتغير .

كلمة عن الكاتب الروائي بوريس بلنيك :

بلنيك واقعي وقوي الملاحظة بعينين ثابتتين وأذنين مرهفتين . لا يعتبر بلنيك الناس والأشياء دائماً قديمين ومنهكين وانهم ليسوا دائماً نفسهم لذا فانه لا يرمي بهم على طريق الثورة بصورة فوضوية . انه ينظر اليهم ويحتضنهم وهم في طورهم النضر الفريد أي وهم في كامل حيويّتهم وليس وهم اموات ثم يأخذ بالبحث عن النظام والاسلوب الفني من بين ثنايا الفوضى الثورية .

ينظر الى الثورة على صعيد محيطها الخارجي ، ومن خلفياتها وباحاتها ، في القرية وفي البلدان الريفية . فثورته هي ثورة بلدة صغيرة ، وانني لأقول ان مثل هذا البحث هو مادة حيوية أيضاً ولكن ما زال يتوجب عليك ان لا تتوقف في بحثك عند محيط الثورة فقط إذ عليك ان تكتشف محور الثورة وهذا ليس في القرية ولا في المقاطعة لا مانع من ان تبحث عن الثورة في البلدة الصغيرة ولكن لا يمكنك ان ترسم لها صورة بلدة صغيرة .

قلّما يستطيع الانسان أن يجد إن في الأدب الماركسي أو في أية آداب أخرى الاستدلالات الواضحة البرّاقة للسّمات الجلية المفصّلة لكاتب ما . وأخيراً أقول إن تروتسكي لم يتوصل الى العمل الحقيقي الجوهري عن النقد الأدبي أي تحليل وتقويم النصوص ، واعتقد ان ما قام به هو ليس إلا مقدمة للنقد ، فالاستدلالات المتعلقة بالكاتب ومقامه ككاتب ليست بذات اهمية كبيرة ، فالمادة الماركسية التي يستعملها ، تلك المادة اللينة ذات الرجوع السهل السريع قد تشربتها وإمتلأت بها رؤى الناقد

فأصبحت وكأنها أداة إخبارية تحدثنا عن المواضيع التي يعالجها ولم تعد تفرض نفسها على تلك المواضيع .

كانت هذه الكتابات الأدبية هي سلوة تروتسكي أثناء عطله ، كانت إستراحة ممتعة له مما كان يعانيه من النضال لكسب السلطة ذلك النضال الذي تفتى في صفوف القيادات البلشفية والذي تفجر سنة ١٩٢٢ ، بصورة واضحة . وحتى أواخر العشرينات من القرن كنأ ما نزال نسمع إنتقادات ذات طبيعة قاسية بصورة متزايدة عن النظام البلشفي مع أن ذلك كان ينبثق من بين صفوف البلاشفة وفي السنين المتأخرة ولكن لم تكن هذه الأمور لتمر دون عقاب . (في أواخر العشرينات من القرن العشرين كان معظم التروتسكيين البارزين مشتبين ومنفيين في مجاهل سيبيريا وآسيا بنفس الطريقة تماماً التي استعملها القيصر لتشتيتهم وبعثرتهم قبل بضعة عقود .) . كتب أحد المعارضين للبلاشفة الشجعان الذي لا يعرف الخوف والمسمى "مايزنيكوف" ، يقول : « على السلطة السوفييتية أن تحافظ على سلك من الكبار المذمومين الخاصين بالحزب وعلى حساب الحزب كما كان الأباطرة الرومان يفعلون في ما مضى » . ولكن لا أحد اهتم بهذه العبارات التي تحمل بين طياتها نصيباً طيباً من الحكمة السياسية ، وبالإضافة الى ذلك فقد نال كاتبها كثير من التوبيخ واللوم من اللجنة المركزية للحزب . سنة ١٩٢٣ ، نشر تروتسكي مجموعة من المقالات أسماها « السيل الجديد » وفيها ولأول مرة حاول بصورة جدية أن يكتشف المصادر الاجتماعية للبيروقراطية البلشفية وسجايها . وببدو اليوم ، أي بعد ما يزيد على نصف قرن أن هذا الانجاز معتدل حتى ويدل على نوع من الخجل مع أنه يحوي في طياته تقريباً كل الأفكار الاقتصادية

التي طورها تروتسكي فيما بعد في شن الهجوم على الستالينية . ولكن لا بد لنا ان نتذكر - وليس لنا أي اختيار غير هذا - بان تروتسكي قد تمسك باستراتيجية ثابتة للبقاء داخل حرم الحزب . وقد خشي بأن يكون الانتقاد اللفظ بصورة زائدة سبباً لاثارة إجراءات مضادة متطرفة .

ومع ذلك فان « السبيل الجديد » باقٍ كوثيقة تاريخية هامة . وأهم ما في هذا الكتاب هو العلاقة بين البيروقراطية والديموقراطية ، كان تروتسكي قد تفهم بشكل غريزي ما لم يستطع أن يصرح به بأن المركز الرئيسي لانتقاده يكمن في هذه العلاقة . اذ الآن وبمنظرة الى الماضي يبدو جلياً أن اهمية كل الفئات المعارضة داخل الحزب البلشفي سواء كانت تروتسكية أم غير تروتسكية هو انها سلسلة من جهود ضعيفة لايقاف او ابطاء الميول الموجهة الى التوتاليرية .

منذ سنة ١٩٢٣ ، أصبح تروتسكي الزعيم السياسي للمعارضة اليسارية في روسيا وكذلك مرشدها الثقافي . وعندما شعر بالألم بانه قد أصيب في فترة تراجع اجتماعي مما جعله يحس بنوع من الفشل في ما يختص بمطالبه ومستوياته الهادئة المثالية ، أخذ يناضل بطاقات وجهود متقطعة متصفّة دائماً بموهبه خلاقة وكبرياء شخصية . ولكن كفاحه تركّز في أرض العدو وقد قبل الفكرة المدمرة للسيطرة البلشفية المحتكرة . ورأى تروتسكي أن الحزب أصبح الآن منقسماً الى ثلاث فئات لكل ميولها الخاصة : المعارضة اليسارية التي ينتمي اليها هو شخصياً وأقلية ضئيلة تمثل فكرة الثورة البلشفية التاريخية وتقاليدها ثم المركز الستاليني وهو تبلور بيروقراطي يعكس انحطاط النخبة الشورية وتحلف المجتمع الروسي وهناك الجناح اليميني الذي يتزعمه بوخارين ، وقد مالت هذه الفئة الى

تقديم تنازلات جمّة لصالح الفلاحين الموسرين أو المتوسطي الحال وبذلك أصبحوا وكأنهم يرغبون في مصالحة الميول الفئوية الاقتصادية لأصحاب رؤوس الأموال التي أخذت تبرز في هذا العهد . لقد اقتنع تروتسكي بما لا يحتمل الشك بأن المركز الستاليني ثقافياً او سياسياً يفتقر الى قاعدة مستقلة وأن هذا المركز ، عاجلاً أم آجلاً ، سيخضع الى اليمين البوخارينى الأكثر تنظيماً رغم انه انحراف خطر . ويتركز النضال الرئيسي حسب حكم تروتسكي ، بين المعارضة اليسارية الثورية واليمين المصالح . انما يمكننا أن نرى الآن ان هذا الرأي خاطئ تماماً ويدل على سوء التقدير ولكن خطأ تروتسكي هذا يرتبط ارتباطاً وثيقاً مع تحليله الدقيق للبيروقراطية الستالينية الناهضة .

انّ الاجواء التي رآها توتسكي في روسيا بعد الثورة هي تلك الاجواء التي ادت الى الستالينية ويعني بذلك : الارهاق الاجتماعي والفقر المدقع والافتقار الى الثقافة وكبت الفكر المستقل وفقدان روح الثقة بين الموظفين كل ما ذكر جعل تروتسكي يفشل في حبه للاصلاح رغم مهارته الفائقة . ويجدر بنا ان نذكر هنا ان تروتسكي قد توقع بكل جلاء مثل هذه الظروف في السنين المبكرة حتى وفي سنة ١٩٢٩ .

قال :

عندما يرتفع منحني التطور التاريخي يصبح التفكير الجماهيري أشد نفوذاً وأشجع والمع . ولكن عندما يشير المنحنى السياسي الى هبوط يخضع التفكير الجماهيري الى نوع من البلاء ويتلاشى عند ذلك التطور والتصميم السياسي في مكان ما دون أن يترك وراءه أي اثر وتنمو البلاء لتتحول الى

وقاحة وتكشر عن انيابها مستهزئة بشكل واضح ومهين بكل محاولة تهدف الى التصميم المتطور الجدي . وعندما تشعر بانها مسيطرة على الموقف تلجأ الى وسائلها الخاصة » .

قبل عدد من القرون عرض الكاتب تسديدس ، وصفاً كلاسيكياً عن ذلك : قال

كان الذين تمتعوا بأعظم الفوائد هم رجال ذوي ذكاء محدود . فادراكهم لتقصيرهم مقابل موهبة اخصامهم جعلهم يخشون بان تخدعهم الكلمات البراقة أو أن يضلّهم ذكاء اعدائهم ولهذا اندفعوا مباشرة لتحقيق اهدافهم ، بينما الآخرون الذين استهزأوا بخطط اخصامهم ولم يدركوا أبداً ما كانوا يبيتونه واعتقدوا بان العمل لن يجدي اذا كان الكلام كافياً فاستهانوا بقوة اعدائهم وعندما استفاقوا وجدوا انفسهم مهزومين مقهورين .

وحوّلت الاحداث آراء تروتسكي فأخذ يعاني الاما فكرية بسبب تحقّقه من نظريته القائلة بان الثورة البروليتارية في بلاد متأخرة ستجد نفسها قد وصلت الى حالة من الفناء التاريخي وذلك اذا استمرت في حالة عزلة تامة . وقد عجز تروتسكي عن التكهن بالحالة المريعة التي سنؤول اليه مثل هذه الثورة . وكلما ازدادت براعة تروتسكي وزملائه كلما ازداد ، كما يبدو ، تقويضهم لمركزهم السياسي : اشهر زملاء تروتسكي على هذا الصعيد : بريوبرازنسكي ، وراكوفسكي .

كتب تروتسكي وزملاؤه كثيراً وقد عزّوا بروز البيروقراطية الستالينية ليس فقط لمجرد عوامل شخصية ولكن أيضاً لظواهر اجتماعية عميقة

الجلود ويبدو هنا ان ما فقدته تروتسكي وزملاؤه من الناحية السياسية كسبوه من ناحية الوضوح الثقافي :

قال تروتسكي :

بواسطة الاساليب اللاأخلاقية التي تحوّل الشيوعيين المفكرين الى آلات بكاء وقد تدمرت ارادتهم وأخلاقهم وعزتهم البشرية نجحت الدوائر الحاكمة الستالينية في تحويل نفسها الى أليكاركي (حكومة اقلية) لا يمكن ازالتها ولا يمكن انتهاك حرمتها . ومثل هذه الحكومة هي التي ستحل محل حكم الطبقة والحزب .

ولكي يُلقى نوراً على ما كان يحدث في روسيا خلال العشرينات من القرن العشرين اخذ تروتسكي يستعمل اصطلاحات جديدة لم تستعمل فيما مضى في روسيا انما جاء بها من اوضاع سابقة : واعتقد ان هذا مناسب الى حد ما . لقد استعار تروتسكي الاصطلاح « ثيرميدور » ، من تاريخ الثورة الفرنسية . فثيرميدور (تموز) هو الشهر في سنة ١٧٩٤ ، الذي تمكن فيه اليقافة (المحافظون اليمينيون) من الاطاحة بروبسير ، فمن هذا نرى ان رد الفعل الثيرميدوري قد أنهى الفترة الراديكالية للثورة الفرنسية ومع ذلك فهذا لا يعني تصفية انتصاراتها الاجتماعية الاساسية أي تدمير الملكية وتمكين الاقتصاد البرجوازي ، وطبقاً لما يريثيه تروتسكي قد بدأت الان عملية مشابهة في الاتحاد السوفيتي : لقد هُزم ورثة اكتوبر السياسيون ولكن الأسس الاقتصادية الاجتماعية لدولة العمال ما فتئت باقية . وبعد بضع سنوات لخص تروتسكي « المعنى الاجتماعي للثيرميدور السوفيتي » قال :

لقد اصبح الفقر المدقع والتخلف الثقافي للجماهير متجسدين بشخصية خبيثة لحاكم يحمل بيده هراوة ضخمة . وبدلاً من ان تكون البيروقراطية خادمة للمجتمع اصبحت سيدة له . وبسيرها على هذه الطريق نالت ذروة العداء من جماهير الشعب على الصعيدين الاجتماعي والأخلاقي حتى لم يعد في وسعها ان تسمح بأي سيطرة سواء على نشاطاتها ام على دَخلها .

استمر تروتسكي في ما تبقى له من العمر في متابعة هذه المقارنات التاريخية الى حد انه اعتبر ان البلاد قد وصلت الى منعطف تحولت فيه من الثيرميدور السوفييتي الى اليونانوية ، وذلك عندما رأى التزايد المستمر للدكتاتورية الستالينية الشخصية . انها لحظة مذهلة للدمج او التشويش للفلسفة اللاهوتية المنطقية والتغلغل الثقافي . لقد انتشر حوار مبهم غامض بين التروتسكيين الذين اخلدوا يتساءلون فيما اذا كان الثيرميدور قد انتصر في النهاية في الاتحاد السوفييتي . ولن يستغرب هذا الأمر على اولئك الذين اعتادوا على الافكار الماركسية بأن يعتقدوا بان هذا الحوار الذي لم يتناول اكثر من بضع مئات سيثير ردود فعل قوية بين الفئات الماركسية المعارضة لقد أحس البوخارنيون وحتى بعض الستالينيين بان ما اسماه بوخارين « الثرثرة الحاقدة على صعيد الثيرميدور » للمعارضة اليسارية تكاد تصبح حقيقة مرفوضة . أما الضليعون بتجارب الحياة فقد فهموا ان ما يريد تروتسكي لم يكن طيف دكتاتورية شخصية ستبرز بعد وقت قصير أو ان الوقت لم يحن بعد لمثل هذه الشخصية . ان ما يصبو اليه كان بالنسبة اليهم حقيقياً ومرعباً ألا وهو عملية اجتماعية جاسحة أي انحطاط للطاقة الثورية بسبب الارهاق والاختفاء وعدم الأهلية . ما

السبب الذي يمكن ان يُتَلَوَّع به لكون البلاشفة على ما هم عليه من افتخار بدهبهم سيتمكنون من مقاومة مصير قد حلّ بثورات سابقة : المصير الذي يزيل مصير التخلف والتدهور والانهار وتتكّر ملطخ بالدماء للمثل العليا التي سفك خيرة الرجال دماءهم في سبيلها ؟

من ناحية تكتيكية قد يكون تروتسكي اخطأ باستعمال هذه الاستدلالات التاريخية اذ ان نجاحها انحصر رئيسياً في إزعاج المبدلين واغاطة الاخصام الذين لم يكن كثير منهم ليهتم بالثورة الفرنسية . فمن ناحية ثقافية دلت كثرة استعمال تروتسكي لاصطلاحى ثيرميدور والهنابارية على قوة النضال الذي كان يمارسه ضد الخوارج المظلمة التي كانت تعتمل في فؤاده خوفاً من ان يكون كل شيء قد وصل الى نهايته بشكل هزيمة مريعة .

من ناحية واحدة يبدو ان الاصرار المُلِحّ على الثورة الفرنسية أثبت تماماً بانه حاجز قوي امام كل تفاهم سياسي ، وادى ذلك الى طمس التجربة الثورية الروسية الفريدة . وادت الى سوء تقدير الاساليب القاسية التي تختلف فيها ثورة سنة ١٩١٧ ، عن سنة ١٧٨٩ . وخاصة (اذا عدنا الى الخلف الى منطق ماركس) لأنها قد مرّت عن النقطة الحرجة بأن أثبتت بان الثورة البرجوازية تستطيع - لفترة من الوقت على الاقل - ان تستمر وبكل نجاح دون حكم البرجوازية السياسي بصورة مباشرة ، بينما لا تستطيع الثورة البروليتارية بان تحقق اهدافها إلا اذا سيطرت سيطرة تامة على الدولة وذلك لأنها تفتقر الى الاملاك . . لقد قضى الثيرميدور على الجناح البرجوازي الفرنسي ولكنه لم يهدد املاك البرجوازيين أما

ستالين فقد قصّ الجناح الراديكالي للبروليتاريا الروسية (كما رآها تروتسكي) وترك بذلك البروليتاريا عارية من كل قوة دفاعية امام هجمات الدولة : وبعبارة اخرى : يمكن للاقتصاد البرجوازي ان يبقى حياً تحت الحكم الديموقراطي وتحت حكم دكتاتور قديم الطراز او في ظل نظام فاشستي ولكن الاشتراكية لا يمكن ان تُبنى أبداً إلا كعملية بشرية حرة واعية كتطور شعبي للديموقراطية . هذه هي النقطة التي طمسها المنطق الثيرميدوري والحق يقال بان الفشل في تفهم هذه الحقيقة هو ما ادى الى استسلام الكثير من انصار تروتسكي وخضوعهم للأمر الواقع عندما قام ستالين بعملية التصنيع العظيم والشيوعية الاجبارية في الاملاك اواخر العشرينات من القرن العشرين .

على كل حال اذا قبلنا جدلاً بان المجتمع السوفييتي اخذ يُعاني من رد فعل - نوع جديد من ردود الفعل تميز به انحطاط دولة العمال - واذن فان اصحاب النظرية في الجناح الايسر المعارض امثال الماركسيين الكبار لا يمكنهم ان يتوقعوا بان مجرد الوضوح الثقافي (وهو اكثر المواضيع لمعانا) او الجُلْد السياسي ومقدرته على الثبات (أي شجاعتهم الثورية المتصلبة) يمكنه ان يغير الأمور بأي طريقة جوهرية . ولم يكن هناك الا سبيل واحد يمكن لتروتسكي ان يتخلذه لانتزاع السلطة الا وهو « انقلاب عسكري » منتهزاً فرصة شعبيته داخل صفوف الجيش الاحمر . اكانت هذه إمكانية حقيقية أو انها مجرد أوهام عشعشت في اذهان الملاحظين الغربيين ؟ لا نستطيع ان نجزم في أحكامنا . أما ما نعرفه تماماً فهو ان تروتسكي لم يفكر أبداً بهذا الأمر بصورة جدية ، لأن الانقلاب العسكري سيسارع في انحطاط السلطة ذلك الانحطاط الذي طالما كافح ضده اذ انه لم يكن إلا

بمجرد تغيير « بونابارت السوفييت » من ستالين الى تروتسكي . لقد كان تروتسكي رجلاً ذا عقائد مجبولة بدمه ، رجلاً عنيداً لا يعيش إلا بما يراه من الامور المشرقة لذلك فلم يكن من المتوقع ان ينحدر الى هذا الخضيض من المغامرات التي يعتبرها غير مجدية اما الذين ادانوه لأنه لم يتخذ مثل تلك الخطوة فانهم كانوا اعجز من أن يفهموا ذلك الرجل او يدركوا أفكاره .

إن البرامج التي تقدم بها تروتسكي وزملاؤه خلال العشرينات من القرن العشرين أكثر تعقيداً وعمقاً في ظروف ذلك الزمن من أن تسمح لنا بأن نقدم خلاصة عنها . ومع ذلك ففي مقبوري أن اسجل هنا بعض الافكار الاساسية .

بدأ تروتسكي ، كماركسي متشدد بالأزمة الاقتصادية التي خيمت على روسيا . وبعبارة تخطيطية ، عبارة أخذ علماء الاقتصاد يستعملونها في كل العالم متمثلين بتشبيه تروتسكي ، وصف تروتسكي المشكلة كأنها مقص فعندما يتباعد حداً المقص كل عن الآخر يشبه ارتفاع اسعار البضائع المصنوعة وانخفاض اسعار السلع الزراعية . لا يستطيع الفلاحون شراء البضائع المصنوعة وليس هناك ما يحثهم على بيع منتجاتهم واذا زاد انفراج الفسحة بين شفرتي المقص فانه ينكسر وبهذا يتعرض للخطر التحالف الهش بين المدينة والريف أي بين العامل والفلاح .

ناقش تروتسكي وزميله الاقتصادي اللامع بريثبرازينسكي ، هذا الامر قائلين انه بعد مدة طويلة لا يمكن حل المشكلة الا بواسطة تخفيض اسعار السلع المصنوعة ليتمكن الفلاحون من القيام بالمبادلات الاقتصادية

بشكل اوسع مع المدينة ويبادروا الى زيادة قوتهم الانتاجية بواسطة التعاونيات وبواسطة عمليات تأليل (استعمال الآلة) الزراعية . ولكن دون شك تقتضي هذه العملية وقتاً طويلاً ولتحقيق مثل هذه العملية يتوجب التخطيط لمشروع شامل لاهياء وانماء الصناعة بأحسن الطرق العصرية وأحدثها ، لقد وضع الجناح الايسر المعارض خطة متقنة تستهدف تقوية القطاع الاشتراكي الصناعي ، رافعين القوة الانتاجية للعمل ، محسنين مستوى معيشة العمال واعطائهم دوراً أكثر فعالية في الحياة الاقتصادية ومدّ يد المساعدة لفقراء الفلاحين لحمايةهم من « الكولاكس » ، اي اغنياء الفلاحين ، وقد اقترحت المعارضة رفع أجور العمال للحصول على رفع للمنجزات والانتاج وان يُسمح للعمال بالحرية الكاملة للمساومة مع الادارات الصناعية كما ويجب تخفيض الضرائب غير المباشرة من على كواهل الفقراء مع رفع الضرائب المفروضة على الطبقة البرجوازية الغنية كما ويجب ان تُعفى من الضرائب ادنى طبقات الفلاحين وأن تُفرض ضريبة تصاعدية على باقي الفلاحين مع تحميل اغنيائهم (الكولاكس) أثقل اعباء الضريبة وان تتخذ خطوات حثيثة لاقتناع الفلاحين تدريجياً وحسب رغبتهم وبدون أي اجبار بأن يشكلوا تعاونيات جماعية .

على مستوى نظري قدّم (بريشرازينسكي) المشايخ للمعارضة أهم المشاريع الاقتصادية (مثل هذه المشاريع لم تكن دائماً مدعومة برضاء تروتسكي لأنه شعر ان زميله كان يميل أكثر من اللزوم لرؤية القرارات الاقتصادية بغضّ النظر عن علاقاتها السياسية) . قال بريشرازينسكي بان على روسيا أن تواجه شدائد « التراكمات الاشتراكية البدائية » تلك

العملية أي عملية تكويم وتجميع رأس المال ، برأيه ، توازي تماماً
التكويم والتجميع الرأسمالي الذي وصفه ماركس في كتابه « رأس المال »
ومع ذلك فإنها يختلفان كل الاختلاف على صعيد الكمية . ولكن بسبب
المستوى المنخفض للانتاج وعدم استعمال كثير من الآلات الصناعية
وبسبب القاعدة الصناعية الضيقة نسبياً لاقتصاد الفلاحين فليس متوقعاً في
مثل هذه الحالات بأن الصناعات المؤممة يمكنها ان تنتج وفراً كافياً لتمكين
هذا التكويم والتجميع الاشتراكي البدائي ، بأن يسير قدماً بسرعة
كافية ، كما وأنه لن يكون هناك أمل كبير في تدفق رؤوس الاموال من
الخارج . في ابتداء عمليات التجميع الصعبة هذه يمكن سحب كميات
كبيرة من رأس المال من مصادر من « خارج الحياة الاقتصادية المعقدة
للدولة » ، وهذا يعني ان هذه المبالغ يُسحب معظمها من اغنياء الفلاحين
الذين كانوا قد زادوا ثراء في هذا الوقت واستعمل بريثرز ينسكي ،
المفكر الجاد ، الاصطلاح الماركسي « استغلال » ليصف العلاقات
المقترحة بين الكولاكس والدولة ، مع انه من حيث المبدأ رفض استعمال
أي قوة أو عنف أو مصادرة كوسائل للتعامل مع الفلاحين وقد حثّ الميل
الى سياسة اقتصادية بحيث تمارس السلطة « سعراً يهدف الى استغلال
الاقتصاد الخصوصي » او ما دعاه بـ « التبادل غير المتكافئ بين الصناعة
والريف » .

كان الخصم الرئيسي لبريثرز ينسكي (وبالطبع لروتسكي ايضاً)
هو بوخارين ، فبوخارين هذا بينما كان يعتبر التصنيع لازماً كل اللزوم
للثراء الاقتصادي الذي كان يهدف اليه جميع الماركسيين ويعتبرونه
ضرورياً للتطور الاشتراكي ، فقد قال بوخارين ان اقتراحات روتسكي

ستضع حملاً ثقيلاً على عاتق الفلاحين عما ينتج وَصْعاً اقتصادياً غير معقول وعلى الصعيد السياسي غير مسموح به « وخشي بوخارين من أن سياسة تروتسكي ستؤدي الى كسر المقص ، فينفر الفلاحون ويرفضوا تسليم حبوبهم إلا بنوع من الاكراه وهذا النوع من المعاملة هو الذي جعل سنوات الحرب الشيوعية تقطر دماً وتتوالى فيها المصائب المهرقة . قال بوخارين « ليس التصنيع الاشتراكي عملية طفيلية في ما يختص بالريف ولكن ينبغي ان تكون وسيلة للتطوير الى الأحسن والى النهضة » واستمر بوخارين في نقاشه قائلاً انه يجذ التطوير الصناعي الجديد ولكن ببطء اذ انه يعتقد ان هذه السياسة ستروق للفلاحين جميعاً وبهذا تخف الخصومات الطبقة وينعم الروس براحة كلها سلام ومصالحة .

إعترف بوخارين ان سياسته المقترحة تعني بأن البناء الاشتراكي سيستمر بسرعة القوقعة . وأجاب تروتسكي منتقداً هذا الرأي بانه ما لم يكن هناك توسع سريع للموارد الصناعية فمن المستحيل الاستجابة لكل طلبات الفلاح الروسي وسيُسفر عن ذلك إنزلاق تدريجي الى الخلف والى « ثيرميدور الفلاح » ويبدو لنا الآن ونحن نُعاود النظر الى هذه الآراء بان هؤلاء الاختصاص الاشداء كانوا يتمسكون باصطلاحات اقتصادية اشتراكية مضللة وليس هناك من شك بان كلا منهم قد رأى بكل وضوح نقاط الضعف في اقتراحات ومجادلات الآخر .

في هذه الاثناء رغم أن ستالين كان مؤيداً لبوخارين فانه اهتم بالدرجة الأولى بالقبض على أزمّة السلطة دون ان يهتم بالخلافات النظرية . وكانت هذه الأمور الجدلية تشمل قرارات سياسية رئيسية ولكنها كانت تتعلق بأمور صعبة للغاية وكمنت في اصطلاحات وعبارات

غامضة مبهمة فلم يستطع ان يفهمها اعضاء الحزب الموظفون ولم يفهم الفلاحون ما تدلّ عليه ، ولقد كان من السهل نسبياً على ستالين ومؤيديه ان يستغلّوا العناصر المناهضة للمذهب العقلاني الذي يرافق دائماً لحظات التأخر الاجتماعي . ولم يصعب على ستالين بأن يتهم الترتسكيين بخطا التقدير والرغبة في استغلال الفلاح وساعده في ذلك ما استعاره من نقاط الجدل في حوارات بوخارين (أَلَمْ يستعمل بريجبرازينسكي نفسه كلمة « استغلال » ؟ رغم انه عنى بها الفكرة الماركسية الفئّية وهذا يختلف من حيث المعنى عن المعنى الذي استعمله ستالين وانصاره دون ان يهتموا باظهار الفرق بين المعنيين .

يبدو جلياً بعد نصف قرن انه اذا فَصَلْنَا هذا الجدل عن القرينة الحزبية البلشفية الملوّنة فانها شكّلت جهوداً مبكّرة لمجابهة ومكافحة المشاكل الصعبة التي تواجه الأمم المتخلفة الرأسمالية والاشتراكية وآياً كانت . وذلك عندما تريد ان تنشّل نفسها الى عالم الاقتصاد الحديث ، مَنْ سيدفع التكاليف الاجتماعية الباهظة ؟ كم يجب ان يضحي الجيل في سبيل مستقبل غامض ؟ وفيما اذا كان الالتفات لطلب العون من الأمم المتطورة يكلف ثمناً سياسياً غالياً جداً . انها لأسئلة وتساؤلات عادية بالنسبة لعصرنا وقد كانت متوقعة كثيراً في المناقشات البلشفية أثناء العشرينات من القرن العشرين . لقد استهزأ تروتسكي وزميله بريجبرازينسكي بالنظرية الموضوعية حديثاً عن « الاشتراكية في بلد واحدة » تلك النظرية التي كان ستالين وبوخارين يعبثان بها ، كانت المعارضة اليسارية على حق في إلحاحها بان هذه النظرية تعارض كل المعارضة الافكار الاساسية لمذهب لينين ، مع ذلك فقد اجبرتهم الحقيقة المؤلمة

لوضعهم بأن يمعنوا النظر بالاختيارات الاقتصادية التي من ضمنها
 الفرض المحتمل يكوّن الاتحاد السوفييتي لن تنقله ثورة عالمية . كيفما كان
 الأمر فقد كان عليهم ان يواجهوا المشكلة المُرّة ألا وهي ما يتوجب على
 الماركسية الحاكمة ان تفعل اذا كان عليها ان تخلق ثروة اقتصادية بدلاً من
 البدء بأساس من الثروة الاقتصادية . هل يمكن انجاز ذلك دون إنتهاك
 حرمة الافكار الاشتراكية الاساسية ؟ وقد حذّر مارتوف وآخرون من
 حزب المشفيك بان ذلك لن يحصل . لقد حاوروا قائلين بان (اشتراكية
 فقر) ستؤدي دون شك الى انواع جديدة من الاستغلال وانواع جديدة
 من الاتوقراطية واضطر البلاشفة الآن ان يواجهوا المشكلة العويصة التي
 طالما تجاهلوها معتبرين بانها ليست إلا أوهم المشفيك ، وفي المؤتمر الثاني
 عشر للحزب سنة ١٩٢٣ ، حدثت مجابهة بارزة الاهمية يذكرها دوتشر ،
 في « سيرة تروتسكي » قال : اثناء النقاش قال كراسين ، موجهاً الكلام
 مباشرة الى تروتسكي صديقه القديم فيما اذا كان قد فكّر في التعقيدات
 التي ستتبع في النهاية عن « التجميعات الاشتراكية البدائية » وأضاف
 كراسين مشيراً الى ان الرأسمالية القديمة لم تخفّض أجور العمال فحسب او
 تعتمد على تعفف المتعهدين من ان يقترحوا « التجميع » بل ايضاً
 استغلت المستعمرات ونهبت قارات برمتها ودمرت الفلاحين الملاكين في
 انكلترا وهدمت اكواخ الحائسين في الهند حيث شُيّدت على عظامهم
 صناعة النسيج . هل سار تروتسكي بهذه المقارنة الى نهايتها المنطقية ؟

لقد تقدم كراسين بهذا السؤال دون أي قصد سيء . لقد طرح
 السؤال من ناحية مسؤولياته : اذ انه كوزير (قوميسار) للتجارة
 الخارجية وبهذه الصفة حاول ان يقنع اللجنة المركزية بحاجة البلاد الملحة

للكثير من التجارة الاجنبية وان عليهم ان يقوموا بتنازلات كثيرة لتشجيع رأس المال الاجنبي . ولقد ألح على المؤتمرين بان يحاولوا جذب القروض الاجنبية وتشجيعها لأنهم بصفتهم بلاشفة لا يمكنهم ان يتزعروا املاك الفلاحين ولا ان ي نهبوا المستعمرات وهذه حقائق مسلم بها ، واضاف بان رؤوس الاموال الاجنبية قد تساعد روسيا في الاستمرار بعملية التجميع البدائية وتستطيع ان تتجنب الاهوال التي رافقت عمليات التجميع في الغرب ويظهر ان البلاشفة في هذا الوقت قد وجدوا انهم قد فشلوا في استئالة القروض الاجنبية بشروط مقبولة ولهذا فان السؤال الذي طرحه كراسين احتفظ بكامل قوته : من أين ستأتي الموارد اللازمة للتجميع السريع ؟ عندما تكلم كراسين عن « نهب الفلاحين » و « العظام البيضاء » للحائكين الهنود سكان الاكواخ قفز تروتسكي واقفاً على قدميه محتجاً بانه « لم يقترح ابداً أي شيء من هذا القبيل » .

وبالفعل لم يقترح تروتسكي أي شيء من هذا القبيل . ولكن سؤال كراسين المتصل بمناقشات بوخارين أثار صعوبات جمة احاطت بمركز تروتسكي وعرضته للترزع . فلو سلمنا بادعاء تروتسكي بشرعية جعل الحياة الاقتصادية الروسية ديموقراطية بكل معنى الكلمة وان هذا قد يؤدي الى نمو في الانتاج وقوته (لقد اصبحت الديموقراطية الروسية ضرورة اقتصادية كما قال تروتسكي) ولو سلمنا بان الاقتراحات الاقتصادية لحزب المعارضة اليساري سيؤدي الى تحسين الانجازات الاقتصادية دون كسر العرى بين المدينة والريف بشكل نهائي . فاذا سلمنا بكل هذا واكثر منه فما يمكن ان تكون النظرة المستقبلية للنظام البلشفي اذا لم يكن هناك ثقة في الغرب وان المساعدة سوف لا تأتي من هذه الجهة ،

هذا رغم جميع الحثّ والارشاد الاستراتيجي من موسكو ؟ .

ولم يكن في مقدور تروتسكي ان يجيب عن هذا التساؤل مكرراً ما قاله لينين بانه اذا لم تنتصر الثورة في الغرب « فان فناءنا محتم » . لا شك ان هذا الجواب مقبول كافتراح نظري عام لعصر تاريخي كامل ولكنه ليس عملياً أبداً اذا اردنا ان نجعله أساساً لسياسة حكومة تسيطر على ملايين الناس . وتحذّر تروتسكي كل اخصامه وبهذا لم يبق امامه أي مجال للتراجع مهما كانت الظروف لا تراجع حتى ولو اضطر الحزب البلشفي ان يتحمل العبء منفرداً . واذا اخذنا بعين الاعتبار مسيرة تروتسكي كما سجلها دوتشر فلا يمكننا ان نتغاضى عن هذه الانتقادات .

ولكن دراسة حديثة قام بها الاستاذ « ريتشارد دي » ، بخصوص سياسات تروتسكي الاقتصادية تبين بكل وضوح ان تروتسكي بالاضافة الى اقتراحاته بالتصنيع في الاتحاد السوفييتي واعادة انعاش سياسة لينين الثورية في كل ارجاء العالم بالاضافة الى كل هذا فقد حاول تروتسكي بكل جهده بان يواجه الصعوبات الاقتصادية الملحة التي تجابه البلاد بوسائل واقعية . ومن الواضح بانه شعر بان خطة بريكمراز ينسكي لـ « التبادل غير المتكافئ » بين الريف والمدينة لن يكون كافياً لتقديم « التجميع الاشتراكي البدائي » الضروري او ان ذلك قد يكون سبباً لبروز صعوبات جمة (الفلاحون وثوراتهم الخ) تلك المشاكل التي ما انفك حزب بوخارين يتكهن بحدوثها . ولقد فهم تروتسكي ايضاً بان الاقتصاد الروسي لا يمكنه ان يقدم فائضاً كافياً من موارده الخاصة لتنفيذ التصنيع الذي كان يتوخاه . ونتيجة لذلك التفت تروتسكي الى الغرب

لتنفيذ مقترحاته الاقتصادية . وقد اعتقد بان الغرب سيكون راغباً بان يمدّ النظام الروسي المستقر برأس المال الذي كان النظام بحاجة ماسة اليه ، وفي هذا السبيل كان تروتسكي مستعداً بان يقدم امتيازات خاصة للمصالح الغربية تماماً كما رغب لينين قبل بضعة سنوات مع ان مساعيه قد باءت بالفشل ، واسمعوا الآن ما قاله الاستاذ « دي » .

سنة ١٩٢٠ - ١٩٢١ اعتقد تروتسكي ان روسيا أفقر من أن تستطيع جذب رأس المال الأجنبي على مقياس كبير . منذ ذلك الوقت كان الانتعاش قد كمل ، وسيرافق كل نضال امبريالي كبير منافسة عنيفة للحصول على المواد الخام واحتكاكها ، أما وقد اخلت امريكا تتدخل بمصادر التمويل الاوروبية الثابتة فقد بدا من العقول الافتراض بان روسيا تستطيع الآن ان تقدم بديلاً مرموقاً . قال تروتسكي وهو يوجه كلمة الى العمال الالمان في تموز سنة ١٩٢٥ ، « لقد كنّا نحن انفسنا ، حذرين للدرجة القصوى ويجدر بي ان اقول « حذرين اكثر من اللازم » في ما يختص باتفاقات الامتيازات . لقد كنا في حالة شديدة من الفقر والضعف . لقد كانت صناعتنا واقتصادنا بكامله في حالة تدمير كامل وكنا نخشى بان ادخال رأس المال الاجنبي سيعمل على نفس اساسات صناعتنا الاشتراكية التي كانت لا تزال تروّج تحت حالة سيئة من الضعف والوهن ، ومازلنا متخلفين من الوجهة الفنية . ومازلنا نهمم باستعمال كل وسيلة ممكنة لتسريع تقدمنا الفني . وما لا شك فيه بان « الامتيازات » هي واحدة من الأمور التي يمكنها ان تساعد في ذلك . وبسبب هذا الدعم الاقتصادي فاننا الآن نميل بشكل اقوى منه قبل بضعة سنين لأن ندفع لرؤوس الاموال الاجنبية مبالغ لا بأس بها لمشاركتها لنا في تطوير قوانا

الانتاجية . اننا في حاجة ماسة للقروض ونحتاج الى الامتيازات ايضاً لكي
نسرع في التنمية الاقتصادية وبهذا نسرع في تحسين مستوى معيشة
الجمهور .

وبعد ذلك بوقت قصير وبمناسبة الاستعداد لحفلة للمؤتمر عبر
تروفسكي عن آرائه بصورة متقنة ونظمها بشكل بيان نظري قال :

اننا بالفعل قد اسدلنا ستاراً خلف وجودنا السياسي المغلق واصبح
الآن يرتبط بصورة متزايدة بالاسواق الأوروبية والعالمية وهذا دون شك
أهم خط يسير عليه النمو الاقتصادي لروسيا . اما اذا انحدرنا بمسألة
التطور وحصرناها بالعلاقات بين البروليتاريا والفلاحين في الاتحاد
السوفييتي واذا اعتقدنا بأن المناورات السياسية الصحيحة تحررنا من
الاعتماد على الاقتصاد العالمي فهذا يعني اننا سنسقط في حدود قومية مريضة
وقال ايضاً :

علينا ان نجدد رأس مالنا الاساسي الذي حالياً يعاني ازمة حادة . ان
كل من يتصور اننا نستطيع ان نبني كل معدتنا واجهزتنا في السنين القادمة
او حتى ان نبني القسم الاكبر منها فانه دون شك يحلم . ان تصنيع بلادنا
لا يعني خفض علاقاتنا مع الغرب انما بالعكس تماماً يعني نمو تلك
العلاقات مع العالم الخارجي وهذا يعني زيادة اعتمادنا على السوق العالمية
وعلى رأس المال العالمي وعلى الاجهزة العالمية الفنية والاقتصاد العالمي .

واختصر الاستاذ « دي » هذا الوضع قائلاً : « بتطور التجارة
الاجنبية مع الغرب تكون روسيا قد توفقت واستعدت في نفس الوقت

للثورة العالمية . ستنمو روسيا في كيان اوروبا وهذه المعاشية الاقتصادية المتكافئة سيسفر عنها بعد ذلك وضع سياسي بشكل الاتحاد اشتراكي عالمي .

وبينا كان تروتسكي يعمل على تكوين هذا الاسلوب المثقن لخطط ثورية باسلة انما غير مؤكدة عملياً هاجمه كل من ستالين وبوخارين ليس فقط « كاستاذ تصنيع فوق العادة » ولكن ايضاً لالتفاته المتطرف للغاية نحو الغرب . اما بالنسبة لستالين فلم يكن هذا إلا مجرد اظهار وتمكين لزعامته الحزبية اذ ان ذلك يروق للغطرسة التي تحميم على الكبار في الحزب . ولكن ربما كان بعض ما فيه يظهر ما يُتَوَقَّع من سياسته المستقبلية ، التي ستضغط على امور التصنيع بغض النظر عن الاساليب الاشتراكية ورأس المالية وقواعدها . أما معارضة بوخارين لخطه تروتسكي على صعيد العلاقات الاقتصادية الحادرة مع غربي اوروبا فانه لصعب بان يُفهم تماماً لأننا قد نعتقد بان فكرته عن « سرعة القوقعة » داخل روسيا يتماشى مع الاستدانة من المصالح الغربية لاصحاب رؤوس الاموال والامتيازات التي يجب ان تمنح لهم ، ربما حدث ذلك لأن بوخارين حليف ستالين السياسي وكان عليه ان يسير حسب التيار .

يمكننا ان نقول انه حتى وبينا كان تروتسكي يصقل فكرته الثورية الاساسية فقد فهم تماماً بان عليه ان يتخذ اجراءات لمكافحة الصعوبات الاقتصادية الروسية وان يشجع القروض الاجنبية التي قد تخفف من الصعوبات الناجمة عن عمليات التنمية وذلك بانتظار حلول الساعة السعيدة ألا وهي « الاتحاد الاشتراكي الاوروبي » . وهذا نوعاً ما يشابه

في هدفه برنامج بوخارين . فكل منهما وافق على الاستمرار في السياسة الاقتصادية الجديدة لما اختلفا على صعيد أي قطاع اقتصادي يجب ان يمنح مساعدة اكبر . وقدم كل منهما برنامجا اقل تطرفاً وأكثر رافة وأكثر قرباً للقواعد السياسية الاخلاقية الحية للاشتراكية التقليدية مما قدّمه ستالين بعد ان انتزع زمام السلطة .

في مثل هذه الظروف قد نستغرب متسائلين اما كان هناك نواة من حكمة في رأي بوخارين لنوع من الاقتصاد الممتزج الذي يسيطر عليه البلاشفة اذا استطعنا ان نفصل ذلك عن تحالفه السياسي مع ستالين الذي لا يمكن تبريره ؟ أما كانت هذه الفكرة سبيلاً لجعل النظام المنعزل وغير المألوف مقبولاً عند جماهير الفلاحين وبهذا يُتَجَنَّب او يُخَفَّف الظلم ؟ أَلَمْ يكن التطور الاقتصادي المعتدل المصحوب بتطوير ديمقراطي - جزئي على الأقل والمقرون ايضاً بامتيازات اقتصادية لرؤوس الاموال الاوروبية مقابل الاستدانة من الغرب وترحيب جزئي بالديموقراطية الاجتماعية الاوروبية أَلَمْ يكن كل هذا نافلاً لرفع او على الأقل لتخفيف الآلام المبرحة التي كانت روسيا القرن العشرين ترزح تحت اعبائها ؟ قد يتطلب مثل هذا السبيل من البلاشفة بان يعترفوا بانهم بدلاً من ان يشيدوا « الاشتراكية في بلد » قد ركزوا على سياسة الاعتراف بالسخافة الاقتصادية والاشتراكية لتلك الفسكرة - كأن يتعهدوا - كمقدمة للاشتراكية - تعصراً (تجديداً) تدريجياً تحت سيطرة الدولة مع تقديم امتيازات للسوق . واهم من كل هذا ، يعني مثل هذا السبيل الاعتراف بان فكرة الاشتراكية نفسها التي بدأوا بها هي فكرة صلبة جافة غير عملية وانها في حاجة الى التعديل لتصبح فيها بعد تسمى « اشتراكية السوق » .

اننا لا نستطيع ان نجزم تماماً اذا كان مثل هذا السبيل ناجحاً بالنظر الى
 الصعوبات الاجتماعية الضخمة في الاتحاد السوفيتي وجو الاضطهاد
 السياسي والاعتداءات المسلطة من قوى اصحاب رؤوس الأموال في
 الخارج . ان الصعوبات التي كان تروتسكي ومشايعوه يجادلون لينفذوا
 البلاد منها كانت حقيقة واقعية . ولكن لو اعدنا النظر قليلاً الى الماضي
 لرأينا ان كلا من تروتسكي وبوخارين ، بالرغم من التباين الواسع بين
 رأييهما ، قد كانا يدعوان الى نوع من الاعتدال البلشفي في السياسة
 الاقتصادية . لو انتصر تروتسكي في تنفيذ افكاره لما امكن صيانة « تجميع
 اشتراكي بدائي » بهذه الصرامة كما تصوّر بريجرازينسكي اذ لو حصل
 ذلك لكان من الضروري الاهتمام برغبات الفلاحين ومقاومتهم . ومن
 الناحية الأخرى لو انتصرت آراء بوخارين لأصبح من غير المحتمل التنازل
 لدرجة كبيرة للفلاحين كما ارتأى بوخارين لأن ذلك سيهدد استقرار
 الحكم البلشفي . اما ما حصل بالفعل فكان صارماً وخيفاً وراديكالياً أكثر
 بكثير مما حلم به كل من تروتسكي او بوخارين . فقد طرح نظام ستالين
 التوتاليري جميع العقائد والتحديدات لكلا « التجميع الاشتراكي
 البدائي » او « التجميع البدائي رأس المال » ، لقد حوّل النظام الستاليني
 الدولة الى عامل خالٍ من الرحمة للاستغلال لقد قام النظام بحرب ضد
 المجتمع وخلق بذلك نوعاً من طغيان صناعي شرقي جَرَّ جزءاً - ليس إلا
 جزء - من الاقتصاد الروسي الى عصر حديث بينما شد بروسيا الى الوراء
 اجتماعياً نحو نوع من الاستبداد الذي لم تعهده البلاد حتى في احلك
 واقسى عهود القياصرة .

بعد بضع سنين وبعد أن نال ستالين الظفر الكامل ووافق عدد لا

بأس به من الاحرار الغربيين على قبول طلباتهم غير المحرجة عندها اصبح من المألوف القول بان ستالين بعد أن توصل الى برنامج تصنيع متطرف قد اختلس « رعود تروتسكي » لقد تجاهل هذا النوع من الحوار نقطة كان تروتسكي يعتبرها دائماً بالغة الاهمية ألا وهي : ان المهم هنا هو ليس فقط التصنيع نفسه انما التصنيع على صعيد الاهداف الاشتراكية وان يُتوصَّل اليه بوسائل اشتراكية . ويجدر بنا القول هنا بان التصنيع ممكن التحقيق في أي بلد متخلف اذا استعملت فيه قوة كافية دون أي رحمة وذلك بارهاق عدد وافر من الشعب . كان هذا الأمر مفهوماً تماماً . انما ما كان يهتم به تروتسكي على صعيد برنامجه التصنيعي فهو ان « التصنيع وسيلة لرفع القيمة المعنوية للمجتمع البروليتاري » وبهذا ينتقل الى مملكة الاشتراكية المنسجمة : اما تصنيع ستالين فكان يختلف عن هذا كل الاختلاف لأن التصنيع الذي انجزه ستالين اعتمد على الاستغلال الاجتماعي والى الضغط على الطبقة الكادحة بشكل ليس له نظير في الماضي حتى وليس له نظير في الثورة الصناعية في الغرب . لقد حقق ستالين برنامجه التصنيعي بتدمير الحياة السياسية الذاتية ، او ما كان قد تبقى منها ، وفرض ارباباً توتاليرياً . لقد اسفر عن ذلك اختلال في التوازن الاقتصادي وفساد اجتماعي على نطاق واسع ووحشية سياسية متطرفة . لقد كلف هذا البرنامج التصنيعي ازهاق ارواح الملايين في الريف وارهاباً لم يعرف له مثيل في غنيات عمل العبودية .

لا ، لم يكن هذا أية « رعود » او ما يماثلها مما اقترحه تروتسكي او أي زعيم بلشفي آخر في العشرينات من القرن العشرين . وانه لحري بنا ان نقدم في ما يلي ملاحظة ادلى بها احد مؤيدي تروتسكي ماكس شختمان ،

إن قوة العمال في روسيا حتى بالشكل الملطف الدكتاتوري لحزب البلاشفة ظهرت كعقبة كاداء في وجه التجميع رأس المال وذلك من جهة لأن التجميع الاشتراكي كان أمراً مستحيلاً في بلد متخلف منعزل ومن الجهة الأخرى فإن قوة العمال لا تليق بأي نوع آخر من أنواع التجميع . واذن فمن الضروري القضاء على هذه القوة وتشتيتها .

أي تقضي عليها دكتاتورية ستالين .

بالنسبة لما ارتآه تروتسكي لا يمكن فصل الاقتراحات التي قدمتها المعارضة اليسارية للتخطيط الاقتصادي عن طلباتها على صعيد انعاش واحياء ديمقراطية الحزب ، على اتناقد نصفح عن الأجيال التالية اذا اعتبر بعض منها قضية الديمقراطية أمراً صعباً معرجاً واعتبر البعض أيضاً انتقاد تروتسكي لستالين باستمرار كمساهمة عظيمة للفكر والسياسات العصرية . لقد بدأ هذا الناقد الفذ (تروتسكي) حياته الانتقادية سنة ١٩٢٣ ، واستمر حتى موته سنة ١٩٤٠ ، وقد شمل في انتقاداته ومحاولته الاصلاحية كل ناحية من الحياة الاجتماعية ، وامتد هذا النقد من الاهوال الدامية التي نتجت عن جعل ستالين جميع الأراضي مشاعا باستعمال القوة الى الإنلاف البيزانطي « للمذهب الشخصية » ومن السياسات التي خيم عليها الظلام في ما يختص بالاجهاض والمواقف البربرية بالنسبة للحياة الثقافية ومن المغالاة في التعصب القومي السوفييتي الى الانغماس الماكر في معاداة السامية ، فهل هناك مثال آخر في تاريخ كل العالم عن عقل جبار يوجه كل اهتمامه وباصرار عجيب وبكل حرارة نابذة من صميم قلب ذكي لفضح الادعاءات المزيفة لنظام يدين له بالاخلاص ملايين الناس في جميع ارجاء العالم ؟ خلال عمليات التطهر هذه والهجمات البطولية ليس هناك

أي شك بأن تروتسكي وقع في بعض الأخطاء ولكن فلندكر انه على اساسات هذه الأخطاء الأولية طالما بنيت التحاليل المتأخرة . ومع ان طلاب ومؤيدي التوتاليرية المعاصرين قد يختلفون إختلافاً بيّناً عن تروتسكي فيكاد يكون كل واحد منهم مديناً لتروتسكي بدين عظيم اذ انه كان اول من كافح التوتاليرية الستالينية ومشاكلها ، كان هو الذي عانى من الهزء والسخرية ما عانى ليس فقط من بعض زملائه المسافرين الذين قد عماهم السكر ولكن ايضاً من بعض الاحرار المفتونين الذين لم يتورعوا عن رفض رؤية الحقائق البسيطة على صعيد الستالينية وذلك لشدة عنادهم وتعاميهم عن رؤية تلك الحقائق التي كان يكشف عنها تروتسكي .

وعليّ ان اوضح هنا ان النقاش داخل الحزب قد اختفى تماماً واليكم ما كتبه تروتسكي في السنين الأولى للكفاح الحزبي : قال :

في هذه الاوقات لم تعد الجماهير الحزبية هي التي ترشح وتنتخب اللجان القطرية واللجنة المركزية . على العكس من هذا فان السكرتيرية العليا للحزب بصورة متزايدة هي التي كانت تنتخب عضوية الاجتماعات والمؤتمرات التي أصبحت المشيرة التنفيذية لأصحاب المراكز العليا .

والآن وقد تأخر الوقت كثيراً التفت تروتسكي الى فكرة الاشتراكية المشاركة التي كان لينين قد ذكرها في كتابه « الدولة والثورة » تلك الفكرة التي لم تلعب دوراً فعالاً في اوائل العشرينات من القرن العشرين على صعيد الحياة السياسية لتروتسكي او لأخصامه .

كتب تروتسكي سنة ١٩٢٥ : علينا ان لا نشيد الاشتراكية على الطرق البروقراطية ، علينا ان لا نخلق مجتمعاً اشتراكياً بواسطة اوامر ادارية اذ ان الاشتراكية لا يمكن ان تبني إلا عن طريق المبادرات العظمى والنشاط الشخصي والتصميم والمرونة في ارادات وآراء الملايين من الجماهير اولئك الجماهير الذين يشعرون ويعرفون بان هذه الأمور من اختصاصهم واختصاصهم فقط .

وعندما اقترح تروتسكي اعادة الحرية في المناقشات داخل الحزب البلشفي لم يتخذ الخطوة التالية لاعادة الحرية الكاملة للاحزاب التي اعتبرت غير قانونية ولا شك باننا ندينه هنا لهذا الفعل .

سنة ١٩١٧ وقبل بضعة اسابيع من ثورة اكتوبر عندما انتخب تروتسكي رئيساً لسوفييت بتروغراد كان قد تعهد : « سنسير في العمل في سوفييت بتروغراد بروح القانون وباعطاء الحرية الكاملة لجميع الاحزاب . وقيل وفاته كتب :

« في البدء تمنى الحزب بكل رغبة بان يحافظ على الحرية الكاملة للنضال السياسي داخل الاطار السوفييتي وان يصون تلك الحرية ، ولكن الحرب الاهلية ادخلت تعديلات خشنة وقاسية لم تكن بالحسبان . فقد حرم من هذه الحريات احزاب المعارضة واحداً آخر (المنشفيك والحزب الراديكالي الخ) وليس هناك من شك بان هذه الاجراءات منافية تماماً لروح ديمقراطية السوفييت ولقد اعتبر زعماء البلاشفة هذا الاجراء ليس كمبدأ من مبادئ البلشفية ولكن كعمل عرضي موقت للدفاع عن النفس » .

ويبدو ان الحقيقة اكثر تعقيداً مما اعترف به وبرره تروتسكي . ففي نهاية العشرينات من القرن العشرين قد لا نعتبر اصرار البلاشفة بان حزباً واحداً فقط هو المعترف به قانونياً كمبدأ لهم ولكن دون شك يجب ان يعتبر هذا اعمق من مجرد تبرير « للدفاع عن النفس » . حتى وفي « السبيل الجديد » يكتب تروتسكي كناقذ ممتاز للمبول القمعية للستالينية :

« نحن الآن الحزب الوحيد في البلاد وفي هذا العهد عهد الدكتاتورية البروليتارية لم يمكن ان يكون هناك حكم آخر » ، ولئنُصُغَ الآن الى النكتة المريعة التي طالما ردها بوخارين مسانداً رأي تروتسكي قال : في الاتحاد السوفييتي احزاب عديدة واحد منها يمسك بزمام السلطة والاخرى كلها في السجن لم يكن هناك ضرورة للبلاشفة لاعتبار مبدأ « المجتمع ذو الحزب الواحد اذ بالحقيقة اصبح هذا الأمر ممارسة عادية لهم وأمرأ مسلماً به » .

ان كل ما اختبرناه في بلادنا يجعلنا نشك في حوار تروتسكي الذي جعل محوره « الضرورة » لتبرير قمع الاحزاب المتمردة . وحتى لو سلمنا لحد ما برأي تروتسكي بان متطلبات الحرب القاسية الاهلية هي التي دعت الى اتخاذ مثل تلك الاجراءات فعلينا ان نتذكر ، على سبيل المثال ، الوثائق المقنعة التي سجلها ليونارد شابيرو ، في كتابه « أصل الاتوقراطية الشيوعية » اذ فيه تقرير عن الانتهاكات المتكررة التي ارتكبتها النظام البلشفي لحرمات الديمقراطية فيما بين سنة ١٩١٧ - سنة ١٩٢٢ ، ولا يمكن ان نعزو عدداً كبيراً منها الى ضغوط الحرب الاهلية . على كل حال فان قرار تروتسكي لتكريس نفسه خلال النضال الحزبي في

العشرينات من القرن العشرين الى الالحاح بطلب الديموقراطية داخل الحزب البلشفي اقول ان هذا الالحاح جعله في موضع تناقض شديد .

فالديموقراطية المفروضة داخل حزب حاكم ، وخاصة اذا كان ذلك الحزب يسيطر على مجتمع اصبح جميع املاكه ملكاً للدولة ، مثل هذه الديموقراطية مستحيل إلا اذا امتدت خارج حدود الحزب ويظهر من هذا ان ما كان تروتسكي يطلبه هو احتكار السلطة واحتكار الحرية للبلاشفة ، وقد يكون هذا ممكناً لفترة قصيرة ولكن ليس لمدة اطول .

ليس هناك ما يسمح لنا ان نفترض انه لو أثار تروتسكي الطلب لديموقراطية تعدد الاحزاب لكان هذا معزراً لقضيته ولاعادة تأسيس شعبيته . واذن ولهذا السبب فعلى تروتسكي ان يساهم في تحمل المسؤولية . لم يعد هناك مجموعات شعبية سياسية نشيطة او علنية في الاتحاد السوفيتي ، لقد دمرها النظام البلشفي . وكتيجة لهذا لم يبق هناك مَنْ يمكن ان نرجع اليه اللهم إلا الحزب الحاكم ، لا أحد هناك ما عدا العمال المهقّين وقد زالت او هامهم وما عدا البقايا المبعثرة للاحزاب الأخرى التي كان بعضها يخشى ان تبطله النضالات البلشفية الداخلية والبعض الآخر يتمنى لو يحل الوفاء على جميع البيوت : تروتسكية كانت ام بونخارنية أو ستالينية . ان طلباً بالسماح بتعدد الاحزاب كان سيجعل تروتسكي منعزلاً بصورة متزايدة في رئاسة الحزب وقد لا يستطيع عندها ان ينطق بكلماته البليغة امام الجماهير غير ان وضعه السياسي والمعنوي سيكون اقوى بكثير في اعين الجيل الصاعد الذي كان تروتسكي ينظر اليه بكل اهتمام .

ومع ذلك فيمكننا ان نفهم لماذا لم تشع فكرة الديمقراطية المتعددة الاحزاب الابن قلّة من المتمردين الذين قد قرروا بان تروتسكي لم يقيم بالأمر كما يجب وبان الحزب البلشفي قد اصبح فاسداً لدرجة كبيرة وان البلاد قد اصبحت الآن في حاجة ماسة الى ثورة ثالثة الثورة التي تحدث عنها ثوار الكرندات .

في اواسط العشرينات من القرن العشرين كان كل الجو في الاتحاد السوفيتي خاليا تماما من تلك الصفوة الثائرة وانعدام الأمل الذي كان يعصف فيما مضى في صدور البلاشفة القدامى الذين قد اصبحوا في حالة حصار مستمر والذين كانوا من اعظم انصار تروتسكي أنعدم الأمل كليا حتى انه لو خطررت لهم فكرة الديمقراطية المتعددة الاحزاب لظهرت لهم بشكل خيال او سراب بعيد المثال . لقد اصبح من المستحيل اللقاء كلمة حرّة داخل الحزب فكيف اذن بكلمة تتنافى مع سبّله . اقول هذا ليس لتبرير فشل تروتسكي باثارة قضية الديمقراطية الاشتراكية المتعددة الاحزاب انما لأوضح بالفعل ظروف هذا الوضع .

لقد خيم ستار من الحزن على زعماء البلاشفة اولئك الزعماء العقائدين القلائل : البيروقراطيين الذين كانوا يمسون بزمام السلطة . قالت المعارضة : لقد حلّ في البلاد رد فعل سيء وشملها جميعها وادبج بذلك حتى اصلب الثوريين عوداً مصابين بنوع من الاعياء والخيرة . وفي مؤتمر الحزب الرابع عشر سنة ١٩٢٥ ، وهو آخر مؤتمر حضره تروتسكي حدثت حادثة بارزة مثيرة : تحول زينوفيف وكامينيف ، اللذان كانا بالأمس حليفين ستالين في حرب ضد التروتسكية الى حزب المعارضة فنزعت منهما كل السلطة واصبحا لا حول لهما ولا قوة . أما بوخارين

فبقي مساندا لسئالين إلا أن هذا الأخير ما لبث أن اطاح ببوخارين أيضاً
واليكم ما كتبه اسحق دوتشر عن هذا الحادث قال :

أحتج كامينيف قائلاً من الغريب بأن بوخارين وقد كان دائماً يعارض
ممارسة الانتقام ضد تروتسكي ان ينادي الآن باستعمال السوط فتدخل
تروتسكي قائلاً : « آه ولكنه أصبح الآن يستطيع استعمال السوط . أما
وقد أخذ بوخارين على حين غرة فانه صاح : « تعتقد بانني اصبحت
استطيع استعماله ولكن هذا التلذذ يجعلني ارتجف من قمة رأسي الى
الحمص قدمي » .

ولم يرتجف بوخارين وحده اذ ان كثيراً من الآخرين كانوا يرتعدون
من « رأسهم حتى اقدامهم » . ولكن الحقيقة هي عملية فيها عنف وفيها
شدة مريعة اصبحت تمارس ، حُلّ وثاق شيطان من صنع يدي زعماء
البلاشفة ولم يعد احد يستطيع كبح جماحه . ومدة الفترة الواقعة ما بين
سنة ١٩٢٦ - سنة ١٩٢٧ ، حاولت المعارضة المتحدة المؤلفة من
« تروتسكي وزينوفيف وكامينيف » ان تلجأ الى الجنود والى الشعب
المؤيدين للبلاشفة أملين ان يجدوا منهم بعض التأييد . يصف لنا فكتور
سارج ، احدى هذه اللقاءات كما ورد في مذكراته :

قال : لقد خاطب سملقا ، حوالى خمسين عاملاً محشورين في غرفة
صغيرة حتى لم يستطيعوا ان يتحركوا أبداً (سملقا هذا كان زعيماً سابقاً في
الجيش وكان أيضاً وكيلاً سرّياً وعاملاً للينين في اسطول بحر البلطيك)
خاطب سملقا العمال مدة مساء كامل وهو جالس على مقعد وسط الغرفة
تكلم دون أي لعنة ودون أي توقف وبعبارات واضحة تماماً عن الانتاج

والبطالة وعن الحبوب ثم انتقل الى ارقام الميزانية ثم الى الخطة التي كانوا يحاولون تقديمها للتنفيذ . ويجدر بنا ان نقول هنا ان مثل هذا الموقف الذي يدل على جو من الفقر والبساطة والتساهل بالنسبة لزعماء الحزب لم يشاهد منذ الثورة .

لم تكن هذه الاجراءات مجدية اذ عندما ظهر تروتسكي بصحبة زعماء آخرين في بعض مصانع موسكو يخاطبوا العمال فيها ، قابلهم العمال بأصوات الاستهزاء والتخويف والاشمئزاز ومن الغريب حقا ان يقف هذا الخطيب المقتو دون ان يستطيع ان ينسب بنت شقة امام حشد من العمال كانوا قبل اقل من عقد من السنين يهتفون له بأعلى اصواتهم . وكان الأمر أسوأ من هذا حسب رأي تروتسكي ان العمال وقفوا دون أي اهتمام وبشكل سلبي ومظهر يدل اما على البلادة او منتهى الخوف كي لا يتدخلوا في مشاكل الحزب ابداً . لم يكن اولئك هم نفس عمال سنة ١٩١٧ او سنة ١٩٢٠ ، لقد فأت الفرصة تروتسكي ومؤيديه .

وهكذا اصبحت الأمور المواجهة لكل فئة معارضة : تروتسكي سنة ١٩٢٣ ، وبوخارين بعد اربع او خمس سنوات . وسيطر النظام الحزبي بواسطة اشرافه على جميع المرافق وظلم السكرتير العام سيطر على كل شيء تقريباً ، وقد ضمن في الانتخابات الحزبية اكثريية تزيد على ٩٠٪ (وحياناً ١٠٠٪) ونفى النظام النقاد الى مجاهل سيريا واستطاع ان يكبت اصوات حفنة الاصوات التي لم يُثَفَّ اصحابها . تساءل مؤرخو هذه الحقبة المضادون للستالينية الراديكالية عن سبب عدم اتحاد التروتسكيين والبوخارين او على الأقل تشكيل كتلة واحدة للدفاع عن ديمقراطية الحزب فكل منهما كان ضعيفاً ولكن الاتحاد يقويهما . اعتقد ان هذا

يعود جزئياً الى الحقد السائد بين الاحزاب ومن جهة اخرى الى تشدد كل حزب في اساليبه الاقتصادية المتباينة والاعتقاد بان هذه الاختلافات الاقتصادية اهم بكثير من فكرة الديمقراطية وقد فشل كل من التروتسكيين والبوخارين في تقدير اهمية ستالين كشخصية تاريخية فذة كما فشلوا في تقدير الستالينية كمظهر يجب ان يحسب حسابه ، وكذلك فشلوا في تفهم المدى الذي ستمتد اليه يد القوة الجديدة في الاتحاد السوفيتي بأفكار جديدة تتنافى مع آرائهم المشتركة وتناقضها تماماً . واستمر تروتسكي في وصفه للستالينية كمركز للحزب مركز يترنح ويتقلب بين البروليتاريا الدولية اليسارية وبين الطرف المحافظ الشعبي الجديد اليميني . اما بوخارين فقد عكس قيمة هذا التحليل ولكنه شارك تروتسكي الرأي بان الستالينية لا تمثل أي أمر عقائدي . لا شك ان هذا التحليل صحيح اذا حكمنا عليه على صعيد الحدود اللبينية - الماركسية وعلى الاعتقادات والتحليل التي تشارك في التمسك بها كل من تروتسكي وبوخارين في النهاية . ولكن هذا لا يبدو صحيحاً أبداً اذا لاحظنا ان انقلاباً تاريخياً كاملاً آخذ بالتبلور ، انقلاباً لم يستطع مفكرو البلاشفة ان يأخذوه بعين الاعتبار او أن يروه كحقيقة بدأت ترى نور الحياة بقوة وعنف .

اعتقد تروتسكي انه بمحالفته العناصر المحافظة الجديدة في الريف تلك العناصر التي تعكس مصالحها برنامج الشيوعيين اليمينيين البوخارين فقد تشكل البيروقراطية الحزبية نواة لاستعادة الرأسمالية الخاصة . ولقد امضى تروتسكي بضع سنوات وهو يبحث عن دلائل مثل هذه الاستعادة . ولم يستطع ان يجد لها أثراً . وبالفعل كان النظام الجديد

يشدد على عدم الرجوع الى الرأسمالية الخاصة ، خاصة وقد جمع بين يديه السيطرة التامة على الدولة والمجتمع ، وبالحقيقة لم يملك هذا النظام ولم يستطع ان يمتلك أي عقار اذ انه بدلاً عن ذلك سيطر كلياً على الدولة التي كانت تهيمن على جميع الاملاك في البلاد بصفة شرعية فالرأسمالية الخاصة ستعني انتهاء سيطرة الحزب وَوَضْع حد للامتيازات التي كان يتمتع بها . اما الاشتراكية البيروقراطية فقد كانت « برأي الحزب » اساساً لتوسيع تلك السيطرة والامتيازات . واذن فقد كان من المناسب ، دون أي خرق او انتهاك للمبادئ ، بان يشكل حزبا المعارضة الرئيسيان كتلة واحدة لمقاومة البيروقراطية الجديدة حتى ولو أن هذا التحالف لن يؤدي الى تغيير سير الحوادث .

قُبيل سنة ١٩٢٩ ، كان ستالين قد عزّز سلطته . لقد سحق المعارضة اليسارية . واصبحت المعارضة اليمينية في حالة يأس وعجز تامين . وسيق الزعماء التروتسكيين الى المنفى أو رُجوا في السجون . وابتعد تروتسكي نفسه الى مجاهل روسيا الآسيوية وفي اوائل سنة ١٩٢٩ نُفي من البلاد . ونخيم على البلاد سكون رهيب وطاعة تامة طاعة بدت عميقة الجذور كما كانت ايام روسيا القديمة طاعة نعتبرها الآن فريدة تماماً طاعة تبررها العقائد الجديدة . وعندها بدأ عهد الارهاب .

الفصل الخامس : التجوال ، المنفى ، العمل

بدأت الآن سنوات تجوال تروتسكي . لم يعد هناك حشود لتتهافت له ولخطاباته الرائعة ولتشور ملتبهة لدى سماعها كلماته الثائرة . ولم يعد هناك جيوش تندفع بشكل بطولي الى تلبية اوامره ولا احزاب ليقودها نحو السيطرة . لقد طُرح المع شخص في الثورة الروسية في الحضيض ونعته الدكتاتور المستبد بانه هرطوقي (من أهل البدع) ثم بانه خائن واخيراً وفي محاكمات موسكو الصورية المميته حُكم على تروتسكي بانه متواطىء مع الفاشية .

وفي المنفى حيث اصبح تروتسكي بلا معين ويعاني كل انواع المزعجات لم يأل جهداً في تسجيل ونشر أفكاره متحدياً كل الصعوبات . واصبح الآن قلمه هو سلاحه الوحيد ، وبأله من يراع لاذع حاد فصيح ، قلم سجّل أفكاراً رائعة سنة ١٩٠٣ وسنة ١٩١٢ ، وعاد الآن الى قوته وسيرته الأولى . اما انصار تروتسكي فقسم منهم قد تحطم نهائياً وقسم آخر قد نفى الى المناطق القطبية الشمالية المتجمدة الى اماكن يستحيل الوصول اليها او الاتصال بها . ولم يبق من انصار ذلك الزعيم الباسل إلاّ شرذمة من الشباب غير الخبيرين والضعفاء الفاشلين . وحل بتروتسكي آلام شخصية لا تطاق ولكنه استمر منتصباً غير هيّاب غلصاً لآرائه في صدقها وزللها في صوابها وخبطلها خبط عشواء . فعلى حتى اولئك الذين يرفضون كل كلمة من كلماته ولا يجارونه في أي رأي عليهم ان يعترفوا بانه في سنواته العشر او الاثنتي عشرة الاخيرة قدم تروتسكي اعظم مثال لما يجب ان يكون عليه الرجل ، الرجل الحقيقي .

طرد من بلد الى آخر وفي كل وقت كان يجد فيه مكاناً كمتفى :
تركيا ، فرنسا ، النرويج ، واخيراً المكسيك كان الستالينيون والفاشيون
المحلين يقيمون الدنيا ويقعدونها ليطردوه من تلك البلاد . اذ ان مجرد
وجوده في بلد ما يثير مخاوف شتى مخاوف الثورات مخاوف من صميم
الاعماق . كانت تلك الحكومات تخضع للضغط الستاليني إلا انها لم
تؤمن أبداً بالدعاية الستالينية ، لقد آمنت تلك الحكومة إيماناً لا يعتوره أي
شك بان تروتسكي ظلّ ثائراً حقيقياً اذ ان روح الثورة قد اختلط بدمه
وعظمه .

هناك رواية ، كروايات شكسبير ، تظهر لنا ممارسات تروتسكي في
هذه السنوات القاسية ، ففي سنة ١٩٣٦ ، وهو منفي في النرويج الزمته
الحكومة الديموقراطية الاشتراكية بان يلازم مسكنه في نفس الوقت الذي
كان يحاكم فيه في موسكو « كعميل فاشي » عندما اعلن وزير العدل
النرويجي باصرار بانه لا يسمح لتروتسكي ان يرد على هذه المحاكمة وان
يقدم جميع كتاباته وتحاريره الى المراقبة - والجدير بالذكر هنا ان وزير العدل
هذا (تركفي لي) هو زعيم ديموقراطي اشتراكي بارز وقد اصبح في ما بعد
سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة - ولا شك ان طلباً كهذا كان قد يؤدي الى
انتحار تروتسكي سياسياً وان الأمر لا يعدو كونه ضحكاً سياسياً من الاتحاد
السوفييتي . وارتفع صوت تروتسكي بلهجة ملؤها السخرية والاشمئزاز
وأجاب « لي » قائلاً « هذا يدل على اول استسلام الى النازية في بلادكم
وانك ستدفع الثمن غالياً . انك تعتقد انه بمقدورك ان تعامل منفياً سياسياً
كما تشاء ولكن اليوم قريب - لا تفعل هذا الأمر يغرب عن بالك - قريباً

سيحين اليوم الذي سيطردكم فيه النازيون من بلادكم - يطردونكم كلكم .

وهزّ لي « كفيه دون مبالاة . فقد كان يمتلك القوة اما تروتسكي فكان لا حول له ولا قوة . واسمعوا ما يقوله دوتشر مكملًا الرواية :

بعد أقل من اربع سنوات فُرت تلك الحكومة نفسها من الترويع في وجه الغزو النازي ، وبينما كان الوزراء مع ملكهم المُسنّ يقفون على الشاطئ يزحم الواحد الآخر منتظرين قارباً يحملهم الى انكلترا تذكروا جميعاً كلمات تروتسكي وكأنها كلمات نبي وكلعنة قد تحققت .

وطيلة هذه السنوات عاش تروتسكي وهو يشعر انه في خطر مستمر ومعرض دوماً للاغتيال ، لذا فقد كان يحيط بمسكنه حرس مسلح بصورة مستمرة لقد اغتاز تروتسكي من هذه القيود اذ انه كان يصبو الى حرية الحركة ، وخاصة لما تمتع به من حيوية وصحة جيدة ، أحب صيد السمك على السواحل التركية وجمع الصبّارة (كائنات) في المكسيك . ولا شك انه لم يرغب عن باله أبداً بانه لا مجال للدفاع عن النفس أمام (الجستابو) البوليس السري الروسي . وفي المكسيك وقبل ان يقتل تروتسكي ، نظم الرسّام الشيوعي الموهوب ديفيد سيكويرس ، غارة ارهابية على بيت تروتسكي وفي اوروبا اغتيل عدد من مشايخي تروتسكي السياسيين على يد عملاء الجستابو .

ولم يكتف الكرملين بتوجيه ضرباته الانتقامية نحو تروتسكي نفسه اولم يديه واتباعه الشيطيين بل ايضاً أخذ يكيل الضربات لأفراد عائلة تروتسكي سواء كانوا يعملون في السياسة اولا يعملون . فزوجته الأولى

الكسندرا سوكونفسكايا بقيت معارضة بعناد وبالرغم من كبر سنها فأبعدت الى منفى قاصر حيث وافتها المنية . وقد كانت نهاية بنتيه من الكسندرا ايضاً نهاية فاجعة . فقد أرهقهما النظام الستاليني في موسكو لدرجة لا تطاق . نُفي زوجها المعارضان الباسلان الى مجاهل سيبيريا . وماتت احدى بنتيه المسماة نينا بمرض عضال بينما كان تروتسكي في تركيا . اما الأخرى زينيدا ، فكانت امرأة ممتلئة الجسم وقد امضت بعض الوقت مع ابيها في تركيا ولكن حدثت بينهما اشتباكات حادة بسبب سرعة تهيجها واصبح جلياً بانها في حالة سايكولوجية (نفسية) في منتهى الخطورة .

ذهبت زينيدا الى برلين حيث عاشت في حالة حرمان وفقر مدقع مما أدى بها الى الانتحار سنة ١٩٣٣ ، وعندها ارسلت والدتها رسالة حزينة من لينينغراد الى تروتسكي قالت فيها : لقد شرحت لزينيدا ان كل ما حصل سببه خلقك ، اذ انك تجد من الصعب عليك ان تظهر شعورك عندما تودّ ان تظهره . وازافت « لقد كان مصير ابنتينا محتوما » .

أما الابن الاصغر لتروتسكي من زوجته الثانية والمسمى سيرج ، فقد كان عالماً إلاّ انه من حيث المبدأ بقي مخلصاً لوالده . وفي سنة ١٩٣٧ ، القي عليه القبض واتهم بمحاولة تسميم جماي للعمال ، في ذلك الوقت لم يكن هناك ما يسمى امر غير معقول وارسل سيرج الى غيم للعمل في فوركوتا في المنطقة القطبية الشمالية ومع انه ما زال يرفض ان ينضم الى أي حزب سياسي إلاّ انه شارك التروتسكيين في اضراب عن الطعام ثم اعيد الى موسكو حيث بكل عناد رفض بان يحدد اياه.رغم جميع محاولات الجستابو وفي أواخر سنة ١٩٣٠ ، اطلقت النار على هذا الشاب الظريف فأردته قتيلاً .

أما ليون سيدق ، الابن الثاني لتروتسكي من زوجته الثانية فقد اتبع بكل دقة خطوات أبيه السياسية ، عمل كناطق باسم المعارضة في أوروبا ، ونشر جريدة المعارضة باللغة الروسية متحملاً عبء النضال رغم انه كان خالي الوفاض لا يملك نقوداً ويعمل في شتى المجالات وحيداً خاصة وان والده كان يطالبه باستمرار ببذل جهود أكثر في الكشف عن محاسنات موسكو ونشر القضية السياسية المشتركة بينهما . وفي سنة ١٩٥٨ ، مات سيدوق في ظروف غريبة في مستشفى في باريس وله من العمر اثنتان وثلاثون سنة . وقد ارتاب اصدقائه بالجلستابو . أما الوالد الحزين فقد بدت عليه الشيخوخة فجأة وبعد ان اغلق ابواب منزله عدة ايام ليندب ولده هو وزوجته عاد وتناول قلمه - لم يكن هناك بديل آخر - وسجل ندبة عبّرت عن آلامه المبرحة لفقد هذا الابن قال : كان جزءاً منا ، الجزء الشاب النضر ، لقد مات بموته كل ما هو شاب فينا وانتهى كل ما هو فتى فينا أوّاه اننا لم نستطع انقاذك .

وفوق هذه العائلة البائسة حلّقت زوجة تروتسكي الثانية ناناليا ، تلك الزوجة الحلوة الصالحة من سلالة بطلات تورجنيف ، هذه المرأة الطيبة التي ربطت افراد العائلة البائسة برباط المحبة والوداد وكثيراً ما عملت كوسيط بين اعضاء العائلة المتوترين الاعصاب ، هذه المرأة الصالحة لم تكن لتهتم بمظاهر السلطة في روسيا لأنها فضّلت ان تشغل نفسها بالأمور الثقافية هذه المرأة كان عليها الآن ان تتحمل آلام النفى بقوة احتمال تكاد لا تصدق . كانت علاقاتها مع زوجها لطيفة لينة وباحترام متبادل .

وفي مذكراته وهو في النفى كتب تروتسكي يقول بانه قد قرأ السيرة

الشخصية لبروتوب افاكيوم ، وهو هرطوقي مسيحي عاش في القرن السابع عشر وقد عانى مع زوجته اصنافاً من الاضطهاد والمرض والجوع والنفي .

وأضاف تروتسكي :

وأنا اتذكر الضربات التي حلت بنا ذكرت ناتاليا بحياة رئيس القساوسة افاكيوم . كان يهيم مع زوجته في سيبيريا وكلاهما ثائر تخلص لثورته ، غارت ارجلها في الثلوج وسقطت الزوجة المسكينة مراراً في حفر الثلج ويروي لنا افاكيوم الحادث فيقول : كنت اقترّب منها لاساعدها وهي تنظر الي نظرة تأنيب وعتاب « متى سينتهي هذا العذاب يا رئيس القساوسة ؟ فأجبتها « يا ماركوفنا حتى نوارى التراب » فتهتدت وقالت فليكن ، ولنواصل سيرنا يا بتزوفتش .

خلال كل هذه السنين لم يتوقف ستالين وبوليسه السري عن هجماتهم واغتيالاتهم .

ولم يتوقف عملاء الجستابو عن ملاحقة تروتسكي وتتبع حركاته حتى ولا لحظة وكان انجحهم واقتسامهم المسمى مارك زوروروسكي ، الذي تمكن بداهاته وشدة حيلته ان يحظى بثقة تروتسكي التامة وقد انتحل لنفسه اسم إتيان .

بعد سنين رحّب المجتمع الاكاديمي الامريكي بهذا الرجل النافه كمؤلف مساعد لدراسة علمية انتروبولوجية (علم الانسان) خاصة لما

يختص بشرق أوروبا في تلك الفترة . وتسربت الاخبار من أوروبا عن المعاملة الوضيعة والتحقير الشنيع الذي عومل به الزملاء السوفييت العظام امثال بريشبرازينسكي وسملكا وبياتاكوف وركوفسكي . اما في ما يختص بمصير التروتسكيين الذين لم يستسلموا ولم يخضعوا للنظام الستاليني والذين ما زالوا يعيشون في المنطقة القطبية الشمالية فانهم قاموا باضراب عن الطعام دام لمدة ١٣٢ يوماً وتبع ذلك اعدام جماعي - هذه المعلومات لم تكن معروفة تماماً اثناء حياة تروتسكي .

بقلمه اللاذع المتكبر وقد نفّض عنه احزانه وآلامه الشخصية عاد الى عمله المنظم واستمر بتسجيل افكاره وتحاليله عن النظام (التوتاليتاري) المستبد في روسيا ويكشف (لعالم لم يصدق او بالاحرى لم يُرد التصديق) الارهاب الذي كان ستالين يسلطه على رؤوس الملايين من الشعب العاجز . ما من شك ان الزمن يمحو الذكريات ، لقد غطت التبريرات والمعاذير على العار الذي وصم هذه الفترة . وعلينا الآن ان نتذكر بان جزءاً كبيراً من الاحرار الغربيين والمثقفين الراديكاليين أخذوا يهللون لحكمة وانسانية ستالين ودكتاتوريته ، ولم يعترف بعض اولئك الناس بصدق مآسي محاكمات موسكو حتى كشف عنها في النهاية خروشتشيف ، سنة ١٩٥٦ ، وصدقوا ذلك لأن خروشتشيف نفسه هو الذي كشف عن ذلك . خلال الثلاثينات من القرن العشرين وقف تروتسكي وحيداً مشيراً الى الحقائق المتعلقة بنظام ستالين وانها لحقائق بالفعل .

تتبع تروتسكي خطوة خطوة تحوّل الدكتاتورية الستالينية الى دولة إستبدادية (توتاليتارية) وفضح السياسات الاقتصادية التي بالغ فيها النظام في سبيل استغلال الجماهير على حساب الجنون التصنيعي ،

واستشهد وهو يصف الستالينية بشواهد من الثورة الفرنسية واستغرب تصرفات الاحرار الذين بدأوا يمجدون الاتحاد السوفيتي بعد أن رزح تحت الحكم التوتاليتاري (المستبد) . مراراً وتكراراً اتهم تروتسكي بالمبالغة والحقد والضعينة ونشرت مجلات الاحرار الاسبوعية مناقشات مبهمة على صعيد « الاسباب السايكلوجية (النفسية) » التي تكمن وراء حملات تروتسكي . ولكن يكاد يكون كل ما كتبه تروتسكي حقيقياً وواقعياً كما كُشف عنه في الاتحاد السوفيتي بعد وفات ستالين .

وعندما نشر تروتسكي سنة ١٩٣٧ ، مقالته بعنوان « ثيرميدور ومناهضة السامية » التي اتهم فيها النظام الستاليني باضطهاد السامية بصورة خفية مستورة شعر بعض اتباعه (اتباع ستالين) بنوع من القلق واخذوا يتساءلون : ألم يتطرف هذا العجوز اكثر من اللازم ؟ ولكن بعد ان كُشف عن الحقائق ظهر بانه لم يُقل الكفاية .

إن الرجل الذي يبرز في هذه السنوات العشر او الاثني عشرة هو شخصية كلها عظمة ، رجل عظيم بشجاعته الشخصية وسمو ثقافته المدهشة ، انما يؤخذ عليه احياناً عناده واعتداده بنفسه وعدم امعانه النظر في فرضياته التي واجه بها بكل شدة وعنف اخصامه السياسيين . يعتبر تروتسكي الآن شخصية انسانية اكثر من اللازم وكثيراً ما كان يبدو عصيباً ومعرضاً لموارض نفسية جسدية . وكانت اعماله متميزة بفترات من العمل المضني الشاق الشرس وفترات اخرى كلها كسل وانكماش وكان تروتسكي يشعر بالذنب في ما يتعلق بأولاده اذ انهم جميعاً قد ضحوا بحياتهم في نضالهم السياسي بطريقة ما وكان اخشى ما يخشاه ان يفارق الحياة دون أن يُنهى واجبه الثوري وقد قهره عدم التناسب بين ابعاد نظره

السياسي وحقارة وسائله السياسية وقد ادرك سرعة مرور الزمن وأسف لذلك قال في مذكراته « إن الشيخوخة هي أسوأ شيء يتوقعه الانسان » ولكنه يستمر بالعمل دون أي فتور . وكان يتوقف عن كتابة « ذروة اعماله الفذة » سيرة لينين التي لم يكملها بعد والتي تعتبر متوجة لكل ما كتب ، كان يتوقف عن متابعة سردا عندما يرى ان ذلك ضروري ويلتفت الى مجادلة ومحاورة رفقاءه المنشقين ومجيباً على حملات موسكو ويؤلف كتباً لتموين بيته . وبعد ان تحرر من عبء الوظيفة اصبح ثانية ذلك الرجل الالمعي المبدع في التحاليل والمؤرخ والأديب . ويكتب الآن وهو مرجع للبيان وبلاغة التراكييب والتشبيهات هذه الالمية التي تضعه في طليعة كتاب عصره واضف الى ذلك ان انتاجه كان عظيماً . ربما ان مواهب كالتى تمتع بها تروتسكي لم تشع بكل لمعانها اروع منها وهو يسجل ملاحظاته على قيام النازية في الثلاثينات من القرن العشرين . تتألف هذه الملاحظات من مقالات وكراريس كتبها بسرعة وهو في المنفى : ليس هناك جهود كبيرة في تحرير مسائل نظرية ، من جهة واحدة لأن هدف تروتسكي الرئيسي كان تقديم ارشاد تكتيكي لمنع انتصار هتلر ومن جهة أخرى لأن هذه الظاهرة أي النازية ما زالت جديدة . ولكن اعماله الرائعة في هذه الفترة تحتوي بين طياتها على معظم العناصر التي كانت النازية في حاجة اليها : مثل « المانيا ، مفتاح الوضع الدولي » سنة ١٩٣١ ، « ماذا بعد هذا ؟ » سنة ١٩٣١ ، « الطريق الوحيدة » سنة ١٩٣٢ ، و « ما هي الاشتراكية القومية ؟ » سنة ١٩٣٣ .

يعزو الكتاب الذين جازوا بعد تروتسكي له كل الفضل لاصراره بانه لا يمكن توقيف هتلر عند حده الا بواسطة جبهة يسارية متحدة . ولكن بما

ان هذه الافكار والتحليل لم تسجل وتشر الا قبل ما انكشف الوضع
التهلري بعد تسلمه زمام السلطة اضيف الى ذلك ان هذه الدراسات كانت
مبعثرة هنا وهناك في مختلف المقالات والكراريس ولذلك لم يعترف له
الكتاب حينذاك بالمهارة التي تمكن فيها من الكشف عن النازية
وجذورها .

عزا تروتسكي قيام النازية الى أزمة تراكم رأس المال وليس فقط
بسبب اضطرابات تحدث دَوْرِيًّا . يعني هذا الانهيار أن الرأسمالية لا
يمكنها ان تبقى حَيَّة إلا اذا تخلت عن رفاهية الديمقراطية البرلمانية وسلمت
مصيرها السياسي الى الفاشيين . . اذ من الحقائق المسلم بها ان الربح
الاقتصادي يرافقه دائماً خسارة سياسية أي ان تعزيز وتقوية ملكية
اصحاب رؤوس الأموال يرافقه دائماً تراجع البرجوازية ولكن الفاشية
تمثل أمراً يختلف اختلافاً جذرياً عن الدول البوليسية التقليدية أو
الدكتاتورية انها حركة جماهيرية تستمد قوتها من الشعب المهمل الساخط
وهكذا تخلق ظروفاً من الرعب يسفر عنها تدمير كامل لمنظمات الطبقة
الكادحة كما وانها تحطم جميع مراكز المقاومة الاجتماعية والاستقلال
السياسي ، كل هذا بعد ان تستلم الفاشية زمام السلطة . تستمد هذه
الحركة الجماهيرية التأييد في البدء من الطبقة الوسطى السفلى او البرجوازية
الضعيفة المدفوعة الى اليأس بسبب التضخم والغلاء وبسبب البطالة
والافلاس وعدم الاستقرار الاجتماعي « ان الطبقة البرجوازية الضعيفة
سبق واتخذت موقفاً معادياً لحكم رأسمالية النظام الحالي ولكنها في نفس
الوقت معادية عداء مُمْتَدٍّ للثورة البروليتارية » ، وانتصار الفاشية كحركة
جماهيرية تعني فشل الطبقة العاملة باستلام زمام المبادرة السياسية إذ بهذا

تستطيع ان تحل الأزمة الاجتماعية .

اعتقد ان مؤيدي الفاشية الآخرين ، الماركسيين وغير الماركسيين يقبلون بهذا التحليل . اما الاختلافات فانها تبرز عندما تتسلم الهتلرية زمام السلطة . وهل تستمر الشركات البرجوازية الكبيرة ، كمجمع شركات « كروب » مثلاً في المحافظة على نفوذ اقتصادي اجتماعي حاسم رغم أن ممثليها قد حُرِّموا من السلطة السياسية المباشرة ؟ أو هل يَستَمد هذا النظام الجديد « صفة مستقلة » كدولة توتاليتارية عَهد اليها القيام بالتوسع والسير قُدماً مازجة الرعب مع العقائد بالنيابة عن سلطة ديناميكية تقرر مصيرها بنفسها ؟ لم يقبل تروتسكي ابدأ فكرة الماركسيين المبتدلة بان الهتلرية ما هي إلا « دكتاتورية بورجوازية عارية » ولكن تروتسكي كان يميل للاعتقاد بان امتزاجاً متبادلاً بين البورجوازية التقليدية الكبيرة وبين البيروقراطية النازية الحديثة سيحدث عندما تتسلم الهتلرية زمام السلطة ويُسفر عن ذلك ليس مجرد استقرار في الاقتصاد الرأسمالي ولكن أيضاً على الأقل تثبيت جزئي لسلطة البرجوازيين السياسية . وليس هنا أي شك بان الاقتصاد الرأسمالي قد لاقى انتعاشاً وازدهاراً تحت حكم هتلر ، اما مشكلة المشاكل فهي ماهية العلاقات على صعيد الحكم التي كانت بين البرجوازيين الكبار والنخبة النازية . على كل حال فان تروتسكي لم يعيش ليُسبِّر غور هذا التساؤل بدقة او ان يختره على ضوء التطور الداخلي للنازية في المانيا خلال الحرب العالمية الثانية .

لقد قدمت لكم فكرة مجردة عن بحوث تروتسكي في ما يختص بالنازية ولكن علي ان اذكر هنا ان ثروته التحليلية تكمن في وصفه

وتوقعاته : اسمعوه يتحدث سنة ١٩٣١ ، عن احتمالات الارهاب النازي :

انّ ما يعنيه تسلم الاشتراكية القومية (النازية) زمام السلطة هو في الدرجة الاولى القضاء كليا على زهرة البروليتارية الالمانية ، فاذا نظرنا بعين الاعتبار الى نزوج وحادّة التناقضات الاشتراكية في المانيا لبدا لنا العمل الجهنمي للفاشية في ايطاليا كتجربة رحيمة لطيفة اذا قيست بعمل الاشتراكية القومية الالمانية (النازية) .

واليكم وصفة لدور البرجوازية الضئيلة سنة ١٩٣٢ ، قال :

ان الفاشية ترفع الطبقات التي هي أعلى من البروليتاريا لتقف على اقدامها ولا تخشى بان تجبر الى خفض درجتها لتصل الى طبقة البروليتاريا . وتنظم الفاشية هذه الطبقات وتدرجها عسكرياً على حساب اموال هذه الطبقات وتحت غطاء الحكومة الرسمية فالفاشية ليست مجرد نظام انتقامات وقوة وحشية وارهاب بوليسي . الفاشية نظام فاشي خاص يرتكز على اجتثاث عناصر الديمقراطية البروليتارية من جذورها داخل المجتمع البرجوازي .

وفيما يلي يلتفت سنة ١٩٣٣ ، الى دور الفوهرر عندما بدأ مسلكه السياسي برز هتلر امام الملا بسبب مزاجه العظيم وصوته العالي اكثر من اصوات الآخرين وحالة ثقافية متوسطة واعتداد بالنفس الى ابعد حد . انه لم يُعِدْ لحركته أي برنامج ، فاذا اعمل انسان ظمأ جندي مهان الى الانتقام ، فهناك العديد من الناس المدمرين الغارقين والذين ما زالت جراحهم ورضوضهم تسبب لهم آلاما مبرحة وكل منهم يؤد ان يدوي

بقبضته على الطاولة . على ان هتلر استطاع ان يقوم بهذا العمل أفضل من الآخرين . وبالحقيقة لم يعرف ابداً كيف يعالج الشر ولكن ترددت اصدااء خطبه هنا وهناك طوراً وكأنها أوامر وطارة كأنها صلوات موجهة الى المصير المجهول القاسي شبيها بمرضى لا رجاء لهم بالشفاء ، مرضى لا يتعبون من التقدم بمختلف الشكايات ولا يملّون من سماع المؤاساة . كانت جميع حُطَب هتلر تضرب على هذه الانغام ، بلا أي شكل حسي ، ومع غياب أي فكر منظم وجهل عظيم مصحوب ببراعة مزخرفة ، وحفاً لقد تحولت كل هذه الحالات السالبة الى ايجابيات .

وانصتوا الى ما قاله بكل بلاغة على صعيد الميزات العامة للفاشية
قال :

لقد فتحت الفاشية أعماق المجتمع للسياسة واليوم وفي القرن العشرين يسكن ليس فقط في بيوت الفلاحين ولكن ايضا داخل ناطحات السحاب شعب يعيش حياة مناسبة مع هذا القرن وشعب آخر ما زال يعيش في القرن العاشر او الثالث عشر .

يستخدم الملايين من الناس الكهرباء ولكنهم ما زالوا يؤمنون بالقوة السحرية للإشارات والتعاويد . ويذيع بابا روما بواسطة الاذاعة عن تحويل الماء العجيب الى خمر والملاحون الجويون الذين يطيرون بماكينات عجيبة إبتدعتها عبقرية الانسان ، يعلقون فوق كتراتهم الصوف تمائم لتحفظهم سالمين . يا لها من احتياطات تدل على الجهل والظلام والمهمجية . اوقفهم اليأس على اقدامهم ومنحتهم الفاشية علماً . وكلما كان من اللازم ان يُحى من النظام القومي بشكل براز ثقافي خلال التطور

الاعتيادي للمجتمع خرج الآن متدفقاً من حلوقهم .

والآن بدأ المجتمع الرأسمالي يتقياً الحالة البربرية التي لم يستطع هضمها . وهذه كما اعتقد هي السيكولوجية النازية . ولم يكن هدف تروتسكي الرئيسي في ما كتبه ان يقدم نظرية كاملة تامة للفاشية ولكنه استهدف الجناح الالمانى اليساري الى عمل موحد . وباستهزاء ملتهب - لم يكن ليصبر على الاغبياء - هاجم سياسة الشيوعيين الالمان غير المعقولة الذين اخذوا يعلنون في « فترتهم الثالثة » فوق اليسارية « بان الديمقراطية الاشتراكيين ما هم إلا « فاشيين اشتراكيين » يمثلون خطراً اكبر بكثير من النازية : اما تروتسكي فكان دائماً يؤكد على ما هو واضح وبسيط : وذلك بانه لا يمكن ان يوقف هتلر عند حدّه إلا جبهة موحدة من الشيوعيين والديموقراطيين الاشتراكيين « سيروا منفردين واضربوا مجتمعين » . وقد كرس تروتسكي بعض الصفحات اللاذعة الى ما يسمى « الاستفتاء الاحمر » ، التكتيك الانتحاري الذي اسفر عنه انضمام شيوعيي بروسيا الى النازيين سنة ١٩٣١ ، للاطاحة بحكومة محافظّة ديموقراطية اشتراكية . ويسجل تروتسكي ملاحظة بعزم قوي وفراغ صبر ملتهب ويقول : كيف يمكن ان يكون الشيوعيون الالمان قد وصلوا الى هذه الدرجة من العمى ؟ ألا يستطيعون ان يروا ان هتلر بعد ان يستلم زمام السلطة سيدمر كل احزاب الجناح اليساري ؟ وفي مقالة كتبها في كانون اول سنة ١٩٣١ ، عنوانها : « الى جبهة متحدة عمالية يسارية » تدفقت كلماته الراعدة : لم يبق إلا وقت قليل ، ما زلتهم قادرين على احياء صفوف العمال الالمان ودفعهم الى عمل موحد لا يقصاف العريضة النازية ووضع حد لها قال :

اسمحوا لي ان اقدم مثلاً آخر يفهمه ضعاف العقول : عندما يضع
أحد اعدائي امامي اجزاء صغيرة من السم يومياً ومن الجهة الاخرى أرى
عدواً آخر يحمل مسدساً ليطلق علي النار فان اول ما افعله هو ان أُطَيِّرَ
المسدس من يد عدوي الذي يريد قتلي وبهذا تسنح لي الفرصة لأتخلص
من عدوي الأول ولكن هذا لا يعني ابدأ بأن السم « أقل شراً » اذا قورن
بالمسدس .

وبعبارات تكمن فيها النبوة موجهة مباشرة الى محاربي جبهة اليسار
قال :

« ايها الشيوعيون العمال ، انتم مثاثات السوف ، ملايين ، ولا
تستطيعون ان ترحلوا الى أي مكان ، لا يوجد جوازات سفر كافية لكم .
واذا حدث وتسلمت الفاشية زمام السلطة فسنركب على جماجمكم
واعمدتكم الفقارية وكأنكم دبابات . اما خلاصكم فلن تحصلوا عليه إلا
بواسطة نضال لا رحمة فيه ولا هوادة ، وبواسطة المحادكم مع العمال
الديمقراطيين الاشتراكيين يمكنكم ان تحققوا النصر . اسرعوا . ايها
الشيوعيون العمال ، لم يعد امامكم الا وقت قصير» .

وفي سنة ١٩٣٢ ، وبعد ان ركز تروتسكي على الحقائق السابقة بكل
قوته شعر بفراغ الصبر وأخذ الكلام يتدفق منه كالسيل وهو يقول : وماذا
بعد ؟ وهي نهاية لأذعة تعزى الى اساطير يوسف ، قال تروتسكي :

مرة ساق تاجر من تجار الماشية ثيرانه الى المسلخ وجاء اللحم بسكينه
الحادة .

اقترح احد الثيران وقال « فلنجمع صفوفنا ولنرفع هذا الجلاد على قرونا » فأجاب الثيران « وهل تعتقد ان هذا اللحم شر من التاجر الذي ساقنا الى هذا المكان بهرلوته ؟ » هذا مع العلم ان اولئك الثيران قد نالوا ثقافتهم السياسية في معهد مانويلسكي ، (سكرتير الكونتينر ، تحت امرة ستالين) ، وقال الثور : ولكننا نستطيع ان نتدبر أمر التاجر ايضاً فيما بعد . وأجاب الثيران مشددين على مبدئهم « انك تحاول ان تحمي أعداءنا من اليسار ، انك لحام اشتراكي بالتأكيد » ورفضوا ان يضموا صفوفهم . لو أُنشِئت نصيحة تروتسكي لكان العالم قد أُنقذ من بعض احوال الرعب التي حدثت في هذا القرن الذي نعيش فيه . وعلى الأقل كان العمال الالمان سيحملون السلاح ويخوضون المعركة بدلا من ان يسمحوا للسفاحين النازيين بان يتسلموا زمام السلطة دون أي مقاومة ولكن لم يكثرث احد لأقوال تروتسكي . ولم تكد تصل كراسته وسيول مقالاته لأكثر من جناح العامة الاكبر .

ومع ان حوار المضاو لنظرية « الفاشية الاشتراكية » كان قويا مدمرا فقد بقيت هناك مشكلة أخرى . . يتساءل المرء كيف يمكن للحركة الشيوعية حتى وفي شكلها الستاليني المنحط ، ان تقدم نظرية ليست غريبة الشكل فحسب ولكنها تدل ايضاً على التطرف الجنوني على صعيد نتائجها الواضحة ؟ قل ما تريد عن الديموقراطيين الاشتراكيين . نكرات للبرجوازيين . اذمّمهم بلقب العار خونة قل ما تريد . ومع ذلك فلا يمكن لأي انسان ان يصدق بان الشيوعيين الالمان قد فشلوا في رؤية الخطر الداهم الذي جاءهم مع النازية . وهناك تفسير مقبول واحد رغم انه غير كاف وهو انه أخذ يتشكل داخل الاتحاد السوفيتي اسوأ انواع تحويل

الممتلكات الى مشاع بصورة اجبارية للجميع ولا شك بان هذا نوع من الحروب الاهلية تُشنها الدولة ضد الشعب ، ومن الطبيعي ان يرافق هذا سياسة دولية فوق يسارية . . ومع ذلك فقد بقي الشيوعيون الالمان يعرضون رؤوسهم للخطر بسبب نظرية « الفاشية الاشتراكية » لماذا هذا ؟

ليس هناك جواب سهل عن هذا التساؤل خاصة عندما نعترف ان جميع النظريات السياسية تجعلنا نفشل في تقدير دور البلادة البشرية . ومع ذلك فخري بنا ان نحاول التمعن للاجابة . واسمحوا لي ان اتقدم برأي ولكن بكل حذر فأقول يبدو لي ولو بطريقة مشوهة ان نظرية « الفاشية الاشتراكية » لها علاقة خفية بجزء من البلشفية التي فضل تروتسكي ان لا يبحث فيه . اتصال البلاشفة بالبعثة التاريخية الفريدة « لحزب الطليعة » واحتلال مركزه (أي مركز البلاشفة انفسهم) ثم اصرار البلاشفة بكون الاحزاب المتنافسة داخل الحزب لم يكن خطأ فحسب انما ايضاً كان عنصراً معادياً لمصالح كل الطبقة الحزبية ، وتمسك البلاشفة بعملية « تنظيف الساحة » من الفشات اليسارية المنافسة - كل هذه الامور للسياسة التي تدل على السيطرة الفردية كان لها على ما اظن نوع من التوسّع في نظرية « الفاشية الاشتراكية » .

ويجدر بي ان اذكر هنا انه لو كان لينين حياً لاعتبر نظرية « الفاشية الاشتراكية » ليس اكثر من سخافة شريرة وليس هناك أي شك بان الزعماء البلاشفة الذين يرزحون الآن تحت الارهاب الستاليني يعتبرونها كذلك ولو بصورة سرّية . ولكنني اريد ان أؤكد هنا انها سخافة قد ساهموا هم

انفسهم في وضع بذورها في تربة عجرتهم الاستبدادية . فعلاقة النظرية « الفاشية الاشتراكية » بالطلیعة البلشفية ألا يشبه هذا ، ولو بعض الشبه ، علاقة سماردياكوف ، یايفان كارامازوف ؟ .

لقد بدا لتروتسكي ان فشل كل من الديموقراطية الاشتراكية والشيوعيين في مقاومة محاولة هتلر تسلّم السلطة يُعتبر أمراً بالغ الأهمية . لقد دل ذلك على الافلاس المطلق النهائي لكل من الاحزاب المصلحة التقليدية بالاضافة الى الستالينية اذ لم تر هذه الاحزاب أية روح مستعدة للحرب ليس للقيام بثورة فقط وانما لمجرد البقاء رغم ان هذه الاحزاب كانت تتمتع بتأييد اكثر من اثني عشر مليوناً من الاصوات في المانيا . واستنتج تروتسكي بانه قد حان الوقت على الصعيد الدولي للبدء بتأليف ماركسية جديدة ولو بعدد ضئيل كنقطة انطلاق باسم الماركسية الدولية الرابعة . لقد امتصّت هذه المغامرة السيئة الحظ معظم نشاطاته السياسية خلال ما تبقى له من سني العمر . وعندما أخذ يعلق على الاضطرابات السياسية التي وقعت في فرنسا واسبانيا خلال اواسط الثلاثينات من القرن العشرين لم يكتب كناقذ معارض من داخل الحركة الشيوعية ولكن كزعيم لحركة سياسية جديدة محاولاً ان ينلّي حركته الجديدة ليصبح في وسعها القيام بثورة .

لقد اظهر تروتسكي في الكراريس التي نشرها مثل « اين هي فرنسا ؟ » وفي المقالات الكثيرة عن اسبانيا اظهر كعادته قوته ومهارته في التحليل وصلابته العقائدية كماركسي . اما المقالات عن اسبانيا فاستهدف فيها سبرغور الصعوبات التي كانت تواجه تعصير دولة خاملة خاملة ،

صعوبات لم تكن لتتخفى على ماركسي روسي . وشدد تروتسكي ، من جهة ، على القوة الحربية المحلية لطبقة العمال الاسبانية (تلك الطبقة التي كانت تتمتع بتقاليد فوضوية قوية) ومن الجهة الاخرى شدد على تخلف البرجوازية الاسبانية التي كيانة عمها البرجوازية الروسية قبل شهر اكتوبر تقف في سبيل كل اجراء يهدف الى الاصلاح او حتى الى الاقتصاد الديناميكي وذلك بسبب جُبْنها الاجتماعي وجشعها . وهكذا فان البلاد سترغم في احضان أزمة اجتماعية رئيسية وعندها لا ترى القوى المسيطرة أي حل الا بالفاشية . اما على صعيد الحرب الاهلية الاسبانية فلم يكتب تروتسكي ياسهاب واقتصر عمله على سلسلة من المقاطع القصيرة والرسائل والمقابلات . وقد كتب يقول « ان ما حدث في اسبانيا ليس فقط ثورة مناهضة للفاشية ، انما ما يحدث في نفس الوقت هو بدء ثورة اجتماعية داخل المخيم الموالي للحكومة : كنزاع ملكية الأرض بواسطة الفلاحين وسيطرة العمال على المصانع وخاصة في كاتالونيا ولكي ينجح النضال المسلح ضد فرانكو كان لا بد من دفع العمل النضالي العمالي الى ذروة كماله وبهذا يلبي طلبات الجماهير ويشير حماسهم وفي نفس الوقت يدمر التأييد السياسي لفرانكو . وجدير بالذكر هنا ان بعض الجنود كانوا من صفوفه الجنود المغاربة في الجيش الفاشي واذا عُمِّم طلب ، يقول تروتسكي لتحرير المغرب الاسباني - وهو ما كان لا يرضاه الشعب حينئذ - فيصبح بالامكان حصول ارتداد على صعيد الجماهير ومن الجلي ان ما كان يدور في خلد تروتسكي ان ما هو واضح في الوضع الاسباني هو نموذج عما حصل في ثورة اكتوبر . سنة ١٩٣٧ مثلا ، كتب تروتسكي يقول :

في اسبانيا دوت اصوات الستالينيين عالياً متزعمين الجماهير وقدموا صيغة تبنّاها وتمسك بها كالبالرو ، الفاشي رئيس مجلس الوزراء الا وهي اولاً الانتصار العسكري ومن ثم الاصلاح الاجتماعي . اما انا (تروتسكي) فاعتقد ان هذه الصيغة ميمّة للثورة الاسبانية ، فانا لا ارى الفرق الجدري بين البرنامجين (الفاشي والجمهوري) ففوق كل شيء سيقع الفلاحون وهم الطبقة الكادحة في اختلافات جمّة . في هذه الظروف لا بد ان تنصر الفاشية لان الفاشيين يتمتعون بتأييد عسكري . ومثل الاصلاحات الاجتماعية الجريئة اقوى سلاح في الحرب الاهلية كما وان ذلك يعتبر شرطاً اساسياً للانتصار على الفاشية » .

وبعد بعض الوقت نجيبا عن اسئلة تتعلق بمرافعات مكسيكوسيتي ، في ما يختص بمحاكمات موسكو قدم تروتسكي نفس وجهات النظر قال :

ان الطريقة الوحيدة المثلى لتأكيد الانتصار في اسبانيا هي ان نقول للفلاحين : « ان التربة الاسبانية هي تربتكم » وان نقول للعالم « ان المصانع الاسبانية هي مصانعكم ومن الضروري ان تحاربوا ولكن كما تعرفون ليس بكافد ان نحارب بالبندقية من الضروري ان نمتلك افكارا وان نمررها للاخرين لكي نستعد للمستقبل . يمكنني ان احارب يدا بيد مع الفلاح البسيط . ولكنه لا يفهم الا الشيء القليل عن الوضع . فعليّ اذن ان اقدم له الشرح اللازم . يجب ان اقول « انك على حق في حربكم ضد فرانكو ، اذ علينا ان نقضي على الفاشية قضاء مبرماً ولكن ليس لكي نحصل على نفس اسبانيا التي كانت قبل الحرب لأن فرانكو خرج من اسبانيا تلك . علينا ان نقضي على جذور واساسات فرانكو ، وعلى

الاساسات الاجتماعية لفرانكو اذ انها ليست إلا النظام الرأسمالي الاجتماعي .

خلال الانتفاضات الاجتماعية التي هزت اوروبا وجه تروتسكي اهتمامه الى فرنسا . بدأ في تحليل الجبهة الشعبية : الاشتراكيين والشيوعيين والراييكاليين (حزب برجوازي حر) كاندماج مزعزع يفتقر الى هدف وإرادة . وبينَ فرقاً حاداً بين جبهة متحدة تشمل اتفاقات محددة وبين احزاب الطبقة الكادحة المقصورة على حاجات مباشرة نوعية (مثلاً : الدفاع المشترك ضد الهجوم الفاشي) بينما تُترك كل حزب حراً لممارسة افكاره السياسية الخاصة ، وجبهة شعبية ، جمعت الطبقة الكادحة والاحزاب البورجوازية في اتحاد غير مقبول وقف سداً منيعاً في وجه جميع الامكانيات الثورية . وبأمل كبير رأى تروتسكي الطبقة الكادحة في فرنسا تناضل للتوصل الى الثورة - حدثت اضرابات على نطاق واسع - ولكن كبح هذه الجهود زعماء فاسدون .

ويبدو ان تحليلات تروتسكي عن اسبانيا وعن فرنسا ليست مُقنعة تماماً . فقد وجدت الجمعية الديمقراطية البرجوازية في غرب اوروبا نفسها في صعوبات جعلتها ترتاب بمقدرتها على البقاء . وانه كانت هناك انتقادات مُلحة على كل من الديمقراطيين الاجتماعيين والستالينيين ، وان العمال في فرنسا وفي اسبانيا كانوا راكبين الى الراحة - كل هذا كان صحيحاً . إلا أنه كان في اسبانيا بعض العناصر رأى فيها الماركسيون بعض الحالات الثورية واخص بالذكر هنا في كاتالونيا اكثر من اي مكان آخر . ولكن هناك اسباب عديدة تدعو الى التساؤل عما أسماه تروتسكي

اكتوبر اسبانيا . اما الاتحاد السوفييتي الآن وقد عقد حلفا مع الديمقراطيات الغربية فقد لعب دورا قويا جدا في تشكيل سياسات الجمهورية الاسبانية وذلك على صعيد كُتبت بعض الميول الموجهة نحو التحولات الراديكالية وكذلك اثارة حملة قمعية ضد المتمردين اليساريين . أصبحت الجيوش الفاشية قوية جداً بمساعدة هتلر وموسوليني ولا تخشى الهزيمة او تحطيم معنوياتها كما -تصل للجيش الروسي الذي هزم عندما تعرض للدعاية الراديكالية سنة ١٩١٧ . لقد أصبح الجوا السياسي العام في اوروبا الآن في حالة أسوأ فقد أخذت القوى الفاشية في الصعود وكل من الديمقراطيات والحركات اليسارية في التقهقر ، وفي داخل اسبانيا نفسها ، رغم قوة البوم ، في كاتالونيا - وهي حركة يسارية مناهضة للمستالينية ولكنها ليست حزبا تروتسكيا - رغم هذا فان السواد الاعظم من العمال مازالوا مخلصين لمنظمتهم التقليدية : الاشتراكية ، والفوضوية (اعداء الحكومة) وبدرجة اقل الشيوعية ، ان روسيا التي اغتصبت فيها البلاشفة السلطة كانت بلادا سيئة التنظيم وفيها فروق اجتماعية شاسعة ومسافات جغرافية واسعة جداً ولقد بدا هذا مفيداً جداً للبلاشفة اذ فسخ لهم المجال للمناورات والتراجع . اما اسبانيا في الثلاثينات من القرن العشرين فقد كانت « مزدحمة » اجتماعياً وسياسياً فلم يكن المجال فيها مناسباً لتمرّد ثوري .

لقد اعترف تروتسكي نفسه بكثير من هذه العوامل ولكنه لم يكفّ عن الجدال قائلاً بأنه لو كان في اسبانيا حزب ثوري لأمكن تغيير كل شيء . ولكن ما من شك بان هذا العامل الموضوعي الذي يرتئيه تروتسكي لا بد وان يجاري في ابعاده الوضع الواقعي المنظور لماذا لا يتطور

في بلاد غرب اوروبا احزاب ثورية مهمة ؟ هل يعود هذا فقط الى افتقار الزعماء الى الخبرة والكفاءة ؟ او هل كان ذلك لأن الستالينيين ، ووراءهم موارد روسيا ، ما زالوا اقوياء ؟ او هل كان ذلك لأن فكرة « التكرار التاريخي » في الشكل الذي اقترحها فيه تروتسكي قد فقدت قوتها الفتانة الساحرة وسرّها الغامض الملهم ؟ . ان الفشل في تنظيم وبناء حركة ثورية جديدة يمكن ان يعزى لكون طبقة العمال في غرب اوروبا لم تكن ميالة للسير على خطوات لينين رغم انها كانت مخلصّة للاحزاب الراديكالية التقليدية ومستعدة للقتال بشكل اعمال دفاعية ضد الفاشية . هل هذا صحيح ؟ او ربما انها كانت قد ارهقت بعد عقود من النضال والتقسيم وربما انها كانت قد تزعزعت بسبب الحوادث المرعبة التي حلّت بروسيا في العقود الماضية او ربما انها احتفظت بارتباطات بالديموقراطية البرلمانية ومنظمتها المستقلة ذاتياً بشكل اقوى مما اعترف به تروتسكي وربما ايضا ان الشيوعيين الغربيين قد أحسّوا في زاوية ما من زوايا وعيهم ، ان سبيل البلاشفة الروس لا يمكن ان يكون سبيلهم . من المستحيل علينا ان نقيس هذه الأمور بكل دقة لأننا نعالج الآن شؤوننا اجتماعية واحتمالات سياسية . لو اعلن الاشتراكيون والشيوعيون في اسبانيا جمهورية سوفيتية (مجالس) او ما يشابهها لكان هناك شك كبير في مشاركة اكثرية العمال لهم . . . وانه لمن الجلي ان العمال ما كانوا مستعدين بان ينفصلوا عن الاشتراكيين والشيوعيين ليعلموا جمهورية « سوفيتية » . لقد كان تروتسكي يثق اكثر مما يجب بالارادة الثورية ، والوضوح الثوري ، والصفوة الثائرة ولم يسمح لنفسه بان ترى البون الشاسع والفرق العظيم بين سنة ١٩٣٧ وبين سنة ١٩١٧ ، والتباين الهائل بين غرب اوروبا وروسيا .

وإثناء كل ذلك ما فتى تروتسكي يعمل على خلق حركة جديدة لليسار الثوري ، الحركة الدولية الرابعة ، حركة ستبقى مخصصة للمبادئ الماركسية - اللينينية . لقد فشلت هذه الجهود ، فشلت فشلا ذريعا كما يمكننا ان نرى الآن . . لم تُرَ جماهير العمال في اوروبا أي اهتمام بزمرة تروتسكي او أي مذهب آخر ، بينما اولئك المثقفون الذين انفصلوا عن الستالينية وناهضوها اضطروا الى اعادة النظر ثم الى التخلي عن الفكرة اللينينية بكاملها . فمن وجهة نظر ماركسية تعتبر الثلاثينات من سنة ١٩٣٠ عهد تقهقر لا تقدم ، عهد حيرة وفقدان للمعنوية وذلك بسبب الضربات التي كالتها لها الفاشية والماركسية . لا يكاد هذا الجو يكون مناسباً لخلق طليعة ثورية جديدة . باستثناء قلة من الزعماء المحنكين الذين تركوا احزابهم الشيوعية امثال الفرد روزمر ، في فرنسا وهنري كس سينفلت ، في هولندا اما الزمرة التابعة لتروتسكي في اوروبا فقد كانوا غير خبيرين وغير مجربين وغير قادرين على الوقوف امام الضغوط التي كانت تُمارس ضدهم بواسطة حركات اعدائهم والحكومات المحلية . اما الماركسيون المحنكون المشايعون لتروتسكي امثال روزمر وسينفلت ، بالإضافة الى اندرس نين في اسبانيا وفكتور سيرج في فرنسا ، فانهم ما لبثوا ان قطعوا علاقاتهم السياسية معه وبالرغم من احترامهم له واعجابهم به فانهم أحسوا بأنه متصلب جداً في اخلاصه للتقاليد البلشفية .

سنة ١٩٣٦ ، وقد فرغ صبر تروتسكي في ما يتعلق بمتابعاته الدولية اقترح بان تحل المجموعات التروتسكية المستقلة نفسها موقفاً وتلتحق بالاحزاب الاشتراكية والديموقراطية الاشتراكية ، لا يمكنني القول بان تروتسكي قد اتخذ هذا الاجراء عن سلامة نية وقد انتهى ما كان يُعتقد بأنه

عملية مصالحة للمّ شتات قوى اليسار المبعثرة والمناهضة للستالينية انتهى ذلك بغارة قام بها التروتسكيون ، الذين اعدوا تكتّلهم ، على الاحزاب الاشتراكية . وبعد سنتين او ثلاث طُرد التروتسكيون بعد أن تعادوا مع عدد كبير من الاشتراكيين اليساريين الذين لم يكن ليختلفوا عنهم كثيراً من الناحية الثقافية . . وفي الولايات المتحدة قال الزعيم التروتسكي جيمس ب . كانون ، بان هذا الاجراء قد دمر تماماً ما تبقى من الحزب الاشتراكي واعتقد انه هذه المرة كان على صواب . فقط في مركزين متحضرين بعيدين اتخذت الجماعات التروتسكية صفة حركة شعبية - وذلك في سيلان وبوليفيا ، وهذا من الغرابة بمكان لأن التروتسكية فشلت تماماً في البلدان الصناعية الرئيسية وفشلت حتى في جذب المحاربين اليساريين التقدميين .

كزعيم سياسي في هذه السنوات بدا تروتسكي شيكساً ومتصلباً: لم يكن ليصلح كزعيم لجماعات ضئيلة العدد . ويبدو وكأنه كان تواقاً لمخاصمة مَنْ كان يقاربه في آرائه أخذ يُسَطّر مقالات عديدة ضد « الطبقة الوسطى » أي اشتراكيي الجناح الايسر الذين كانوا قد انفصلوا عن الاحزاب الديمقراطية الاشتراكية ولكن لم يكونوا مستعدين بعد لقبول البرنامج الكامل لمذهب تروتسكي . وأُخِص بالذكر هنا تبادلاً مستمراً للرسائل بين تروتسكي واندريس نين زعيم البوم ، الاسباني الذي نجح في بناء حزب يساري مناهض للستالينية (وهذا لم يستطع غيره ان يقوم به في اوروبا) أكبر بكثير من جماعات تروتسكي . لقد كان بين هذين الرجلين رباط من الاحترام المتبادل ومع ذلك فان تروتسكي لم يأل جهداً في محاولة تشكيل اسلوب نين السياسي طبق الفكرة البلشفية بينما كان نين يحاول ان

يصون حزيه وهو في وضع في منتهى الصعوبة لذلك شعر بأنه يجب ان يشق له طريقا مناسبة للاستراتيجية الاسبانية .

وكان هنا نوع من التعاطف بين المنفيين الثوريين والاعضاء الجدد غير المتمرسين حزبيا وذلك على صعيد المراسلات بينهم وكان بعض هؤلاء الجدد من الهواة المتزاممين حول تروتسكي فلنضع اليه يتحدث عنهم :

« لا يستطيع ان يتحدث عن الأهمية البالغة لعمله حتى وخلال المدة الواقعة في ما بين سنة ١٩١٧ - سنة ١٩٢١ اما الآن فان عمله من الأهمية بمكان بحيث لا يمكن الاستغناء عنه ابداً . انني لا أتبعج بهذا القول ابداً . فان انهيار الشيوعية الدولية والاشتراكية الدولية بعد قيام هتلر شكل وضعا لا يستطيع أي من زعماء هذه الدوليات ان يحلّه اذ لا أحد منهم يمتلك الاهلية لذلك وان التقلبات التي احاقت بمصيري الشخصي جعلتني اواجه هذه المشكلة العويصة واصبحت مُسلّحاً بخبرة تامة تؤهلني لمعالجة مثل هذه المشاكل لم يبق أحد غيري يصلح للقيام بمهمة تسليح جيل جديد بالاماليب الثورية فوق رؤوس زعماء الدوليات الثانية والثالثة . وانني لاوافق لينين او بالاحرى (تيرجنيف) بالاعتراف بان اسوأ رذيلة هي ان يصبح المرء في سن يناهز الخامسة والخمسين . واذن فانه لا يزال امامي اكثر من خمس سنين من العمل المستمر دون انقطاع لأصل الى هذا العمر » .

كان تروتسكي دائما صبورا ومشجعاً ومساعداً لا يتابعه دون أي كلل او ملل . وبقي الى النهاية المحذث اللبق المفقوه المنفي الذي يمثل عظمة البلشفية واخر وصي ومعلم للثورة . ومن المثير حقاً ونحن نقرأ مجموعات

كتابات تروتسكي ان نكتشف كيف كان يسرق الوقت تاركاً اعماله الاساسية للحديث مع عدد كبير من الناس ومراسلتهم بينهم الثوريون المحنكون وصغار الشباب ومن المؤسف ان اسجل هنا ان كل هذا لم يكن مجدياً ابداً . فهذا الرجل لم يجتمع ابداً مع حسن حظ مناسب وانه لن يحصل على ذلك في المستقبل . لقد ربيع تروتسكي احتراماً من الجناح الايسر المبعثر هنا وهناك ومن الجماعات المناهضة للستالينية انما لم يتحدوا معه ابداً . وحتى اولئك الذين كان يوبخهم بمناقشاته اللاذعة لم يكن منهم الا ان يظهروا الرضاء احياناً بمهارته في الجدل . اما تروتسكي فلم يكن ليرضى بهذا ابداً : ان مَنْ ان يحول مجرى التاريخ لا يمكن ابداً ان يكتفي بما يسمعه من الثناء على اسلوبه .

الفصل السادس : التراث الاخير

إن القسم الاكبر من كتابات تروتسكي التي ألفها في سني النفي لم تكن جدلية او سياسية محضة . لقد كانت موجهة الى العالم بوجه عام اكثر منها الى الزمر المنعزلة للحزب الراديكالية المناهضة للستالينية . بل انها بالاحرى تمثل ذروة ما حققه كاتب ملهم من كتاب القرن العشرين كاتب استطاع رغم آلام الاضطهاد ومرارة الهزيمة ان يجد طريقا الى اظهار موهبته العظيمة . والكتب الرئيسية التي دَبَّجها يراع هذا اللوذعي في السنين الاحدى عشرة أو الاثنتي عشرة الاخيرة هي سيرة حياته الشخصية بعنوان « حياتي » ثم قطع غنائية عن شباب لينين ثم سيرة ستالين « بشكل عنيف » ثم كتابه الرائع الذي جمع فيه آراءه عن الستالينية واسماه « خيانة الثورة » واعظم من كل هذا كتابه « تاريخ الثورة الروسية » .

أما كتاب تروتسكي المسمى « حياتي » ، فقد كتبه بعد وقت قصير من وصوله كمبعّد سياسي الى تركيا ، وتبدو البلاغة والقوة ظاهرتين في الفصول القلائل الاولى وهي تتحدث عن عهد الطفولة بمقالات سريعة ثم المدرسة والراديكالية المبكرة . ويضع تروتسكي نفسه في اول فقرة من الكتاب في طليعة الكتاب الروس الأدباء وكشخصية طموحة تنظر دائما الى الامام ويقول : ان تلك الذكريات الغنية عن ايام عهد الشباب والصور عن الحياة الريفية الشاعرية كما نجدها في قراءة اكساكوف وتولستوي وتيرجنيف سأسجلها هنا . ولكن بدلاً من ان ينساق وراء اولئك الادباء يتدفق في مستهل كتابه بتحدٍ مشوب بالاحترام ولا غرابة في ذلك فهو ناثر في كل نقطة من دمائه قال :

« ان المثل العليا لعهد الطفولة تبدأ في ما يناله المحظوظون من ثقافة .
 فعُهد طفولة آمنة رغبة دون تعكير ، طفولة تُصَرَّف في منزل مُرفَّه غني
 بالآداب أبا عن جد ، طفولة حب ووداد ولُعب طفولة مثل هذه تعيد للمرء
 ذكريات مروج خضراء مُشمسة عند بدء إستشاقه نسيم الحياة . هذه
 العظمة التي تمثلها الثقافة والأدب واولئك الحشود من العامة التي تُعجّد
 الأدب والثقافة كل هذه قد قَدَسَتْ ورفعت من شأن عهد الطفولة
 الارستقراطي ، هذا من جهتي ، اما معظم الناس الآخرين فلا
 يسترجعون من الذكريات إلّا عهد طفولة حالك السواد عهد جوع وسُغب
 واعتماد على الغير فالحياة تنال من الضعيف وهل هناك اضعف من
 الطفل ؟ » .

ولكن تقاليد « العظمة » لا يمكن ان تمر عليها مرّ الكرام لذّ أن
 الصفحات الأولى من « حياتي » تزخر باصدااء الأدب الروسي
 الكلاسيكي ، كل صفحة في هذا الكتاب مفعمة بحب الحياة وما فيها من
 ارض وهواء وغرام بالاشياء الصغيرة وانغماس في عالم الخواص بشكل
 يندر في المذهب الماركسي ويكتب تروتسكي مثلاً عن طفولته في مزرعة ابيه
 بأسلوب يظهر بكل جلاء مبلغ ذكرياته وما تعلمه على صعيد حياته الأدبية
 المميزة يقول :

تنقسم مخازن الغلال خاصتنا الى اجزاء منظمة لحزن مختلف انواع
 الحبوب : القمح برائحته الدكية ، والشعير الذي تشعر بشوكته اذا
 لمستّه ، ثم بذور الكتان وملمسها الناعم ، واللفت اللديد ، والشوفان
 النحيف . وعندما كان الاولاد يلعبون لعبة « الغمّاية » ، كان يسمح لهم
 في حالات خاصة اذا كانوا ضيوفاً بان يُختبئوا في المخازن ، فكنّت حينئذ

أزحف فوق كوم من الحنطة مخزون في خابية وانزلق الى الجانب الآخر ،
ويا لها من ذكرى تعاودني الآن وقد عُرس يداي الى المرافق في القمح
ورجلاي الى الركب في اكوام القمح المتدفقة وطالما امتلأ قميصي الممزق
وحذائي بالقمح المحيط بي .

ان الفصول السياسية في كتاب (حياتي) تفتقر الى الوضوح اذ يظهر ان
تروتسكي يعالج مواضيع قد تحدث عنها في كتبه السابقة وكان يتوقع ان
يتوسع في المعالجة في الكتب التالية . وفي هذا الكتاب لمحات سريعة تدل
على الذكاء بالاضافة الى الحقد عن شخصيات من زعماء حزب
الديموقراطية الاشتراكية الاوروبية اما بالنسبة لستالين واهمية الستالينية
كظاهرة اجتماعية فان معالجة كتاب « حياتي » لهذين الامرين تبدو ابتدائية
وبسيطة اذا قورنت بالكتب التي تلتها . اما في ما يختص بحياة تروتسكي
الداخلية واحساساته الخاصة ، وعلاقاته مع النساء والاطفال فيُسلك
عليها هذا الكتاب ستاراً من الصمت العميق وذلك لأن تروتسكي يعتبر
نفسه رجل سياسة ويكتب سيرة للشخصية للعموم لذلك فانه كره ان
يكشف الستار عن أي من هذه الأمور . ونلاحظ هنا ان في هذا الكتاب
بعض الضعف وذلك لأنه أُلّف في بكورة حياته وهذا الضعف هو : كونه
ليس قصة حياته الشخصية تماماً ولا سجل عام شامل انما يتعاقب الامران
في هذا الكتاب بنوع من التردد اللامع .

ويعتبر كتاب « تاريخ الثورة الروسية » تحفة كتب تروتسكي ، وقد
ألّف في ثلاثة عشر شهراً اثناء وجوده في المنفى في ثلاثة مجلدات ، يعتبر
اعظم كتاب تاريخي يبحث في الأمور الماركسية . ولم يقتصر ذلك البحث
عن الماركسية كفكرة تكشف عن النضال بين الطبقات ولكن فوق كل

ذلك الكشف وبكل اصرار عن الجمهور الصامت المظلوم في روسيا :
 جمهور الطبقة الكادحة والفلاحين قد هبوا كلهم ليصبحوا افرادا نشيطين
 اسياداً لمصائرهم في الشوارع وفي الحوانيت وفي الريف . وكانت هذه
 الجماهير تخضع احيانا لاختبارات باردة متعبة فتظهر وكأنها ركام من جزئيات
 صغيرة وكأنما اصبحت ارادة تاريخية كامنة وليست قوة متأسكة لها اهداف
 ثابتة . وفي اوقات اخرى تبدو هذه الجماهير وكأنما جُبلت بقوة اسطورية
 لتصبح في مجموعها شخصاً واحداً مرتبطاً بالوعي الطبقي ذا قدرة هائلة
 موحدة . وهنا نخدمنا الماركسية كاسلوب تحليلي وكاسطورة سياسية ،
 كطريقة للفهم وأخرى لتحويل مجرى التاريخ . وكان تروتسكي فيما بعد
 يفخر بكتابه هذا معلنا انه في الوقت الذي كان فيه ذلك الكتاب عرضة
 للتحدي الثقافي والسياسي فانه لم يستطع أي ناقد أن يجد فيه أي خطأ
 خطير على صعيد الحقائق ، مع العلم انه كان مجبراً ان يستمر في انشاء
 كتابه وهو مبعد في تركيا دون الرجوع الى المكتبات . قال تروتسكي في
 مقدمة كتابه انه يحاول ان يكون « موضوعياً » دون التظاهر بانه « غير
 متحيز » .

هذا الكتاب عمل في أوج العظمة شعري في اسلوبه وتناسقه ، رائع
 في الوانه اللفظية وسريع في سرد الحوادث التي يتذكرها الكاتب بكل
 اسهاب وعاطفة مرموقة . وليس هناك أي شك في تفوق هذا الكتاب على
 كتاب « حياتي » (الذي يحدثنا عن قصة الثورة بمقياس اصغر) بكون
 التفاصيل اللاذعة والضربات المازفة والملمخات اللامعة عن
 الشخصيات اصبحت الآن جميع هذه الأمور وقد حيكت بعبارات لا مثيل
 لها جعلت منها صرحاً متيناً . وقد اختفت من اسلوبه الآن الاخطاء

السابقة وأخص بالذكر منها عرض الأمور بشكل متهور . هذا التاريخ عمل رائع يدل على تمام الوعي والادراك وسموُهما . انه لتحفة فريدة وحوادث قد دبّجها يراع كاتب قدير للكشف عن أمور محتمة .

ولن نستغرب هنا ان نطالع الجمل الهازئة الحادة التي تتوقعها في اسلوب تروتسكي قال عن تشيرنوف (الزعيم الراديكالي): « لقد اصبح الامتناع عن التصويت بالنسبة اليه نوعاً من الحياة السياسية » . وقال عن كيرنسكي « انه ليس ثورياً انما كان يحوم حول الثورة » . وتابع يقول عنه لقد اكبّ « على نوع من الفصاحة التي لا يستسيغها العقل ولا الارادة ولكنها تؤثر على الاعصاب » وعن مارتوف قال « ان اللحظة التي يصبح فيها الميزان في حالة تأرجح هي ساعته - انه لرجل دولة خلاق ولكنه دائم التذبذب والتردد » . وقال عن لينين لدى عودته الى روسيا سنة ١٩١٧ : « لقد محمل سبيل كلمات الثناء وكأنه شخص فاقد الصبر ينتظر في مدخل بيت لحظة توقف نزول المطر » . وعن الجماهير : « تتميز الثورة دائماً بقلّة الأدب والوقاحة ومن المحتمل ان سبب ذلك هو ان الطبقات الحاكمة لم تزعج نفسها بان تعلّم الشعب حسن الاخلاق في الوقت المناسب . يمتاز اسلوب تروتسكي بالثقة التامة بالنفس الطويل وتظهر عليه العجرفة : انه

يُبين بكل وضوح صوت ظافر مطمئن الى عمله . وكانت استراتيجيته القصصية تستهدف نهاية كاملة متوقعة . كما اشتهر بملاحظاته الصارمة وخزائنه القاسية اللاذعة : وهذه كلها تابعة لما تتطلبه الأمور العقائدية او بكلمة أدق : اسلوب روائي بطولي شعري تشكل حسباً تتطلبه تلك العقائد .

لقد استعملتُ كثيراً كلمة « بطولي شعري » وأعني بها أكثر من مجرد سلاسة السرد القصصي ، والعمل البطولي والنتاج الرائعة ، ان ما اعنيه حقاً هو ان الكتاب يتبع المنحى القصصي للملاحم التقليدية ولا اعني بذلك ان تروتسكي قصد هذا الاسلوب عن عمد وثبة ولكن يبدو لي ان الاسلوب نتيجة حتمية للواجب العظيم الذي كرس تروتسكي نفسه لانجازه على خير وجه : فتشكيل شعب جنيد ، وهو الهدف الاعظم لهذا الاسلوب يظهر في هذا الكتاب مستهدفاً ابراز عهد تاريخي جديد ، ويصبح تشكيل الأمة رهنا بتوعية الطبقة الكادحة بكل ما تعنيه كلمة « الوعي الذاتي » ، واختبار البطولة يصبح من أجدى العوامل لتشديد الحزب الثوري وجعله اصلب عوداً .

يشبه كتاب « التاريخ » هذا الملحمة البطولية بشكل آخر . انه ينتهي بملاحظة تشير الى الانجاز الكامل والى التفاؤل السامي ، كتب تروتسكي يقول في جملته الختامية : لقد اعترف العالم اعترافاً تاماً بالاصطلاحات الجديدة امثال البلشفية والسوفييت (المجالس) وهذا وحده يبرر ثورة الطبقة الكادحة ان كان هذا يحتاج الى تبرير . وعلى المرء ان يتذكر هنا ان الانسان الذي كان يكتب هذه الاسطر رجل في المنفى وقد رفض ان يعترف بأي مأساة قد يسفر عنها المستقبل . نحدثنا الملحمة عن المجد المبكر وليس عن الانحطاط الذي حل بروما فيما بعد . وهكذا يحدثنا تروتسكي على صعيد الثورة . واختياره للصور الواقعية تعكس لنا مناظر العالم أو ربما تصميماً على صيانة هذه المشاهد العالمية مهما كلف الأمر . يظهر البطل الملحمي في كتاب « التاريخ » هذا في ثلاثة مظاهر : الطبقة الكادحة الظافرة من جديد ، والحزب المنتصر من جديد ولينين المنتصر من جديد

وكل من الثلاثة متصل ومساند للآخر : فالطبقة الكادحة ذراع التاريخ والحزب قبضة الطبقة الكادحة ولينين دماغ الحزب المفكر . ويبدو هنا ان التاريخ قد أحسن تنظيمه واخذ يعمل طبقاً لخطه مدروسة وينتهي بشكل ظافر . وقد يبدو هذا لكثير من القراء الذين ينظرون بعين الشك لامثال هذه الرؤى والانظمة المكدسة يبدو وكأنه مجرد خفة ومهارة يد ودهاء في الاسلوب اما المؤرخون المتأخرون فينظرون الى هذه الخطوة نظرة مختلفة اذ انها فسحت لهم المجال لانتقاد وجهة نظر تروتسكي فيما يخص الثورة .

واسلوب الكتاب ايضاً ملحمي : رائع ، مخلق ، حقيقي . ومن الطريف ان اذكر هنا ان كلاً من الكاتب والقارئ يشتركان في معرفة ما سيحدث بعد الصفحة الاخيرة وليس هناك من يستطيع ان يستمر في هذا الصوت المدوي صوت الابتهاج التاريخي إلا كاتب قد وصل الى قمة الانتصار او كاتب قد أصر بكل عزم ان يتذكر الشعور الذي يحسه من وصل الى هذه الدروة السامية . ولنستمع اليه وهو يستغيث بسنت بيترسبرغ عشية الثورة بالمقطع التالي الذي اعتقد انه جدير بكتابات ديكنز .

« لقد تغير كل شيء ومع ذلك فقد بقي كل شيء على حاله لقد هزت الثورة البلاد ووسعت الفجوة واخافت البعض واحزنت الآخرين ، ولكنها لم تمنح بعد أي شيء كما وانها لم تستبدل أي شيء ، ويبدو لي ان هذه البلدة الملوكية مستغرقة في سبات نوم عميق ولكنها ليست ميتة . لقد غرزت الثورة اعلاماً حمراء صغيرة في ايدي الانصاب الحديدية للملكية ، لقد تدلت البيارق الحمراء الضخمة من واجهات ابنية الحكومة ولكن يبدو بأن القصور والوزارات والمقرات كلها تعيش حياة منفصلة تماماً عن هذه

الاعلام الحمراء التي قد تغير لونها بسبب امطار الخريف . لقد مُزق النسر
الامبراطوري ذو الرأسين مع الصولجان الامبراطوري حيثما امكن ذلك ،
رغم انهم عادة كانوا يكسونها او يعيدون رسمها بشكل سريع . تبدو
جميعها وكأنها كامنة هناك كل روسيا القديمة كامنة وقد كُشِرت عن انيابها
غضباً .

كان هناك قلق شديد خلال الثورة بخصوص اقتحام معقلي بيتر
وبول يقول تروتسكي :

يتمركز القلق في كتيبة راكبي الدراجات كانوا مجندين كالسواري
(الخيالة) واختيروا من بين فلاحين أثرياء ، وقد ألف راكبو الدراجات ،
الذين قد جاؤوا من طبقات متوسطة في المدينة ، قسماً محافطاً في الجيش .
وهذا يتطلب عالماً نفسياً عقائدياً : عندما يمد انسان نفسه راكباً على
دولابين وجنزير وخاصة في بلد فقير كروسيا يمد نفسه يختلف عن
الآخرين وتبدأ خيلاؤه بالبروز والانتفاخ وكأنها دولاباً دراجته . اما في
امريكا فتحصل نفس النتيجة عندما يركب المرء سيارة .

وفي أوائل الكتاب تقدم العمال من مقاطعة فايورغ الراديكالية الى
مشروع سمبسونيفسكي ، وهناك واجهوا جيشاً من الكوزاك : ويظهر أنّ
مصير الثورة كان معلقاً على هذه الواجهة قال تروتسكي : تقدم الخيالة
الكوزاك بكل حذر في خط طويل داخل الممشى الذي فتحه الضباط .
يقول احد البلاشفة العمال المسمى كيبيروف ان بعض الضباط ابتسموا
وغمز احدهم بعينه . وكان لهذه الغمزة معناها وتأثيرها اذ انها شجعت
العمال وافسدت الكوزاك . وكثرت الغمزات ورغم جهود الضباط

التواصل فشل الكوزاك بان يجبروا الحشود على التفرق ولكنهم انسابوا فيما بينهم واخذ جنود الكوزاك يجيئون عن اسئلة العمال ودخل كثير منهم في حديث مع العمال اما النظام الذي كان الجنود الكوزاك يشتهرون به فلم يبقَ منه الا خيط رفيع . وحينئذ سارع الضباط الى فصل جنودهم عن العمال وقد تخللوا نهائياً عن فكرة تفريق المظاهرة ثم صفوا الكوزاك في عرض الشارع كحاجز لمنع المتظاهرين من الوصول الى المركز . لكن حتى وهذا لم يكن مجدياً . فان العمال أخذوا يتسربون من تحت بطون الجياد اما الجنود فقد ثبتوا فوق خيولهم دون أي حركة وفي نظام تام . إن الثورة لم تختَر طريقها ولكنها شقت اول خطواتها الظافرة من تحت بطن جوادكوزاكي .

ان هذا الكتاب لا يعتبر ملحة فحسب فهو أيضاً بسيط وساحر ففي اواخر العشرينات واولات الثلاثينات اخذ كثير من البلاشفة يسترجعون ذكريات ثورة اكتوبر وقد اعتبروا تلك الفترة كفترة براءة وطهارة اذ انهم الآن كانوا يترنحون تحت عبء كثير من المشاكل والفشل المتواصل وظلموا أنفسهم باخطاء ايديهم واخذ كل منهم يرتجف فزعاً من الآخر بشكل اكثر بكثير من الخوف الذي كان يشعر به اي انسان حتى في عهد البوليس القيصري . فما اجل اذن تلك الايام الحلوة العظيمة السالفة ايام ثورة اكتوبر اذا قورنت بهذه الايام . كتاب التاريخ هذا هو تاريخ لاختطاء الماضي او ما يقرب من ذلك . وليس من الصعب ان نتخيل العديد من اخصام تروتسكي وهم في الكرملين يسارعون وهم في حالة عصبية ليطالعوا بصورة سرية « التاريخ » ليساهموا مع مؤلفه في الرجوع الى اناشيد ماضيهم وليس هناك من شك بان القراء المتأخرين واخص بالذكر

منهم مَنْ كان عرضة للتأثر بذكریات اکتوبر الطنانة المدویة یسارعون ایضاً دون تردد لیتعشوا بقصة الثورة تلك القصة فی « تاریخ » تروتسکی غیر الملطخة بختام .

وهناك مقارنة أخرى للكتاب « التاريخ » مع الاسطورة یسرد علينا « التاريخ » قصة الثورة الروسية كاشفاً عن اسطورة البلشفية ومبرراً قيامها كواقع حقیقی وليس كاسطورة غیر حقیقیة مشدداً علی كون البلشفية عملاً تصورياً خلقه الخيال اكثر منها كتاریخ نقدي . انه كتاب نشأ بصورة حتمية من فرضياته الخاصة المرتكزة علی فكرة الحاجة الملحة . وتساهم كل فقرة فيه لتوصله الى الكمال . وفي اسطر كل صفحة تتوضح بصورة متزايدة فكرة الحتمية مع قليل من التناقضات والشكوك الواردة احياناً . وكثيراً ما واجه تروتسکی اسئلة فاجاب عنها بكل اخلاص وعلى سبيل المثال واجهه هذا السؤال - هل تعتقد ان الثورة كانت تلاقي نجاحاً لو أن لينين مات قبل بضعة اشهر ؟ وكان جوابه وبكل اخلاص - لا - اعتقد انها ما كانت لتنجح . ومع هذا فلا اعتقد ان امثال هذه الاسئلة تعكر علی الايقاع الصاعد للكتاب . يتحرك الكتاب قدماً بثبات وعناد : حامی التاريخ . لأنه يعمل طبقاً لیومیات التاريخ وكما يعمل البطل فی الملحمة طبقاً لأوامر الآلهة ، فالنجاح المثلث الاركان : الطبقة ، الحزب ، والزعیم یصل الى قمة النجاح بوجهج من الیقین . لا شك بان من یستسلم لقوى تروتسکی القصصیة یجد هذا الكتاب مشيراً للاعجاب والسرور ولكن الناقد المتسائل المحاور یميل الى الشك بان الواقع فیهِ من التشویش اكثر مما یسمح به تروتسکی .

أما علی صعيد المشاكل المبهمة ، والشكوك ، والتردد والمآسى وما

شاكل من عناصر الحياة البشرية فان « التاريخ » قلما يتطرق اليها اللهم الا عندما يلقي نظرة على المهزومين ثم يصرف النظر عنهم كنفاية في مجرى التاريخ . في الكتاب فصول ضخمة تتحدث عن الصفة الاجتماعية العلمية للقوة المزدوجة وعن استراتيجية الثورة . فقوة العقل في « التاريخ » - وانها لقوة هائلة - ليست من النوع الذي يتناسب مع حالات الحكمة التقليدية .

ويمكننا ان نقول ايضاً ان تروتسكي يختلف عن غيره من المؤرخين بكونه يرفض ان يمنح آياً من اخصامه أي تقدير وفيما عدا مارتوف ، لم يكذب يوليهم أي احترام . وعلى هذا ربما يرد تروتسكي : مَنْ بين هؤلاء الاخصام يتصف بأي تقدير او يستحق أي احترام ؟ هل هو كيرنسكي ، المغرور المهووس ؟ او هم زعماء المنشفية الذين فاتهم الفرصة ليجلبوا الى روسيا التغيرات الاشتراكية التي كانت تصبو اليها ؟ او الى جنرالات الحرس الابيض الذين لم يتفهموا ابداً ماهية العاصفة التاريخية التي جرفتهم بالرغم من شجاعة بعضهم ؟ ان اسلوب تروتسكي التهكمي لم يكن نتيجة لغطرسة تروتسكي الشخصية او لتحقيقه من صحة مبدأ البلشفية فحسب وانما هو حكم مدروس تماماً على المهزومين . أما اذا كان هذا التصرف يقابل احساسنا العميق بالوضع الانساني او يُرضي الامكانيات الواسعة المكشوفة للمؤرخين فانها مسألة أخرى . ولكن علينا ان نتذكر انه حتى والقارىء المستعد ليستسلم الى الحكم المستبد الظاهر الذي يقرأه في ثنايا كتاب « التاريخ » حيث تتحرك الحوادث صعبدا الى الدروة أقول حتى وأمثال هذا القارىء عاجلاً أم آجلاً سيتذكرون ان مؤلف هذا الكتاب كان أحد المهزومين .

كم بدا. تروتسكي عنيداً حتى وعند هزيمته ! وما على من يريد ان يتلقن درساً في الشجاعة الأدبية إلا ان يقع تحت تأثير هذا الرجل العظيم في الثلاثينات من القرن العشرين . ونستطيع ان نتعلم منه ايضاً الرضاء بالوقوف بكل ثبات مع قناعاتنا واعتقاداتنا وان نتحقق بان في الحياة اموراً أسوأ بكثير من كوننا أقلية . ربما لم يكن في ثبة تروتسكي ان يعلمنا هذا الدرس ولكن لا شك بانه درس قيم .

ورغم الاجهاد الذي كان تروتسكي يعانيه بسبب العوائق التي كانت حكومتا النرويج وفرنسا المضيفتان تضعانها في طريقه ، فقد كان يعمل بنشاط مستمر لا هوادة فيه ، احياناً ثنائي عشرة ساعة في اليوم ، لدحض الافتراءات التي كانت تصدر عن محاكمات موسكو وبعد مرور اربعين سنة على هذه المحاكمات لم يعد من الضروري ان نقدم كثيراً من التفاصيل على صعيد هذا اللغز المخيف اذ ان كل انسان اصبح يعرف ان جميع التهم في هذه المحاكمات كانت محاكمة مدبرة وغير صحيحة . ولكن اواسط الثلاثينات من القرن العشرين عندما اضطر كثير من زعماء البلاشفة امثال زينوفيف وكامينيف وراكوفسكي وراديك وبياتاكوف وبونخارين اضطروا بان يعترفوا بما يشينهم وان يقرّوا بانهم اقترفوا اجراماً لا يتصورها العقل (حتماً افتراء وكذباً) ليس اقلها بانهم تأمروا مع المانيا النازية . فكان على تروتسكي ان يبذل قصارى جهده ويجمع كل قواه الشخصية لمناهضة هذه الافتراءات التي اختلقها النظام الستاليني . وقد ساعد الدعاية الستالينية بعض الاحرار الذين اصبحوا يعجبون بالاتحاد السوفييتي فقط عندما دخل في عهد الاستبداد الستاليني وكذلك ساعدها بعض المحافظين الذين سرّهم النظام الذي فرضه دكتاتور الكرملين : وانه

لانتقاد محزن على عهدنا هذا لكون عدد كبير من كتاب هذا العهد العظام وكذلك اعداد من المثقفين قد سارعوا للدفاع عن الدكتاتورية مختلفين الاسباب للمصادقة على المحاكمات .

أخذ تروتسكي يناضل في سبيل شرفه السياسي وقد هزّه منظر رفقاءه القدامى وقد رضخوا للتحقير وهم مستسلمون للمحاكمات الصورية فصب سيلاً من دحض الافتراءات والتشهير بالمحاكمات ووقع بمنظمي المحاكمات متهما اياهم بالتناقضات والفساد والافتراء . وتحدى علناً الحكومة الروسية بأن تطلب استعادته الى روسيا ولكن الحكومة الروسية رفضت التحدي فأرسل تروتسكي رسالة الى اجتماع عام في نيويورك قال فيها .

« انني مستعد ان أمثل امام لجنة تحقيق عامة غير منحازة ومعني وثائق وحقائق وشهادات . فاذا قررت هذه اللجنة بانني مذنب بأقل انواع الاجرام التي يُلصقها ستالين بي فاني اتعهد ان اضع نفسي طوعاً تحت تصرف الجلادين الغستابو ولكن اذا قررت اللجنة : - هل تسمعون ما أقول ؟ هل تسمعون ما أقول ؟ - ان محاكمات موسكو كلها صورية متعمدة كلها افتراءات لن أطلب بأن يقف من اتهمني ليموت بواسطة اطلاق النار عليه عن طيبة خاطر . هل يسمعي من اتهمني من ساكني الكرملين ؟ أنني اتحداهم جميعاً في وجههم وانني لانتظر منهم جواباً .

عندما سمع تروتسكي ان صديقه السياسية القديمة انجليكا بالابانوف ، قد حزنّت كل الحزن بسبب محاكمات موسكو كتب اليها سنة ١٩٣٧ ، يقول : غضب ، هياج ، إشمئزاز ؟ نعم ، حتى وتعّب

موقت . كل هذا بشري انما اكثر من اللزوم . لكن لن اصدق انك قد استسلمت للتشاؤم . علينا ان نقبل التاريخ على علاقته . وعندما يسمح التاريخ لمثل هذه الشواذات القذرة غير العادية فعلينا ان نجابهه بقبضاتنا .

بَشْرِي . نعم بشري اكثر من اللزوم ، لا شك ان هذا ينطبق على تروتسكي نفسه . تقول زوجته نتاليا تروتسكي في مذكراتها انه عندما يجلس زوجها لوحده في غرفة مكتبه :

« كنت احيانا اسمعه يتنهد من صميم قلبه ويقول : « انني مُرهق . لا استطيع ان اتحمل اكثر من هذا » . وما كان ليعترف بهذا الارهاق علانية ولا شك بان التحقير والانهيار الاخلاقي الذي احاق برفاقه الثوريين القدامى اولئك الذين احبوه من صميم القلوب وقد ماتوا بعد ان شملهم العار كل هذا اوقعه في حالة من الألم الذي ليس بعده ألم » .

وهناك سؤال ما برح اكثر من أي سؤال آخر ينكّد على تروتسكي حياته : كيف قبل أولئك الثوريون الذين كانوا قد حملوا كل آلام السجن والتعذيب في عهد القيصرية مع العلم ان بعضهم حاربوا بشجاعة اثناء الحرب الاهلية ، كيف قبلوا بان يلطخوا اسماءهم بالعار ؟ ليس هناك من يستطيع ان يجيب عن هذا السؤال بطريقة مؤكدة انما ما نعرفه هو ان كثيراً من البلاشفة القدامى كانوا قد اوهن النظام عزائمهم ونستطيع ان نستنتج انهم كانوا قد انهاروا عندما حان وقت المحاكمات . وانا نعرف ايضا ان بعضهم قد هُذد بالقضاء على اقرب اقربائه وبعضهم نزل بهم أقسى انواع العذاب ونعرف ايضا ان بعضهم قد وُعدوا بالعفو وربما ايضا قد وُعدوا بترتيبات وعود سرية اذا خضعوا لارادة ستالين . وهناك نظريات أخرى

عديدة ولا يمكن الثبوت من صحتها منها ان بعض هؤلاء ، وقد اصابهم الحزن الشديد ووهن العزيمة ، قد أفتنعوا بان هذه الاعترافات الكاذبة ستكون آخر مساهمة يستطيعون ان يقدموها في سبيل الثورة . ولكن يبدو لي انه ولا واحدة من هذه التفسيرات مرضية تماماً .

وقد أحس تروتسكي بالراحة التامة عندما افتتحت لجنة تحقيق مشتركة مؤلفة من مثقفين وراديكاليين متعلمين وكلهم من اخصاصه السياسيين افتتحت جلساتها في مكسيكو سيتي ، في نيسان سنة ١٩٣٧ ، وكان رئيس لجنة التحقيق الفيلسوف الامريكي الأسن جون ديوي ، الذي تخلص من دراساته في علم المنطق ليقوم بما اعتقد بانه التزام اخلاقي . وقد استمر تروتسكي طيلة اسبوع كامل يجيب عن اسئلة اللجنة ليس فقط على صعيد المحاكمات نفسها ولكن ايضا في ما يختص بتصرفاته واعماله نفسه . وكان كثير من الاسئلة عدائية من الناحية السياسية وخاصة ما يختص بالعلاقة ما بين البلشفية والستالينية وقد سُجلت هذه التحقيقات تحت اسم « قضية ليون تروتسكي » وانها تحتوي على صفحات من الحوارات الثقافية والسياسية بين تروتسكي وجهابذة النقاد المستجوبين امثال جون ديوي وبنجامين ستروولبرج وأتو روهل ومستشار اللجنة ، جون فينرتي . وكان تروتسكي خلال الجلسات كلها يتكلم الانكليزية التي لم يكن يجيدها تماماً ولكن رغم الاخطاء وسوء التراكيب فانه تكلم جيداً وعندما قام بمرافعته الختامية سرد بالتفصيل ظروف حياته السياسية ونَدب بالمحاكمات وتنتهي هذه المرافعة بالدستور التالي :

« إن تجارب حياتي المفعمة بالنجاحات والأفشل لم تدمر ايماني

بالجنس البشري ومستقبله الزاهر فحسب ولكن على العكس من ذلك قد وهبني ذلك مزاجا ليس هناك من يستطيع تدميره . ان هذا الايمان بالعقل وبالصدق وبالتضامن البشري الذي حملته معي الى احياء العمال في بلدة نيقولايف ، وانا في الثامنة عشرة من عمري ، اقول انني لا ازال احتفظ به كاملاً تماماً ، لقد اصبح اكثر نضوجاً ان لم يكن اكثر حماساً .

واعلنت لجنة التحقيق قرارها بان تروتسكي « غير ملذب » . ولكن يبدو ان هذا لم يكن له التأثير المرجو على الرأي العام الاوروي في ذلك الوقت وخاصة في الاوساط الاوروبية المثقفة .

ان الاشعزاز الذي اخلعت تشعُر به قلّة من المثقفين البارزين الغربيين أدّى بهم الى الشك بفكرة تروتسكي بوجود تضاربات عميقة وفروق شاسعة بين البلشفية والستالينية . اما مثقفو الجناح الايسر المناهضون للستالينية الذين قد اثرت فيهم نظريات تروتسكي والذين طالما حثتهم كتاباته الى التخلي عن الاوهام « التقدمية » على صعيد الستالينية ، فأخذوا يستتجون بأن تروتسكي لم يؤفد المسألة ما تستحقه من العناية . واستتجوا ايضا انه عليه ان يدافع عن ماضيه كزعيم بلشفي وقالوا ايضا بانه قصر كثيراً بالقيام بنقد الآراء الأدبية والسياسية التي تشترك فيها الستالينية واللينينية ، كما كانوا يرتابون . ورد عليهم تروتسكي بمقالة طنانة عنوانها : « اخلاقهم واخلاقنا » مقالة شرسة لماركسي مجرّب ، لثائر روسي وقد شعر بفراغ الصبر وهو يجيب عن انتقادات امثال ماكس إيسمان وبوريس سوفارين وفكتور سيرج : وقال بان عليه ان يكرر ما قيل قبل عدة عقود ردّاً على ماركسيين روسيين سابقين .

يقول تروتسكي في مقالته « اخلاقهم واخلاقنا » بان المستويات الاخلاقية نسبية من الناحية التاريخية وانما دون شك هي قابلة للتعديل والتكييف تاريخياً . . وحاول تروتسكي ان يُري البواعث الاجتماعية للتباعد الاخلاقي بين اللينينية والستالينية ويكرر دفاعه عن الاساليب التي استخدمها النظام البلشفي . ولم يجد تروتسكي أية صعوبة في الاثبات بان ناقديه الديموقراطيين الاشتراكيين يمارسون نفس النظرية التي يتهمون بها ألا وهي « الغاية تبرر الوسطة » وحرى بالذكر هنا ان اكثر الاجزاء قيمة في « اخلاقهم واخلاقنا » هو تحليل العلاقات المتداخلة بين الوسطة والغاية وكيف ان كلا منهما تغير مكانها مع مرور الزمن وتتابع الاحداث وانه لجدال ضد أي ازدواجية سهلة كانت ام صعبة .

وقد توقع تروتسكي جواباً واضحاً عن ادعائه بان « الاخلاق ماهي الا انتاج من التطور الاجتماعي » وانه لا شيء ثابت على هذا الصعيد لذلك كتب يقول : « ولكن ألا توجد الافكار الاخلاقية الابتدائية متطورة بتطور البشرية ككل لا يُستغنى عنه لكل مجموعة متضامنة ؟ ليس هناك شك بوجود مثل هذه النظريات ولكن مدى تأثيرها محدود للغاية وغير مستقر . والعادات « الملزمة للجميع » تُقلّ شدتها كلما ازدادت حدة سلوك النضال الطبقي . »

ويستمر تروتسكي يدافع بكل حيوية عن « اللااخلاقية البلشفية » وخاصة المرسوم سنة ١٩١٩ ، الذي سمح للجيش الأحمر بان يأخذ بصفة رهائن اقرباء قادة الجيش الذين يُتهمون بعدم الاخلاص . يقول « انه اجراء لا بد منه في النضال ضد الظالمين » فاين اذن يكمن الفرق بين هذا الاجراء والاجراءات الستالينية في أخذ الرهائن (اولاد وزوجات

المعارضين) التي عارضها تروتسكي بكل ضراوة ؟ « ولا شك ان المبرر الوحيد للمرسوم سنة ١٩١٩ ، هو القرينة التاريخية اذ على وجه العموم لا يمكن ان نصف الحرب الاهلية الا بانها همجية تعافها النفس ولكننا دائماً نستطيع ان نلتمس لها الاعذار ونجد لها اساسا ، وربما مراعاة لهذه « الفرضيات الاخلاقية الابتدائية » التي يقرر تروتسكي بانها « محدودة للغاية وغير مستقرة » يشعر بانه ملزم بان يضيف « بان مرسوم سنة ١٩١٩ ، لم يكذب ديد حتى الى حادثة اعدام واحدة » ولم يحاول ان ينكر انه اثناء الحرب الاهلية ينغمس الجانبان في « همجية تعافها النفس » لأن الحقيقة المرة والتي لا يمكن تجنبها هي « ان الجيوش المتصارعة هي نوعا ما متشابهة متناسقة . ولولم يكن هناك شيء مشترك في اساليبهم النضالية لما اوقعت الضربات على بعضها البعض » .

ثم يرينا تروتسكي كم يبدو منتقدوه في مواقف مزعزعة وانحرافات ذهنية بارزة . يتهم فكتور سيرج مثلاً تروتسكي بانه مسموح لحزبه بان يأخذ رهائن ولا يُسمح لأعدائه بان يستعملوا نفس الاسلوب ونذكر هنا ان سيرج قد اغتاز كثيراً بسبب ممارسات أخذ الرهائن التي وقعت اثناء الحرب الاهلية . ويوجب تروتسكي على هذا الادعاء قائلاً بان فكتور

سيرج نفسه قد انضم الى حزب اليوم ؛ في الحرب الاهلية الاسبانية « وهو حزب وقفت ميليشياته في الجبهة » وفي الجبهة كما نعرف جميعنا يطلق الناس النار ويقتلون . ويمكن ان يقال اذن « ان القتل يرتدي معاني مختلفة ويتوقف ذلك على من اصدر الامر بذلك اكان الجنرال فرانكو او زعماء حزب سيرج » .

وتصهدف نفس هذه النقطة ايضاً على صعيد حوادث تاريخية أخرى .
ففي الحرب العالمية الثانية التي قرر كل من الاحرار والاشتراكيين بانها
اجراء ضروري لقهر المهترية هذه الحرب تضمنت اعمالاً يُسمح بها
لمصلحتهم الخاصة مثلاً : قذف المدن الالمانية بالقنابل واسقاط القنابل
الذرية على هيروشيما وناغازاكي التي اسفرت عن قتل عشرات الألوف من
المدنيين الابرياء . وما دام مثل هذه الاعمال ممكنة التبرير واذن فمن خلال
هذه الناحية يمكن القول ان « الغاية تبرر الوسطة » اذ دون شك كانت
الغاية المباشرة من الحرب العالمية الثانية هي « هزيمة المحور في اقصر وقت
ممكن وباقل ما يمكن من الازابات » وهذا ما جعلهم يبررون مثل هذه
الاجراءات المرعبة . وان من قدم المبررات لمثل هذه الاعمال (ليس
جميعهم لأن البعض قال انه لم تكن هناك ضرورة للقنبلة الذرية الثانية)
وجد نفسه يستعمل جدلاً مشابهاً تماماً للجدل الذي استعمله تروتسكي في
« لا أخلاقية الفلسفية » مع وجود فرق واحد ألا وهو ان تروتسكي كان
عادة أكثر أمانة في مواجهة تكاليف الاعمال التاريخية .

واذن ما هي الغاية التي في نظر تروتسكي يمكن ان تبرر الوسطة التي
استخدمها البلاشفة ؟ « زيادة قوة الانسان على الطبيعة والغاء تسلط
انسان على آخر » . وهذا يعني في نظر تروتسكي الاستمرار بالنضال
الطبقي الثوري الى ان تتحقق الاشتراكية . ولكن تروتسكي يشدد على
نقطة هامة ألا وهي : كل الوسائل مسموح بها ، انما « يسمح بكل
الوسائل اذا كانت بالحقيقة ستؤدي الى تحرير الجنس البشري . ومن
الواضح ان هناك وسائل لا تؤدي الى هذه النتيجة . فالوسائل المستعملة
اثناء النضال الثوري يجب ان « تشيع التضامن والوحدة بين العمال

الثوريين وهذا ما يجعلهم يشربون بوعي واجباتهم التاريخية واذن فليست كل الوسائل مسموحاً بها، لم يتردد البلاشفة خلال الحرب الاهلية بان يكذبوا لكي يضللوا اعداءهم العسكريين . تماماً كما فعل دون أي تردد ابراهم لنكون في الحرب الاهلية الامريكية . ولكن تابع تروتسكي و« بقي البلاشفة مخلصين لما قالوه للعمال . لكن حتى وهذه المفاييس لا تعطينا جواباً مرضياً لسؤال : ما هو المسموح به وغير المسموح به في كل قضية على انفراد . لا يمكن ان نقدم اجوبة آلية كهذه » . فالرأي الثاقب والذكاء والخبرة والمغامرة كلها ضرورية .

وتحتوي حوارات تروتسكي ، رغم قوتها وصحتها في الناحية الاخلاقية ، على صعوبات جدية .

١ : في الرد على التصرفات الشريرة للنظام الستاليني وجد نفسه يلجأ بشكل عفوي وبكل حرارة الى الاخلاقية البشرية ولكنه كان يصرف الوجه عنها في مناسبات أخرى كتب تروتسكي ليس فقط عن الانجراف الرجعي للستالينية ولكن ايضاً عن حطتها وغدرها وهما عكس القيم الاخلاقية الممثلة بالنبل والنزاهة . ولعبت الآن « الفرضيات الاخلاقية الابتدائية » التي وجد تروتسكي بانها « محدودة للغاية وغير مستقرة » لعبت دوراً كبيراً جداً في معركته ضد الدكتاتورية الستالينية . وقد كرر اتهامها بخرق حرمة هذا « الشعور الاخلاقي » الذي حاول في مقالته ان يقلل من اهميته : وتاماً كما استطاع تروتسكي ان يرى انه في الحالات المتطرفة ليس امام العالم الاخلاقي الا ان يلجأ الى تبرير موقفه بنفس طريقته ، ويستطيع العالم الاخلاقي ان يجيب ان تروتسكي كان يتراجع في كثير من المواقف عن هذا المبدأ الاخلاقي . وليس هناك شك بان احد الاسباب

التي دعت تروتسكي لمهاجمة الستالينية بصورة مجدية بانه هو نفسه قام بمثل ذلك . ولقد ثبت بان القيام بالاحكام اللاأخلاقية كحاجة انسانية عميقة ثبت بان ذلك اقوى من تأنيب الضمير الذي يشعر به الماركسي عند القيام بها .

٢ : لكي يظهر تروتسكي انه فيما عدا المسيحية ومحيي السلام تحتاج الاعمال التاريخية بالتأكيد إلى الاصطلاح الدفاعي القائل « الغاية تبرر الوسيلة » انما كل هذا لم يكن مجديا في ما يختص بالشكاوى الخطيرة التي كان نقاد تروتسكي يوجهونها قائلين ان البلشفية بتمسكها « بالغاية النهائية للبلشفية » سمحت لنفسها باستعمال وسائل مخزنة لم تكن هناك ضرورة لاستعمالها ولا أي مبرر محتمل لها وقد أدت جميعها وبشكل منتظم الى نتائج مؤذية احبقت باهداف الاشتراكية . فاللهم في مسألة اختيار الوسيلة هو ليس فقط الغاية الكبيرة المعلنة - وهي عادة فكرة خلافة كالبشفية والديموقراطية ، انما هو النتيجة المحتملة التالية ، الغاية المحتملة التالية في سلسلة الوسائل والغايات . وانما ما نحتاج اليه هو كبح للعجرفة البشرية أو غطرسة الطليعة هو نوع من الحكم او الرأي يمثل غاية قريبة منظورة جاهزة للفحص او التحقيق أي انها اقرب الى الواقع الحي منها الى مجتمع لا طبقي خيالي . وهكذا فان اعتبار الاحزاب الاشتراكية الاخرى خارجة على القانون بعد الثورة قد برره البلاشفة باسم ما تتطلبه الغاية النهائية للاشتراكية . ولكن النتائج المعروفة التي منها ابعاد مارتوف سنة ١٩٢٣ ، كانت بسبب التصلب في النظام وفقدان البقية الباقية من نفث الديمقراطية اي انها نتائج مناهضة للاشتراكية .

لقد طَوَّر (جون ديوي) هذه بمهارة الناقد في تعليق قصير حاد

اللهجة كتبه عن مقالة تروتسكي المذكورة . لقد ميّز ديوي بين استعمالين عامين للإصطلاح « غاية » وهما : الغاية المبرّرة النهائية « والغايات التي هي بنفسها وسائل لهذه الغاية النهائية » . ولما كانت الغاية تشير إلى « النتائج التي يُتوصّل إليها بالفعل فمن الجلي اذن انها تعتمد على الوسائل المستعملة . ولكن الغاية المنظورة (أو الغاية المبرّرة النهائية) فانها تمثل أو بالأحرى هي نفسها فكرة عن النتائج النهائية . . « وسائل لتوجيه الأعمال تماماً وكأنها فكرة انسان عن الصحة التي يريد التوصل إليها أو بيت يريد أن يبنيه فهذه ليست مطابقة تماماً لـ « غاية » كما ينتظر من حاصل فعلي » . ويضيف ديوي قائلاً : « إن ما أسبل لقباً رديئاً على القول المأثور « الغاية تبرر الوسطة » هو أن الغاية المنظورة تستخدم عادة لتبرير وسائل خاصة ، وهكذا فانها تبرر الاخيرة التي ليس هناك ضرورة لتفحصها لمعرفة النتائج الفعلية لاستعمال الوسائل المختارة » .

وهكذا يستطيع الإنسان ان يميّز بين الوسائل المحزنة التي استخدمها البلاشفة الأوائل والتي يمكن الدفاع عنها بحجة النتائج المباشرة المحتملة (هزيمة الجيوش البيضاء) ووسائل أخرى محزنة لا يمكن الدفاع عنها مع ان لها ما يبررها على صعيد الغاية النهائية للاشتراكية . وان ما يطلبه اذن ديوي والنقاد الآخرون هو علاقة أوثق بين الوسائل والغايات ، معرفة صارمة لتشكيلها المشترك وريية أعظم بكثير في الاستناد على « الغايات النهائية كتبرير للممارسات المحزنة » . ومن المؤكد أن أولئك الممارسين لمثل هذه الأعمال ينقلون حجة تبريرهم من الغاية النهائية إلى النتيجة المباشرة ، ولكن على الأقل سيصبح عملهم التبريري أكثر صعوبة .

٣ : « فالمشكلة التي كان تروتسكي وفقاده يتصارعون على صعيدها

هي مشكلة التلوث التي لا مناص منها التي نحل بالعمل البشري فنصل إلى مأساة لا مفر منها . لا عمل مع الاذعان لما لا يمكن احتماله . فالعمل يتطلب المغامرة بالوصول إلى نتائج غير متوقعة ، نتائج عادة مشروبة بالوسائل اللازمة للعمل المجدي . ولا يكاد يوجد عادةً أي انسجام بين الوسائل والغايات . أما تروتسكي فانه يختار طبعاً أسلوب بروميشيس (أحد قدماء الجبابرة الاسطوريين) ، ويعتمد انجيازه الأدبي على الحاحه العقائدي بأن يرى معظم التصرفات البشرية وخاصة السياسي منها ، من خلال تصور النضال ، غالباً تصورات الحرب التي يتوجب على صعيدها التخلي عن الفرضيات الاخلاقية الابتدائية أو على الأقل الابطاء بها .

وهذه هي الاستراتيجية التي يستخدمها تروتسكي في مقالته « أخلاقهم وأخلاقنا » وبما انه على صواب عندما يقول أن النظريات الاخلاقية لا تبقى بحية بصورة مرضية في ظروف الحرب فيصبح من الصعب على ناقيه أن يسبلوا على نقدهم الأخلاقي جواً من الواقعية . ومع ذلك وحتى في قرننا هذا ، القرن العشرين ، لا يمكن اخضاع الوجود البشري الى صلابه الحرب الأهلية ولا اخضاع الوعي الأخلاقي إلى المقتضيات المفروضة على القوى المتصارعة خلال الحرب الأهلية . لقد حلّ وقت في الاتحاد السوفييتي بعد الحرب الأهلية شاع فيه سلام اجتماعي نسبي أصبحت فيه مشاكل المجتمع التقليدي والمشاكل السياسية في حالة أمن وسلام .

وأصبح من الضروري مجابهة المشاكل السياسية ذات العمر الطويل أمثال التمثيل والبيروقراطية وانتشار السلطة والفساد من جديد ؛ كما حدث للمشاكل الأخلاقية ذات العمر الطويل أمثال : القيود المفروضة على الحكام لتجنب خفض الحياة السياسية الى حالة الرعب والفرع والعلاقات

المتناسقة بين مَنْ يحكم وَمَنْ يخضع للحكم والشروط التي بها يمكن تبرير سلطات الدولة الخ . من الواضح أن هذه المشاكل لا يمكن معالجتها طبقاً للشروط التي وضعها تروتسكي في مقالته كما أنه لا يمكن معالجتها طبقاً للظروف السياسية التي مارستها البلشفية .

ويبدو لي أن المشكلة هنا لا علاقة لها بنوع خاص بالتفكير الماركسي . ففي ثنايا جميع مقالة تروتسكي نلاحظ أنه كثيراً ما يلجأ ، بشكل جلي أو غامض ، إلى فكرة « التحليل النهائي » كما قال مثلاً « وفي التحليل النهائي الدولة هي اللجنة المنفصلة للطبقة الحاكمة » إذ « في التحليل النهائي » تصبح السياسة ليست إلا نسخة متخفية غير معترف بها للحرب الأهلية حتى ولو أن في « التحليل النهائي » لا تدل الديمقراطية البورجوازية إلا على سيادة الطبقة الحاكمة فهناك الكثير الذي يجب أن يفهم أو يُعتبر قبل الوصول إلى هذا « التحليل النهائي » . ولكن تروتسكي لم يُولَ هذه الناحية الصعبة من الوجود الاجتماعي الثقة الأدبية أو السياسية الكافية : فالمجتمع في نظره في حالة مستمرة أما للتقدم نحو الثورة أو في التراجع عنها . وكانت الحوارات الأدبية التي وجهها النقاد إلى البلشفية تتضمن دائماً قناعات مستخلصة من حوادث قرننا الحالي : بأن الديمقراطية ، سمها الديمقراطية البورجوازية إذا شئت ، ضرورة جوهرية للحياة السياسية للاشتراكيين وغير الاشتراكيين وأن كل قاعدة أو رأي سياسي أخلاقي ينكر ذلك هو رأي ناقص حتماً .

ويمكن في نقد ديوي في ما يختص بـ « أخلاقهم وأخلاقنا » بكون تروتسكي يجعل النضال الطبقي حقيقة مطلقة وإن الممارسة البلشفية على هذا الصعيد هي الوسيلة الوحيدة للتوصل إلى الاشتراكية . يقول ديوي

« إن الاعتقاد القائل بأن (قانوناً) تاريخياً يقرر الطريق التي يسير عليها النضال يبدو لي بأن هذا الاعتقاد يؤدي إلى تكريس جنوني غامض لاستعمال طرق معينة لتوجيه النضال الطبقي » ويختم ديروي نقده قائلاً ان « تروتسكي وهو يحاول ان يتجنب الحكم الاستبدادي المطلق ينغمس في حكم استبدادي مطلق آخر » . واذن فان ما يعنيه ديروي « بالنضال الطبقي » هو فكرة السياسة البلشفية بكاملها وهو ما لم يسأل عنه تروتسكي رغم ذكائه العظيم .

ولقد بدأ تروتسكي يُري بعض المرونة على صعيد المسألة اليهودية . وقد تمسك تروتسكي طوال حياته وبكل اخلاص بالخط الماركسي المتشدد وذلك بأن : الحل الأساسي لمشكلة مناهضة السامية ومناهضة التمييز والاقتصاد اليهودي غير العادي يتمركز في الاشتراكية : وان الفكرة الصهيونية ما هي إلا خيال قومي ولا يمكن تحقيقها تحت الرأسمالية . وان انفصالية « البنض » Bund ، وهي حركة اشتراكية يهودية في بولندا تجمع السياسة الماركسية مع الثقافة اليهودية ، يجب ان تقاوم بكل عنف وذلك لأن الراديكاليين اليهود يجب أن ينضموا إلى حركات البلاد التي يعيشون فيها وان لا يعزلوا أنفسهم في حارات يسارية خاصة بهم . في السنين الأولى من القرن هاجم تروتسكي بشكل عنيف « البنض » Bund متهماً إياها بأنها مؤسسة وثنية وقد نظر إليه زعماء « البنض » باشمئزاز أقوى مما شعروا به نحو الماركسيين الروس الآخرين . باستثناء هذا لم يعمل تروتسكي أي شيء في ما يختص باليهودية . ولقد شعر تروتسكي كغيره من الماركسيين الروس الذين يرجعون إلى أصل يهودي برغبة قوية نابعة من قناعة سياسية واحساسات شخصية غامضة بأن يتخذ سبيلاً مشابهاً تماماً

لاحساس الآخرين وطيلة حياته كان يشعر بأنه يتصرف بشكل لا يهودي منكرأ أهمية الهوية اليهودية ومكتشفأ في دوره الثوري مادة كافية للتحديد الشخصي . ويعتقد كثير من كتاب السير بأنه دون شك كان يتذكر دائماً شيئاً من اليهودية من أيام الصغر فان كان هذا صحيحاً فانه كان شديد الحرص بأن لا يظهرها أمام العالم .

في الثلاثينات من سنة ١٩٣٠ علمنا من رسالة مدرسية كتبها جوزف نيفادا بأن تروتسكي بدأ يظهر اهتماماً مذهلاً في الاستيطان اليهودي في فلسطين وخاصة حركة العمل ، ويذكر نيفادا مذكرة يعرفها قليلون كتبها هرتش مندل ، وهو تروتسكي يهودي بولوني ، يذكر فيها انه سنة ١٩٣٤ عقد نقاشاً مطولاً مع تروتسكي عن هذه المواضيع في باريس . وطلب منه تروتسكي معلومات مادية عن آخر حوادث في فلسطين يقول مندل :

« كتبتُ حالاً إلى رفقائي في بولونيا بخصوص طلب تروتسكي . ولكنني نسيت هذا الأمر حالاً . وقد عرفت من تاريخ الحركة الثورية عدداً من الثوار اليهود الذين كانوا يتذكرون من وقت إلى آخر أنهم ينتمون إلى الشعب اليهودي ولكنهم سرعان ما ينسون هذه الحقيقة واعتقدت بأن هذا ما سيحصل أيضاً في هذه المناسبة . ولكن لفاتني أن تروتسكي لم يكن واحداً من الذين ينسون أشياء يعتبرونها هامة . ليس هذا فحسب إنما أعلن في بدء الحرب العالمية الثانية بأن اليهود يستحقون بأن يسكنوا وطناً خاصاً بهم » .

سنة ١٩٣٧ لدى وصول تروتسكي إلى المكسيك عبر عملاً يعمل في قلبه بكل صراحة قال :

« خلال أيام شبابي اعتقدت بأن اليهود في مختلف البلدان سيمتزجون مع السكان وهكذا ستختفي حتماً المسألة اليهودية بطريقة آلية . ولكن التطور التاريخي لربع القرن الأخير لم يؤكد هذا الرأي . وتحولت الرأسالية المضمحلة الى قومية متشددة وكانت احدى مظاهرها مناهضة السامية . ولقد ازدهرت المسألة اليهودية في أعظم بلد رأسالي في أوروبا ألا وهو ألمانيا .

بما أنه لم يعد أحد يتوقع بأن تحل المسألة اليهودية بالاندماج بسكان البلاد بصورة آلية تكلم تروتسكي الآن دون أي ثورية واضحة عن أشياء قلما اعترف بها الماركسيون المتشددون قبله أي انه اعترف « بأمة يهودية » قال :

إن اليهود في كل العالم قد خلقوا مطابعهم وطوّروا لغتهم العبرية كأداة مستعملة بصورة ملائمة للثقافة العصرية . فعلينا أن نعتبر أن الأمة اليهودية ستصون نفسها طيلة العهد القادم » .

لا يمكننا أن نؤكد من الاستنتاج الحاسم الذي كان تروتسكي يرمي إليه بهذه المحاولات نحو تفهم أكبر . ولكننا نعرف أنه استمر في اعتبار الصهيونية كحركة « غير قادرة على حل المسألة اليهودية » . ولسبب ما قال « ان النضال اليهودي العربي أخذ يكتسب صفة مأساوية متزايدة وكذلك صفة مهددة متزايدة » ولكنه في نفس الوقت كان يهزأ بفكرة « هجرة جماعية كبيرة » يقوم بها اليهود المشتتون في طول البلاد وعرضها لكي يتجمعوا ثانية في مجتمع واحد . وهذا الرأي ليس بعيداً عما حصل بعد بضع سنوات . وقد اعتقد أيضاً بأن الامبريالية الانكليزية ما زالت قوية كفاية لاحتباط

الآمال الصهيونية ، وقد خشي بأن « تطور الأحداث العسكرية المستقبلية قد يحول فلسطين إلى فتح دموي لعدة مئات الألوف من اليهود » . فمن الواضح اذن انه لم يطور فكرة ثابتة بعد عن هذه النقطة . لقد كان يتحدث بعطف عن اليهود وعن الاستيطان اليهودي بصورة تختلف عن تقاليده الماضية ، وكتب نيفادا يقول : « يكاد الإنسان يعتقد بأنه في الظروف المتغيرة التي نتجت من تأسيس الدولة اليهودية والهجرة من جميع أنحاء العالم لو كان تروتسكي ما زال حياً ليشاهد هذا الحادث التاريخي لساهم في حل القضية الصهيونية . هل نستطيع فعلاً أن نأخذ بهذه الفكرة ، على كل حال من أين لنا أن نعلم ، فلاغراء الحاصل هنا هو أننا نعتقد أن تروتسكي سيشاركنا الرأي لو بقي حياً ، ولكنه افتراض وحسب إذ قد يكون الأمر عكس ذلك على كل حال فالنقطة الهامة هنا هي أن بيانات تروتسكي التي تدل على التردد على صعيد المسألة اليهودية أخذت تشير إلى رغبة جديدة ، شعور بعدم جدوى الاستمرار بتكرار « المواقف » القديمة . لم يكن لديه وقت كاف للتفكير بامعان في هذه المسألة فهناك مسائل أخرى أكثر أهمية في نظره ومن الجلي أنه لم تكن عنده النية لتخطي حدود عقائده ولكن كان هناك إدراك جديد واحساس جديد .

بالنسبة لتروتسكي كما ولعظم الناس الآخرين في الأوساط اليسارية المناهضة للستالينية ظلت المشكلة السياسية الرئيسية هي « المسألة الروسية » كيف يستطيع الانسان أن يفسر التطورات المربعة التي كانت تجلبها الاخبار اللاسلكية من روسيا ستالين ؟ وأخذ الأحرار حينئذ وفيما بعد يراقبون بابتهاج الجدل الملتف على صعيد طبيعة الستالينية التي

كرست أحزاب الجناح الأيسر نفسها له . وبدا هذا الجدل في أعين الأحرار مثلاً كاملاً للفلسفة الكلامية غير المجدية في العقلية الماركسية . ولكن تروتسكي كان على صواب بخصوص هذا الأمر ان لم يكن بتحليلاته المفضلة ففي تركيزه الدراسي . لقد أصبحت الستالينية تمثل مظهراً هاماً للغاية وغامضاً كل الغموض بغض النظر عن كونها إكمال نهائي للينينية أو حسب (معادلة تروتسكي) دولة عمال مُنحطّة أو أنها انقلاب تاريخي يخيف على رأسه طبقة جديدة . كانت المناقشات الشرسة على صعيد اليسار خلال الثلاثينات من القرن العشرين تجري بواسطة المفردات السرية التي اعتمدها الحزب الماركسي وهي نوع من المصطلحات السرية كان من المستحيل أن يحلها غير المسؤول الماركسي . وكانت هذه المناقشات تجري أحياناً بشكل جدل غريب هائج يكمن فيه إحساس بحيرة ثقافية عميقة . ولكنها دون شك حوارات هامة تعالج مواضيع هامة ستكررها الأجيال القادمة حتى وعبر عدة عقود ، أجيال من المحللين السياسيين أكاديميين كانوا أو غير أكاديميين فعلينا اذن أن نقدر لليسار المناهض للستالينية معالجته مشكلة تاريخية رئيسية فانه جدير بهذا التقدير .

في آخر سنتين من حياته انهمك تروتسكي في نقاش يتعلق بالدور السياسي والطبيعية الاجتماعية لروسيا ستالين مما استفز بعض مؤيديه الأمريكيان بزعامة ماكس شخمان وجيمس برنهام Max Shachman James Burnham ، إذ لم يرضوا عن وجهة نظر تروتسكي بكون روسيا تستحق « مساندة نقدية » في الحرب لأنها ما فتئت دولة « عمال متخلفة » (بخصوص العبارة « مساندة نقدية أو انتقادية » التي أثارت كلا الجانبين على صعيد هذا النزاع فهناك شيء غير حقيقي ! ليس هناك شيء محسوس

يتعلق بالعمل ممكن لأي من الجانبين فقد كان هناك رأي عن كيفية العمل إذا كان ذلك ممكناً . وعندما اجتاحت الجيوش الروسية فنلندا ندّد تروتسكي بالغزو معلناً بأنه مثال آخر على الرجعية الستالينية ، ومع ذلك فقد استمر في كتاباته مؤيداً « المساندة النقدية » لروسيا وذلك لأنه رأى في الحرب الروسية - الفنلندية جزءاً من نضال أوسع فيما بين البرجوازية الغربية والاتحاد السوفييتي . ولقد عكس هذا النقاش المرير صعوبات مكافحة مشاكل غير منتظرة .

حتى نهاية حياته بقي تروتسكي يعتبر روسيا الستالينية « كدولة عمال متخلفة » وذلك لأنها احتفظت بقوانين الأملاك المؤممة وهي التي اعتبرت من « انتصارات » الثورة الروسية . وكانت وجهة نظره ان هذه الدولة ليست إلا مجتمعاً دون أي هدف تاريخي مستقل وانها لا تلبث أن تخضع إما للبرجوازية أو إلى ثورة عمالية جديدة . أما على صعيد البيروقراطية الستالينية فلكني تشكل طبقة جديدة ولكي يصبح للمجتمع الذي تحكمه نظام اشتراكي جديد ، لا رأسمالي ولا اشتراكي ، فلا بد من « تصفية فعلية للاقتصاد المخطط » وأيضاً الملكية المؤممة . وهذا ما لم يحصل بعد . ومع ذلك فهناك دلائل بأن تروتسكي في أواخر سني حياته عدل موقفه ورأيه فقد كتب سنة ١٩٣٩ يقول : (الاتحاد السوفييتي) - (الكيان الاجتماعي لثورة أكتوبر) الصناعة المؤممة والاقتصاد المخطط) تكون النتيجة نظاماً فاشياً وانها للملاحظة قاطعة تماماً مع أن فكرة التوفيق بين كيان فاشي عظيم و « قاعدة » اشتراكية « لدولة عمالية » تبدو عملاً يُنهك حتى وامهر العقول المتمرسه بالجدل .

لقد أصر ناقدو تروتسكي ، الذين قد تطورت أفكارهم بواسطة

شختمان ، الأمريكي الموهوب ، أصرّوا على القول بأن مجموع خسائر السلطة السياسية التي أحقت بالطبقة العاملة الروسية تعني أن هذه الطبقة لم تعد تحكم بأي صفة اجتماعية حتى ولا بأي طريقة مراثية حقيقية ، إذ أن هذه الطبقة لا يمكنها أن تحكم إلا عن الطريق السياسية إذ أنها ليست من أصحاب الاملاك ولا يمكنها إذن أن تحكم بطريقة غير مباشرة على غرار الطريقة التي استطاعت البرجوازية أن تستخدمها أثناء شبابها . وأضافوا بأن الستالينية لم تظهر أي دليل على استعادة البرجوازية

من داخل صفوفها ولقد أخطأ تروتسكي خطأ فادحاً لاعتقاده بأنه قد اكتشف مثل هذه الدلائل . وأضافوا بأن البيروقراطية قد أصبحت طبقة حاكمة جديدة لها مصالحها الخاصة المعارضة بشكل جلي لكل من الرأسمالية والاشتراكية ، ولقد ظهر بشكل واضح بأن الازدواجية الماركسية التقليدية التي تمسك بها تروتسكي هي فكرة خاطئة . وربما كان سبب ذلك هو تأخر الثورة الاشتراكية وحرى بنا أن نقول هنا أن التاريخ خال تماماً من مثل هذه الفكرة . إنما هناك فكرة ثالثة أطلق عليها شختمان اسم « المشايعة (شيوع الملكية) البيروقراطية » ويقصد بها اقتصاد مُنْصَد

(ذُو طبقات) تُسيطر عليه طبقة حاكمة جديدة تستخدم الأساليب التوتاليرية بما في ذلك أساليب رعب على مقياس واسع بهدف تَعْصِير المجتمع الروسي المتخلف بواسطة استغلالات ليست لها سابقة من نوعها وذلك لخلق امبراطورية روسية جديدة قوية . وقد اعتبر هذا المجتمع رجعي أكثر من الرأسمالية لأنه يجرم الطبقة العاملة الكادحة من حقوقها البدائية التي حققها العالم الغربي في أوائل القرن التاسع عشر . سواء أكان « شيوع الملكية البيروقراطية » هذا أمر عابر على صعيد التطور في

روسيا أو انه نظام اجتماعي جديد على مقياس عالمي . هذا ما لم يستطع المخالفون في الرأي التروتسكيون ان يؤكدوه . وتكمن قوة تحليلهم في رفض فكرة تروتسكي غير المقنعة المتعلقة « بدولة العمال المتخلفة » أكثر منها في تشخيص كيان المستقبل التاريخي . ويبدو الآن أنهم كانوا على صواب في إصرارهم على الحداثة التاريخية للمجتمع المتطور في روسيا وهو مجتمع لا يشبه بأي شكل مجتمع رأسمالي ولا فكرة الاشتراكية ولكن يبدو أنهم لم يتقدموا خطوات أخرى أو لم يستطيعوا بأن يسيروا شوطاً آخر في تطوير نظريتهم بحيث ينجلي إلى حذر ما سيتكشف عن مستقبلها .

أخذ تروتسكي يجادل موجهاً الانتقادات العنيفة ضد أفكار أصدقائه المنشقين . بيد أنه ظهر في إحدى مقالاته الأخيرة « الاتحاد السوفيتي في الحرب » فقرة تتميز بصراحتها وتدل على جهود لغض النظر عن هذه التعاقد في معاني المفردات قال :

« طالما جادل نقادنا بخصوص الوضع في البيروقراطية السوفيتية فائلين بأنها ليس فيها أي شبه للبرجوازية ولا البيروقراطية العمالية في المجتمعات الرأسمالية وعلى هذا الصعيد فهي تتعد أكثر بكثير من البيروقراطية الفاشية إذ أنها تشكل مظهراً اجتماعياً جديداً قوياً جداً . وانني لأصرح بأن هذا صحيح تماماً ولم اتغاض عنه أبداً . بيد أننا إذا نظرنا إلى البيروقراطية الروسية كطبقة فيتوجب علينا فوراً أن نذكر بأن هذه الطبقة لا تماثل أياً من الطبقات الملائكة التي عرفناها في الماضي . فمكاسبنا اذن ليست كبيرة . إننا غالباً ندعو البيروقراطية السوفيتية طبقة خاصة وبهذا نبرز صفتها المغلقة وحكمها التعسفي وعجرفة الطبقة

الحاكمة فيها ، هذه الطبقة التي تعتبر اسلافها محدثين من شفتي براهما بينما تحدت جهاير الشعب من الأجزاء الخشنة القبيحة من جسمه . ولكن حتى وهذا التعريف لا يحوي صفة علمية بكل معنى الكلمة ، ولكنه يبدو واضحاً لكل انسان إذا لم يخطر لأحد بأن يعتبر الأقلية في موسكو صنواً لطبقة الهندوس البراهمية ولا يمكن لعلم المصطلحات الاجتماعي القديم أن يُسَعِّفنا بأعداد اسم لحادثة اجتماعية جديدة تبدو في حالة تفهقر وانحلال ولم تتخذ بعد اشكالاً مستقرة ثابتة . ومع ذلك فاننا كلنا ما زلنا نسمي البيروقراطية الروسية بيروقراطية ونحن بالتأكيد لسنا غافلين عن ميزاتها التاريخية . في رأينا أن في هذا الكفاية حالياً .

ويبدو أن ما أثار انزعاج تروتسكي الى حد كبير هو مراجعات النظريات التي اقترحها أتباعه المنشقون (انفصلوا عن حركة تروتسكي سنة ١٩٤٠) إذ أخذوا يحققون في أهمية الثورة بكاملها تلك الثورة التي يركز عليها تروتسكي سياساته . ولقد كانت مخاوف تروتسكي في محلها ، وما كانت احتجاجاتهم المعاكسة إلا مراوغة . فإذا كانت البيروقراطية الستالينية تمثل نظاماً اجتماعياً جديداً لا هو برجوازي ولا بوليتاريا فهناك احتمال بأن فترة حياتها لن تكون قصيرة وبذلك تستطيع أن تُوطد دعائم حياتها بمزيج من القمع العصري والاقتصاد المجاري للعصر الحديث وبالضغط على الجماهير ولكن مع مرور الوقت منحهم خبزاً أكثر . وهناك إمكانية أخرى ، إن كان نقاد تروتسكي على حق ، بأنه يجب إعادة النظر في كل الفكرة الاشتراكية ؛ إذ بالرغم من كونهم اشتراكيين فقد فسحت نظريتهم المجال للتساؤل عما إذا كانت الطبقة الكادحة يمكنها أن تقوم بالعمل الذي خصصتها به الماركسية ؛ أجل قد تقوم بثورة ، ولكن هل

تستطيع أن تحتفظ بسيطرتها دون أن تفسح المجال إلى بيروقراطية مستبدية جديدة ، هل تملك من التأسك والنظام وقوة الرؤية لخلق اشتراكية حرة عطوفة ؟ وهل تعود النكبة التي أحاقت بالاتحاد السوفيتي الى الظروف الخاصة بروسيا المتخلفة أو أنها كانت تشير إلى نزعة عالمية أكبر ؟ فهذه التساؤلات التي كانت تعتبر بدعة في الماضي لا يمكن ان تُكَبَّت خاصة عندما يقدم المنشقون نظريتهم عن « المشاع (الشيوع) البيروقراطي » .

ويعزى الفضل لتروتسكي لأنه رغم رفضه مثل هذه الأفكار فإنه قبل في أواخر حياته بأن يواجه إمكانية كون البروليتارية غير قادرة بأن تقوم بدورها الثوري على الوجه الأكمل وفي هذه الحالة عليه أن يجري تحولاً جوهرياً في أفكاره السياسية . يقول على هذا الصعيد :

« إذا أثارت هذه الحرب ، كما نعتقد تماماً أنها ستفعل ، ثورة بروليتارية فإنها دون شك ستطيح بالبيروقراطية في الاتحاد السوفيتي والى إعادة الديمقراطية الروسية من جديد على أسس اقتصادية وثقافية أعلى مما كانت عليه سنة ١٩١٨ أمّا إذا سلمنا جدلاً بأن الحرب الحالية بدلاً من أن تثير حرباً ستسفر عن انحطاط البروليتارية فيبقى أمامنا بديل آخر : ألا وهو الانحطاط الزائد للرأسمالية المحتكرة وأنصهارها مع الدولة واستبدال الديمقراطية حيثما وجدت بنظام توتاليتاري . ولا شك بأن عدم مقدرة البروليتارية على تسلم زمام السلطة في المجتمع سيؤدي بالفعل تحت هذه الظروف إلى نمو طبقة مُستَغَلّة جديدة .

وبما أن تروتسكي ما فتىء يعتقد في إمّا/ أو رد الفعل الرأسمالي/ الثورة الاشتراكية (إمّا رد الفعل الرأسمالي أو الثورة الاشتراكية) فإنه

حذف تقريباً كلياً فكرة استطاعة الرأسمالية ممارسة انعاش اقتصاد اجتماعي بشكل متواصل في إطار ديموقراطي. واذن فإن تروتسكي كان على صواب جزئي في ما يتعلق بنتائج فشل البروليتاريا بالقيام بالثورة : الرأسمالية الاحتكارية تقترب أكثر فأكثر في اتجاه « الانصهار مع الدولة » ولكن « الديموقراطية حيثما بقيت » - أي في الغرب - ما كانت لتُستبدل بنظام توتاليتاري ولم يستطع تروتسكي رغم نظريته المستقبلية أن يحيط بالتطور الغامض وغير المستقر الذي تُسميه « دولة الترفيه للشعب » : وهي رأسمالية على صعيد علاقاتها الاقتصادية - الاجتماعية ولكنها نوعاً ما أقرب إلى الرأفة وذلك نتيجة لقوة الطبقة الكادحة التي ما زالت منتعشة . ومع ذلك فإذا ثبت أن آمال تروتسكي لم تكن مصيبة فهناك ما يجعلنا نعجب به لقبوله عن طيبة خاطر بأن يواجه إمكانية التخلي عن نظريته السياسية . فإذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أنه ما زال عملاً سياسياً ولكنه مضطر بأن يطور « منهاجاً جديداً ذا حد أدنى » - وذلك ليدافع عن العبيد الذين يرزحون تحت نير النظام البروقراطي التوتاليتاري .

إنها فرضية جديرة بالاعتبار ولكن أيضاً يجب أن تُرفض رفضاً باتاً . لقد تمسك تروتسكي بالفكرة الثورية الماركسية الى آخر يوم من أيام حياته . في ما يختص بالحرب العالمية الثانية مثلاً - تمسك بالنظرية اللينينية عن « الحرب الامبريالية » هذه النظرية التي أعلنت للطبقة الكادحة الأوروبية بأنه ليس لها أي شأن مع أي من الجانبين : جانب القيصر الألماني او جانب البرجوازية الغربية وقيصر روسيا . ولكن بالطبع أجرى تروتسكي بعض التعديلات على موقفه على صعيد الحرب : أعلن أن الديموقراطية البرجوازية صبحت في دور الاحتضار تاريخياً ، وأما محاولة

ابقائها حية فليس الأهلوا في أيدي الفاشست لكي تساهم في انتصارهم ،
ومن هذا نرى أن الطريقة الوحيدة للاطاحة بالفاشية هي الاندفاع قدماً
نحو ثورة اشتراكية وبهذا تؤمن إعادة الحياة والحيوية للجماهير في أوروبا
وأمریکا . لقد اعترف تروتسكي ضمناً خلال هذا النقاش ما لم يعترف
به خلال وضعه السابق . لقد شعر معظم الناس شعوراً عميقاً بأن ألمانيا
النازية تدل على شر اجتماعي يختلف من حيث النوعية عن الرأسمالية
التقليدية وأسوأ منها بكثير ولا عجب بأن لا يهتم أحد بوجهات نظر
تروتسكي : لم يكثر لها سواد الشعب كما ولم يُعبرها الاشتراكيون اهتمام
وقد استنتج معظم الاشتراكيين بأن العامل الراديكالي ، الجديدي أي
التوتاليرية الهتلرية أجبرتهم بأن يؤيدوا تحييم الحلفاء مع بعض الانتقاد
السياسي . فلم يكن اذن لموقف تروتسكي على صعيد الحرب ، أهمية
تذكر .

أما آخر سنوات حياته فحدثت عن شدتها ولا حرج . ويبدو أنه لم
يتعب لا من الفقر ولا من العجز إنما ما أرهقه وحز في نفسه فقد كان شدة
القيود والضغط اللذين كان يعاني منهما يومياً . أما أمام الجمهور فقد بقي
صامداً شجاعاً وأما في حياته الخاصة فظلما قاسي من فترات ضيق قاسية ،
ويبدو انه مرة فكثر في الانتحار . وهناك عوامل كثيرة قد ساهمت في
وصوله إلى هذه الدرجة من اليأس : السخط الذي أحس به لأنه مضطرب ان
يدافع عن نفسه ضد الأراجيف والتهمة الكاذبة التي كانت تنهال عليه من
موسكو ، خيبة الأمل التي واجهته وهو يحاول إعادة بناء حركة سياسية ،
كتب إلى أحد أصدقائه في فرنسا يقول : « انني أقدم النصائح إذ لا
أستطيع أن أقدم أي شيء عملي آخر » الغيظ الذي شعر به وهو يبيع بعض

الأدوات والكتب لأسباب مالية ، ما أحسَّ به من ألم وهو يرى كثيراً من رفقائه يتحطمون واحداً إثر آخر بسبب ظلم نظام ستالين رغم أن بعضهم لم يؤيدوا سياسة تروتسكي أبداً ، وأخيراً ما شعر به من الألم لا تطاق لأنه لم يكن قادراً على اتِّمام العمل الذي كرَّس نفسه له . كل هذه قد ساهمت في ترك آثار مؤلمة على حياة تروتسكي كيف لا وهو رجل نظامي في حياته ويعرف تماماً مكانته في التاريخ والمسؤولية الواقعة على عاتقه على صعيد فكرة الاشتراكية ولكنه كان أيضاً مخلوقاً معقداً حساساً ، فقد العسير بسبب دوران الدهر ضدَّه بصورة جعلته يشعر بالعجز المطلق إلا أنه أواسط الثلاثينات أخذ يشعر أنه يستطيع أن يؤثر على الأحداث . لقد احتفظ بيومية تكشف عن ارتباكاته وتعاسته كما لو أنه كان يتمرد . ويشور ضد عدم التناسق بين قواه الذهنية وفرصه السياسية ولكن هذه اليومية تكشف أيضاً عما يكنه فؤاده من حرارة وعطف وإحساسات مرهقة خاصة نحو زوجته الفاضلة العظيمة .

كان تروتسكي قد بلغ الستين من عمره عندما اغتاله عميل من عملاء البوليس السري السوفييتي ، رجل اسمه « جاكسن » أو رامون مركادر Jackson, Ramon Mercador قد تمكن جاكسن هذا أن يدخل إلى بيت تروتسكي مدَّعياً بأنه معجب سياسي ومتطلع ليصبح تلميذاً لامرأة . في العشرين من آب سنة ١٩٤٠ دخل جاكسن على تروتسكي حاملاً مقالة قال أنه كتبها رداً على المنشقين التروتسكيين الأميركيين عن « المسألة الروسية » ورغم أن تروتسكي لم يكن يرى أن جاكسن يتمتع بأية مواهب سياسية فقد وافق أن يدخل مكتبه ليلقي نظرة على مقالته وكان القاتل يقبض على معطفه المشمَّع بشكل عصبي وبينما كان تروتسكي منحنيّاً

يطالع المقاتل فأس الثلج (يستعمل لتسلق الجبال الثلجية) ثم اغمض عينيه وانهال به بضربة قوية على رأس تروتسكي ، صرخ تروتسكي صرخة مدوية - وقال المقاتل « ما دمت حياً فان تلك الصرخة ستبقى مدوية في أذني » ، ورغم أن جمجمة تروتسكي كانت قد تحطمت ورغم الدماء التي غمرت وجهه تمكن تروتسكي من القفز على قدميه وأخذ يقذف القاتل بالمحابر والكتب ثم ألقي بنفسه عليه . اندفع الناس إلى المكتب وانهال حراس تروتسكي بالضرب على القاتل وطلب منهم تروتسكي ان لا يقتلوه بل يستجوبوه ليكتشفوا الأسباب والأيدي المدبرة والنتائج السياسية ، وسارعت ناتاليا واحتضنت زوجها وهو يترنح ويسقط على الأرض متمتماً : « أحبك يا ناتاشيا » . وفي المستشفى كافح تروتسكي الموت لمدة أربع وعشرين ساعة . وقام جماعة من مهرة الجراحين بإجراء عملية جراحية على جرح رأسه وكان عمقه انشين وثلاثة أرباع الانش واليكم ما كتبه ناتاليا عن آخر ساعات زوجها : قالت تهذل رأسه على كتفه وتدلّت ذراعه كما سقطت الذراعان في « النزول عن الصليب » لتييتان «Titian» وبدلاً من « تاج من الشوك » ارتدى المحتضر الاربطة أما سمات وجهه فقد احتفظت بنقاوتها وفخرها . . وبدا وكأنه سينتصب في أي لحظة ويعود إلى سابق عهده ثانية .

لولا ضربة القاتل لعاش تروتسكي عدداً من السنين الأخرى متابعاً كتاباته وأعماله . وانه دون شك سيكون من الممتع أن نرى كيف لو بقي حياً يرد على المشاكل الثقافية والسياسية التي أسفرت عنها الحرب وكيف يعالجها في الوقت الذي ظهر فيه لكثير من الناس حتى وللساريين منهم ان جميع الأنظمة السياسية قد ثبت بشكل واضح انها غير كافية . وماذا يكون

برنامجه للمدافعة عن مصالح العبيد ؟ وكيف يستطيع أن يعالج مسألة عدم ازدهار أوروبا وأمريكا في أحضان الفاشية بينما فشلت الطبقة الكادحة بالقيام بأية ثورة . وهل كان سيستمر في التمسك بنظريته التي تصف روسيا بأنها « دولة عمال متخلفة » ؟ وماذا كان سيقول عن الانشقاق الحاصل بين شيوعيي العالم ؟

أعتقد ان أفكار تروتسكي كانت ستتوجه نحو إحدى ناحيتين أساسيتين : بلشفية جوهريّة متشددة أو شكل من الآراء الاشتراكية غير المتيقن منها . لا نعرف أيّا من الرايين كان سيتبنى ومن الغباء بأن نعتقد بأننا نستطيع أن نعرف ذلك . لقد كان عقله مزيجاً من التصلب والمرونة : تمسك دون أي تحوّل بعقائد الماركسية ولكنه استطاع أن يقوم ببعض الابتكارات والمغامرات داخل حدود الماركسية . فالمشاكل التي عاجلها في الثلاثينات من القرن العشرين كانت تختلف كل الاختلاف من حيث نوعها عن المشاكل التي اعتاد أن يعالجها . إذ قُدِّرَ لتروتسكي بأن يكون الشاهد الماركسي الأعظم على نكبة الاشتراكية وانتصار التوتاليتارية فواجه لم يستطع ذكاؤه العظيم بأن يتنبأ بها . لا أحد من الشخصيات الماركسية العظام عاش مثل هذه الحياة الدراماتيكية ولم يلاقِ أي منهم مثل هذه النهاية المفجعة .

كان هناك مشاكل أخرى ، مشاكل بدت طلائعها أثناء حياة تروتسكي ولكنها تبلورت تماماً خلال العقود التي تلت موته مشاكل تجعلنا نشكك ببعض آراء تروتسكي السياسية . وهل يمكن تفهم المظهر العصري للتوتاليرية غير المنطقية وبما فيها من كيان كله إرهاب لا نظير له

وميول نحو ظلم التحركات الطبقة التقليدية هل يمكن تفهم كل هذه المشاكل تفهماً صحيحاً بواسطة ماركسية تروتسكي ؟ ويبدو لي مؤكداً أن وصف تروتسكي وتحليله لتكوين كل من الستالينية والفاشية ستبقى دائماً كتابات أدبية رائعة على صعيد الفكر السياسي العصري ، ورغم أنه أدخلت على كتابات تروتسكي بعض التحسينات في نواح مختلفة فإنه من الخطأ أن نعتقد أن هناك ما تفوق عليها من حيث روعتها الكلاسيكية .

ومع ذلك فبديهي بأن تروتسكي لم يعيش ليرى الحل المريع لمشكلة الهتلرية والقباحة الشنيعة التي تمخضت عنها الستالينية في النهاية ، ولم يكن تروتسكي قد استطاع أن يعالج بنجاح فكرة التوتاليرية . في كتاباته في أواخر الثلاثينات من القرن العشرين بدأ يستعمل الاصطلاح « توتاليتارية » ولكن يبدو أنه عنى بها السياسة النازية أو الستالينية ولم يهدف الى اعتبارها مظهراً تاريخياً له أهميته . ولا يمكننا أن نوجه إليه أي لوم لعدم صوغه نظرية لم يعالجها إلا قلة من المحللين والتي ما زالت تفتقر لشخصية فائدة كماركس أو ويبير Weber ، ومع ذلك فإنه لو حاول القيام بهذا ربما كانت الاجابة المباشرة بأن عليه إذ ذاك ان يقتحم حدود الماركسية التقليدية أو على الأقل يتوسع بها بشكل لم يرق به أي ماركسي في الماضي إنما ينبغي ان لا يغرب عن بالنا وجود (صيغة معبرة وهي « الاشتراكية أو الهمجية » صيغة شارك تروتسكي في استعمالها كثير من الماركسيين واستشهدوا بها مناقشة ما سيسفر عنه مستقبل البشر ، وقد أكد تروتسكي انه ليس هناك من يستطيع أن يشرح بالتفصيل الممارسات الهمجية (البربرية) التي تنم عن أعماق الوحشية التي لا يمكن للتخيلات المنطقية بأن تتنبأ بها وأنا لنقدر لتروتسكي اعترافه بمثل هذه الامكانيات المريرة في

وقت اكتفى فيه كثير من المفكرين « الأحرار والاشتراكيين » بالأوهام المستحيلة إذ أنها دون أي ظل من شك شهادة على سمو وخصب خياله السياسي وانني لا اعتقد بأن هذه « البربرية » التي تخيلها تروتسكي والتي تجلت خيوطها وأشكالها واضحة في قرننا هذا لا اعتقد ابداً بأن في وسعنا أن نحللها بشكل مناسب للأفكار الماركسية .

وهل يمكن لنظرية تروتسكي القائلة بأن النازية تمثل آخر محاولة وحشية للبرجوازية للاحتفاظ بالسلطة وعلى هذا فانها لم تتورع عن قتل ستة ملايين من اليهود ؟ بما لا شك فيه أن البرجوازية قد لعبت دوراً كبيراً حرجاً في بروز النازية وتسلم هتلر زمام السلطة ، ولكن من الصعب ان نرى أن مصالح هذه الفئة كانت معرضة لأي خطر في أوسوتش وبتشنوولد Buchenwald, Auschwitz وأرى أن تروتسكي لو بقي حياً لقال بأن انحلال البرجوازية قد وصل الى حد لم تعد فيه التقديرات المنطقية مجدية وربما أضاف قائلاً بأن جميع أنواع العنف والكراهية التي سلّطت على البرجوازية الضئيلة العدد أو على المثقفين الذين فقدوا منزلتهم الاجتماعية في الماضي وبلاشتراك مع الحثالات البشرية التي شكلت الحركة النازية هذه كلها أخذت الآن تمارس أعمالاً من العنف الشرس الذي قلّمها سمع بمثيل له حتى في أشد العصور التاريخية ظلاماً . وربما كان تروتسكي يعترف بأن هذه الحملات الارهابية كانت نتيجة لتصرفات ذاتية لمصالح خاصة أغمضت أعين مَنْ مارسها عن بشاعة أعماله وتصرفاته اللاإنسانية في سبيل الوصول إلى أهدافه .

وأهم من كل هذا وعلى صعيد المشاكل الديمقراطية فقد تأثر تروتسكي تأثراً عميقاً بسبب ذبول الديمقراطية الأوروبية خلال السنوات

الواقعة بين الحريين العالميتين وقد أضفت كتابته تعبيراً جديداً مليشاً بالانفعال والعاطفة والبلاغة على صعيد ما كان يحدث في ألمانيا وفرنسا واسبانيا حيث عرضت أزمة الاقتصاد الرأسمالي بقاء الديمقراطية لأشد الاخطار ولكن « التحليل الطبقي » للديموقراطية كما رآه تروتسكي ومارسه لم يكن كافياً أبداً في منطقة ظهر فيها بكل وضوح ان الحرية يجب أن تعتبر أعظم ما في الحياة من حيث قيمتها للمجتمع الحديث وليست مجرد مظهر للسيادة الطبقية أو كليات عابرة .

وإذا بقينا داخل حدود العقائد التروتسكية يصعب علينا أن نجد تعليلاً للاستقرار الملحوظ والارتفاع المرموق في مستوى المعيشة الذي تتميز به الرأسمالية الغربية مما يجعلنا نرتاب بعمق الآراء والنظريات الثورية ، قال تلامذة تروتسكي ، على الطريقة الماركسية ، مناقشين بعض آراء تروتسكي بأنه أخطأ في تكهناته عن معدل سرعة الانهيار الاجتماعي وليس في تحليلاته الأساسية . إذ وان كان العهد الذي نعيش فيه الآن لا يبدو قريباً من « ألام النزاع للرأسمالية » فلا يزال هناك احتمال قوي بأن الأزمة التي تنبأ بها تروتسكي قد تأخر حدوثها . بيد أن طبيعة هذا الجدل يجعلنا لا نستطيع نقضه ، فهناك اذن احتمال حقيقي بانتهاء الرأسمالية على شكل الكارثة التي حلت في أواخر العشرينات من القرن العشرين وقد تفشل جميع الوسائل المرتجلة والمهادنة الى بقاء الرأسمالية ، بدءاً من اقتصاديات كينسيان Keynesian إلى الاصلاح الاجتماعي . ويجدر بنا أن نتذكر بأن تروتسكي ما كان يتحدث عن انهيار « نهائي » للرأسمالية : كما ذكر الكثيرون . لقد كان يُلبّي بتكهنات أكثر دقة على صعيد النتائج التاريخية للحرب العالمية الثانية ، وكانسان يتمتع بموهبة ترتيب الأفكار تمكن ان

يرى التغيرات الجديدة وقام بمراجعة عامة لأفكاره خوفاً من أن يكون قد أخطأ . وبالإضافة الى ذلك فان التكهّنات الخاطئة عن سرعة معدل الانهيار تصبح تنبؤات خاطئة على صعيد المضمون : - يجب أن تنهار كل المجتمعات ثاماً كما يتحتّم على الإنسان ان يموت ، ولكن التكهّنات التاريخية لا تحظى بأية أهمية إلا بما تقدمه من المعاملات الزمنية . وأخيراً واذا تأكد انهيار الرأسمالية الغربية فليس من الجلي بأن ذلك ستُسفر عنه نكبة من النوع الذي يؤكد التوقعات الماركسية أو يرضي المستويات الانسانية .

وكذلك لم تتحقّق الصفات التي قدمها تروتسكي في ما يتعلّق بروسيا . فلقد حقّق المجتمع الروسي - بعد ستالين - استقراراً نسبياً ، فلا هو مهدد برجوع البورجوازية ولا هو على مسافة من الديمقراطية الاشتراكية يمكن قياسها ، ولكن هذا المجتمع احتفظ بشخصيته كدكتاتورية مستبدة مدخنة وسائل الارهاب دون استعمالها وعلى الشكل الستاليني الجنوني ، وليس هناك شك بأن تروتسكي كان سيرحب ببزوغ شمس المعارضة المثقفة والحركات الديمقراطية في ربوع المظاهر مبشراً لثورة عمالية أخرى ؟ أو ما كان عليه أن يحاول مناقشة مشكلة احتمال قيام ثورة جماهيرية وما هي الطرق التي تجعلها ممكنة وهي تكافح نظاماً توتاليتارياً مستقراً ؟ وهنا أيضاً اعتقد أن ماركسيته يجب أن تظهر بعض المرونة لكي يتمكن من أن يكون جديراً بمكافحة هذه المشاكل وتحليلها .

لا يستطيع أي مفكر سياسي بأن يتكهّن بطريقة معقولة عن كل شاردة أو واردة على صعيد التاريخ . لذلك فليس من المستغرب بأن تنهار جميع الآراء الثورية الماركسية - اللينينية كما فهمها تروتسكي عندما واجهتها

حقائق الحياة السياسية في أواسط القرن العشرين .

كما وأنه لا يمكننا أن نعتبر فشل تروتسكي الواضح في تكهاناته مزعجاً كخطيئة وهو يأبى أن يعيد النظر ببعض نظرياته الثقافية وفي آخر كتاب خطه يراعى هذا النابغة الفذ يستطيع البحاثة أن يلاحظ علامة أو اثنتين تدلان على أنه بدأ يشعر ببعض القلق في ما يتعلق بالتراث البلشفي ، ولكنه لم ينفك في معظم كتاباته عن الدفاع عن هذا التراث بكل نشاط . لقد اشتغل عقله الموهوب داخل حدود سياسية ثابتة . لكن دون أن يمحّص فرضياته أو يعيد النظر فيها . ولا يمكن لأي إنسان أن يتوقع من رجل مستقيم مقتنع بوجهة نظره بأن يحدد عمل حياته كلها وليس هناك شك بأن الانتقادات الموجهة إليه على هذا الصعيد معظمها سخي في الأسلوب والهدف . ولكن يجدر بي أن أقول هنا أن تروتسكي كعالم يهتم بالنظريات الماركسية وكناقد علامة انتقد بكل تدقيق وبعنف وفعالية كل حركة من حركات النظام الستاليني وبكل احتقار أنكر على الستالينية جميع ذرائعها لقمع الحريات مثل هذا الرجل العظيم كان عليه أيضاً أن يلتفت إلى الخلف إلى سنوات البلشفية المبكرة ويخضعها لدراسة نقدية موضوعية ولا شك بأنه كان من السهل عليه أن يقوم بذلك بسبب الزمن الذي مرّ على النظريات الماركسية ، اللينينية .

من العسير علينا أن نتصور بأن تأثير تروتسكي في المستقبل سيكون من النوع الذي توقعه : أي « تجسيد الماركسية التقليدية على صعيد النظريات والثورة البروليتارية عملياً ، وعلى الخطوط التي تعرف باسم « التروتسكية » . أما ما تبقى من الفئات التي استمرت في نضالها مؤيدة

تروتسكي أو استكانت دون أن تقوم بأي عمل فانها جميعها لم تتميز بأي مقدرة على خلق اي فكرة سياسية جديدة على الصعيد السياسي كما وانها لم تستطع أن تتغلغل في صفوف العمال عملياً . اننا نعيش في زمن حطّم جميع العقائد الثابتة وحللها وهكذا فان فكرة الاشتراكية ، إذا قدر لها أن تعيش أكثر من مجرد ذكرى تاريخية أو كبطاقة غير ملائمة مرفقة بالدول المستبدة ، هذه الاشتراكية إذا قدر لها ان تعيش فستمر في تغييرات وتحولات ومراجعات انتقادية قد تنتزع عنها حللها في السنين القادمة ، أما على صعيد الجهود التي بذلت في أوروبا وأمريكا خلال العقود الحديثة لنفخ روح جديدة في فكرة الاشتراكية - جهود بعضها له قيمته من حيث التأثير وبعضها لا قيمة له - فقليل جداً منها قد سار على خطى البلشفية التقليدية . ما أكثر المفاجآت التي يواجهها بها التاريخ وما أكثر السيئة منها . وان المرء ليرتاب في أن التاريخ سيسمح بتكرار ما بحث عنه تروتسكي . وأناشدكم الله هل هناك مَنْ يتمنى العودة الى تقاليد « دكتاتورية العمال » - حتى بين مَنْ يتمسك منا بوجهة النظر الاشتراكية بشكل متشدد - أو هل هناك من يتمنى العودة إلى « حزب الطليعة » وما إلى ذلك من الأفكار ؟ ومهما كان مصير الاشتراكية فلا أرى أية امكانية محتملة في البلاد الصناعية لقيام أية حركة جماعية تسير على الخطوات التي اقترحها تروتسكي أما بخصوص تقليد الماركسية بشكل هزلي مضحك في « العالم الثالث » فاننا جميعاً دون شك وبكل تأكيد نعلن بأن تروتسكي لو كان حياً لثبرا من هذه كلها وبالرغم من تكهنات تروتسكي الفخمة على صعيد مستقبل « دُوكيته الرابعة » فحري بي أن أذكر هنا بأن التروتسكية كحركة سياسية لم يعد لها أية أهمية سياسية منذ عدة سنوات ولم يعد لها أيضاً أية أهمية ثقافية لقد أصبحت عقيدة متحجرة .

ومع ذلك فأنني أعتقد بأن الجزء الأكبر من كتابات هذا الرجل غير الاعتيادي سيبقى حياً وان نشاطه وشجاعته وجهوده ستبقى مثلاً يحتذى به الأجيال القادمة . وينكب الهراطقة في بلدان شرق أوروبا على كتب تروتسكي المحرمة عليهم ليس للتعلم والارشاد انما لفتح أبواب للمناقشات والجدل ، أما في الغرب فعلى المفكرين السياسيين أن يواجهوا وجود تروتسكي الهائل محاولين تجنب فرضياته الحادة ومتعلمين دروساً لا تنسى من أخطائه البارزة . إن كتب تروتسكي تسمو على كل نزاع سياسي . إنها جزء من تراث قرننا لأن تروتسكي جسّد الأزمة التاريخية العصرية بقوة عظيمة من الوعي وموهبة للاستجابة الباسلة التي قلما يستطيع أن يجاريه فيها أي من معاصريه . لقد حاول ، بطرقه الخاصة ، أن يكون يداً لزمه . حتى وأولئك الذين لا يولون كتابات تروتسكي أي اهتمام لا يستطيعون إلا أن يعترفوا بأن ليون تروتسكي في قمة سطوته وفي سقوطه ، من أعظم جبابرة قرننا .

ملحق

أرى أنه يستحيل علي أن أكتب عن تروتسكي ، ذلك العبقري المخلص لمبدئه ، دون أن أضيف بضع كلمات أسرد فيها سيرة اسحق دوتشر Isaac Deutcher الكاتب الموهوب الذي اتحفنا بثلاثة مجلدات أسهب فيها بالتحدث عن حياة تروتسكي ، كما وأني لا أظن أن هناك أي احتمال في المستقبل القريب بأن يقوم كاتب ما بسرد لحياة هذا الماركسي الثائر الذي حمل معه شعلة في الفكر رفعها لتضيء الطريق نحو هدف بقي طوال حياته يعتبره اسمى هدف لرفاهية جماهير الشعب . أقول بأنني استبعد قيام كاتب ما بتقديم سيرة مماثلة لما قدمه دوتشر من حيث كونها مرجعاً واضحاً كاملاً عطوفاً دون تحيز ، ولكن دوتشر جاء بنظرية عن الستالينية تتطلب مجابهة جدية ، التجاسر بأن أقول : تحتاج الى التحدي والرفض . وخاصة لأنه يميل بأن يضمها الى أفكار تروتسكي وعلى قراء هذا الانجاز العظيم الذي اتحفنا به دوتشر أن يعرفوا أين تنحرف أفكاره عن أفكار تروتسكي فتبدوا لنا مبتذلة .

وعندما بدأ دوتشر في تحليل النظام الستاليني رفض بأن يعتبره منفصلاً انفصلاً تاماً عن النظريات الاشتراكية التي تقدم بها في الأصل لينين وتروتسكي . وبينما أظهر دوتشر عداؤه المطلق للارهاب الستاليني ومناوآته الشديدة لنظام « المشاع » الاجباري وجعل الفساد ينخر في كيان الثقافة فانه مع كل ذلك يُصر على اعتبار الدولة الشيوعية شكلاً من أشكال « التقدمية » . يذكر دوتشر في مجلده الثاني أن عقود الستالينية يجب أن يطلق عليها اسم « التجمع الاشتراكي البدائي » وهذه العبارة الأخيرة استعارها دوتشر من معجم تروتسكي ليصف فترة زمنية فيها تجمع دولة

العمال رأس المال الذي تحتاج إليه لتصبح مجتمعاً اشتراكياً لا طبقياً .

يعتقد دوتشر أن دكتاتورية ستالين حافظت على انتصارات ثورة أكتوبر ووسعتها وعلى صعيد هذه النظرية أظهر تروتسكي كرمه بالقياسات والمناظرات التاريخية بخصوص الثورات الانكليزية والفرنسية وبواسطة هذه المضاهاة استطاع أن يقارن ستالين بالمستبدين الشوريين الذين عاشوا في الماضي والذين حافظوا على منجزات أسلافهم المشاليين وإنما بشكل فاسد . وفي هذا الرأي الذي يشارك دوتشر به قلة من اليساريين المؤيدين للحكم الاستبدادي أصبح النظام الستاليني يعتبر حادثة محزنة إنما عابرة يُرثى لها وإنما لا يمكن تجنبها ، على صعيد بناء الاشتراكية .

تتمثل قوة حوار دوتشر في تصميمه على منح الصفة الشرعية لستالين كحاكم مستبد أنجز الضروريات التي لا غنى عنها في التاريخ على الرغم من قساوتها . وقد رفض دوتشر (قبول كون فكرة) « التجمع الاشتراكي البدائي » اثناء سنوات ستالين يمكن ان توصف بأنها « تجمع بدائي مناهض للاشتراكية » ولم يوافق ابدأ على أن نظام التصنيع الذي أدخله ستالين أدى إلى شكل جديد من أشكال المشاع الاستبدادي أي إلى مجتمع طبقي ظالم لا هو رأسمالي ولا اشتراكي .

وستبقى هذه النظرة السياسية ، على ما تحوي من كل أنواع الترددات والعناء لها قيمة جوهرية في عين العالم الشيوعي . نجد هذه القيمة عادة في تأميم الممتلكات التي ينظر إليها كضامن نهائي للتقدم . وبينما تحدث ماركس عن « أمر جوهري لا بد منه » إلا وهو حتمية الثورة على كل

الظروف التي يكون فيها الإنسان مخلوقاً لا قيمة له ، ذليلاً مُستسلماً ومحتقراً . يفضل اليسار المستبد بأن يتحدث عن سرعة تقدم التصنيع الروسي أو عن ضرورة الكشف عن « قوانين التاريخ الفولاذية » . وبينما أعلن الاشتراكيون عن امكانية وجود مجتمع انساني يركز على مقدرة الناس بأن يعملوا بطريقة ذاتية حرة نرى اليسار المستبد قد وضع كل ثقله مؤمناً بالتطور الاقتصادي الذي طوره أو المعنويات العاملة في ما وراء رغبات الإنسان الحي وعادة معنويات تناقض رغبات الناس .

إن مَنْ يقبل بوجهة النظر هذه يتوقع تطوراً منتظماً ، تقدماً تدريجياً نحو الديمقراطية داخل العالم الشيوعي . ويترتب على ذلك بأنه يتوجب عليهم أن يشاهدوا الثورة في شرق أوروبا سنة ١٩٥٦ كما رأها دوتشر :

حاول شعب المجر (هنجاريا) بتهيج عظيم باسل عن غير عمد ارجاع عقارب الساعة الى الوراء ، بينما قامت موسكو بملء الساعة مرة أخرى ودفع عقاربها قدماً بالحراب أو بالأحرى بالدبابات والمصفحات وآلات الدمار الأخرى واعادت بذلك انتظام عمل ساعة الثورة الشيوعية المجرية . ومن البديهي ان نلاحظ هنا أن دوتشر استعمل عبارة « عن غير عمد » على صعيد عمل الثوار المجرين معتبراً ثورتهم دليل تخلف أو أنها عمل مناهض للثورة بينما نظر إلى الاجراءات التي قامت بها الدكتاتورية الروسية ، على تعسفها ، كوسيلة لازمة للحياة في المستقبل . فلا عجب إذن أن رأينا دوتشر لا يشترك بالرأي مع أولئك الذين حاربوا ضد آلات الحرب الروسية في بودابست أو في الأماكن الأخرى .

ليس هناك مجال للتساؤل عن أهمية هذه القضية السياسية بالاضافة

إلى أهميتها الاخلاقية العظيمة . وبغض النظر عما في نظرية تروتسكي الستالينية من الضعف فانه هنا على طرفي نقيض مع دوتشر إذ عندما ناقش دوتشر أطروحة تروتسكي التي كتبها سنة ١٩٣٩ والتي تحدث فيها عن مستقبل البشرية في حالة فشل الاشتراكية يقول دوتشر على لسان تروتسكي في الأطروحة « من البديهي أننا سنحتاج إلى برنامج جديد ذي حد أدنى لندافع عن مصالح العبيد في النظام البيروقراطي التوتاليتاري » ويعلق دوتشر على ذلك بقوله :

« لا غرو فان القطعة من ميزات الرجل : فاذا ، كما يقول تروتسكي ، كانت العبودية البيروقراطية هي كل ما يدخره المستقبل للجنس البشري فانه سيكون منحازاً الى جانب العبيد وليس الى جانب الحكام المستغلين الجدد مهما كانت هناك ضرورة تاريخية لهذا الاستغلال الجديد . وبما أنه قد قضى كل حياته وهو مقتنع تماماً بأن التاريخ دائماً يساند المناضلين الذين يكافحون في سبيل تحرير واعناق المُستغلين والمظلومين فانه دأب الآن على الطلب من تلاميذه بأن يستمروا في تأييد المُستغلين حتى ولو كان التاريخ وكل الحقائق العلمية تقف ضدهم . فإنه (تروتسكي) على كل حال سيكون مع سبرتاكوس Spartacus وليس مع بومبي - قيصر Pompey-Caesars .

إنها قطعة تسترعي الانتباه . ليس فقط لأنها رمز لتقدير مساندة تروتسكي للمظلومين حتى ولو كان مصيرهم بأن يظلوا مظلومين إنما لأنها بكل وضوح تظهر ولو بشكل ضمني بأن دوتشر يأبى بأن يجاري سبارتاكس وهو يسير على طريق العذاب ، وذلك لأنه يساند باستمرار « الضروريات التاريخية » لجميع أنواع الأنظمة المماثلة للنظام الستاليني

واننا لن نستغرب هذا من دوتشر بعد أن وقفنا على آرائه .

من البديهي أن نظرية دوتشر تأخذ بعين الاعتبار الجانب الاستبدادي من آراء تروتسكي ولا تولي أي اهتمام للجانب الديمقراطي الثوري . إنها تخضع إلى معنويات التطورات التاريخية أو التقدم التكنولوجي كل الواجبات والأعمال التي لا يمكن أن تُكسب إلا بواسطة النضال البشري الواعي . بيد أن دوتشر كان يعاني من مرض عصري : إلا وهو الهيام بالتاريخ . ولم يتعلم أبداً بأن التاريخ كالمراة العاهرة مهما اختلفت الآراء في التاريخ الإنساني ومهما صعب التكهن بها .

ملاحظات

١ - الأعرام المبكرة ، النظريات الأساسية

٢ - يتحدث اسحق دوتشر عن هذه الفترة بلغة مختلفة نوعاً ما :

يقول :

لم يخطر ببال تروتسكي بأن حزب عمال في المدى البعيد قد يحكم ويتسلط على بلاد واسعة شاسعة ويحكم أكثرية السكان . ولم يستطع تروتسكي أن يرى بأن الثورة لا بد وأن تؤدي إلى حكم طويل الأمد للأقلية . لقد كان احتمال مثل هذا الحكم مفهوماً ضمناً في نظريته ولكن لا بد من أنه قد بدا له ، كما بدا لكل معاصريه تقريباً ، بأن حكم الأقلية هذا لا يتفق مع الاشتراكية . وانني لمتيقن تماماً بأنه لم يتصور أبداً ، رغم كل ما كتبه بمهارته الأدبية عن لينين ، بأنه سيأتي وقت تتخلص منه الثورة من عزلتها وضعفها فتبرز في حلة ثوراتية .

طور هذه النقطة ريتشارد لوونتول Richard Lauwenthal فقال :

إن الحزب البلشفي في أيام لينين ، مع أنه بطبيعة الحال مستقل عن مصالح الطبقة الكادحة وذلك بفضل تنظيمه المركزي كان هذا الحزب قائماً على عضوية بروليتارية سائدة ومخالفاً لمجموعات هامة من بروليتارية غرب أوروبا ، بينما في حالة حزب « ماو » « Mao » في هذا الزمن ، أصبح الادعاء بأنه يمثل البروليتارية الصناعية ليس إلا وهماً وحبراً على ورق ،

أن هذا الحزب لا يركز على تاريخه ولا على نفوذه العالمي وإنما على الفكرة الباقية التي تعلن بأن كل من يقود نضالاً ثورياً عسكرياً ضد الرأسمالية الامبريالية المحتكرة يُعبر في حد ذاته عن الوعي الطبقي الحقيقي للبروليتارية .

ومع ذلك ففي نضاله ضد كل من الماركسية واللينينية يركز نظام « ماو » الجديد على بعض الحقائق التاريخية لعهدنا هذا . فمُنذ موت لينين أي مدة أربعين سنة أصبح عمال البلدان الصناعية المتقدمة أقل شعوراً بالروح الثورية ونتيجة لذلك لم يكن في وسع الشيوعيين في مثل هذه البلدان أن يقوموا بأي حركة ثورية ظافرة . بل على العكس من ذلك ففي البلدان المتخلفة حيث عاشت حشود ضخمة من الشعب في حالة جوع وسغب شديدة كما وأن هذه الحشود لم تكن تتمتع بأي ظروف أمنية فهنا يمكننا أن نقول أن الجماهير « لم يكن لديها ما تخسره إلا السلاسل والأغلال » في هذه التربة أتاح اليأس للجماهير فرصاً لعدد من الثورات الظافرة من ضمنها ثورات شيوعية . لقد جعل مجرى التاريخ الحديث من المستحيل على الزعماء الشيوعيين بأن يستمروا في إخلاصهم لاعتقاداتهم اللينينية الماركسية في الطبقة العاملة الصناعية والى شغف لينين للنضال الثوري في نفس الوقت مع أنهم حاولوا جهدهم بأن لا يعترفوا بهذه الحقائق حتى لأنفسهم . واما الزعماء الصينيون فتحت الضغوط التي واجهوها في نضالهم مع السوفييت ، وبسبب ضالة الروابط التي كانت تربطهم بالماركسية الأوروبية وبالبروليتارية الصناعية بسبب هذه الضغوط والروابط اختار الصينيون : « بأن يكونوا ثوريين كلياً إنما هامشياً بروليتاريين » .

٢ - اغتصاب السلطة :

١ - بعد أمد قصير من ثورة سنة ١٩٠٥ تلك الثورة التي ظهر فيها السوفييت لأول مرة قدم لنا تروتسكي وصفاً شاملاً قاطعاً لدورهم التاريخي قال :

برز سوفييت النواب العمال تماماً لحاجة موضوعية - ولدها مرور الأحداث - لمنظمة تمثل السلطة دون ان تشتمل على تقليد ، أي لمنظمة على استعداد لتطوير واحتضان مئات الألوف من الحشود المبعثرة دون أن تفرض عليهم كثيراً من القيود التنظيمية ، منظمة توحد التيارات الثورية داخل البروليتارية ، منظمة تستطيع أن تمسك بزمام المبادرة وتشرف على السلطة بشكل آلي . وأهم من كل هذا : منظمة يمكن خلقها خلال أربع وعشرين ساعة .

كتب تروتسكي هذه الأسطر قبل أن يصبح بلشفياً فليس فيها أي ذكر عن « سيادة » أو « قيادة » حزب الطليعة .

٢ - يؤيد هذه النقطة الزعيم المنشفيكي المحنك رفائيل أبراموفتش (Raphael Abramovitch) في كتابه « الثورة الروسية » كتب يقول :

لا تستطيع الحكومة الموقنة أن تقوم بالشئ الوحيد الذي كان قد يحافظ على تقدير الجماهير وأعني به : شن هجوم نشيط لا لبس فيه ولا إبهام نحو السلام . وما فتىء الزعماء المدافعون، المنشفيك مع الزعماء الراديكاليين يرغبون بصيانة الائتلاف مع الجماعات البرجوازية الحرة وكذلك صيانة الانسجام في المخيم المتحالف .

السوفيت (المجالس) وعلى الجماهير وعلى الثورة بأسرها » .

٣ - البلشفية تنال من نفسها :

١ - في أواخر الثلاثينات من القرن العشرين قدم تروتسكي مرة ، باستهزاء ، ملاحظة انتقد فيها الكاتب الفرنسي هنري باربوز Henri Barbusse الذي قال بأن انتصار ستالين على تروتسكي « أظهر بأن ستالين على صواب : قال تروتسكي ساخراً أنها لطريقة مثلى في تبرير قيام هتلر » . وأعتقد أن تروتسكي هنا وهو يوجه هذه اللطمة الرابعة الى باربوز الكاتب غير الدائع الصيت ربما كان قد تذكر ما خطه يراعه في كتابه « الارهاب والشيوعية » .

٢ - صاغ تروتسكي عبارة حية لوصف رجع (رد فعل) الفلاحين : انهم يؤيدون البلاشفة الذين طردوا ملاك الأراضي ، وانهم ينامضون الشيوعيين الذين استولوا بصورة رسمية على الفائض من محصولاتهم - وأحياناً أكثر من ذلك .

٤ - قيام الستالينية

١ - علينا أن نناقش هذا البحث بالتفصيل آخذين بعين الاعتبار سيرة حياة تروتسكي العملية وبكل امعان . لقد كتب تروتسكي وتحدث بغزارة وتطويل عن الأحداث في المانيا وفرنسا خلال هذه السنين حائثاً على تطبيق مرن للإستراتيجية البلشفية دون أن يشك فيما إذا كانت هذه الاستراتيجية صالحة للتطبيق في غرب أوروبا ، رغم المحاولات المجهدة لم يستطيع البلاشفة الروس إلا أن يتبنوا علاقة تعليمية مع تلامذتهم الأوروبيين بيد أن بعض أولئك التلامذة ما كانوا أذكيا كثيراً . ولقد تميزت أفكار

تروتسكي في هذا الوقت وشاركه في ذلك البلاشفة على وجه العموم -
بوجوب اظهار البراعة في تقديم التحليلات الثانوية وبالتدريج يزداد
التشدد في تثبيت الفرضيات الابتدائية .

٢ - إذا أخذنا بعين الاعتبار الفقر السائد في ذلك العهد يعتبر كل
فلاح يمتلك حصاناً ويتحمل استئجار عامل مؤقتاً ، في صفوف الاغنياء .

٣ - قد يجد بعض القراء متعة إذا قدمت لهم في هذه « الملاحظة »
ملخصاً لتاريخ النضال الحزبي داخل صفوف البلشفية خلال العشرينات
من القرن العشرين وقد كنت بحثت في القضايا السياسية والعقائدية في
نفس النص في هذا الكتاب .

حتى وقبل موت لينين تشكل في قمة الحزب زمرة من الموظفين
المحنكين الذين كانوا قد مارسوا الخدمة لعدة أعوام في جميع أجهزة
الحزب . وعلى رأس هذه الزمرة برز المثلث (Troika) « ستالين ،
زينوفيف وكامينيف - Stalin, Zinoviev, Kamenev » وكان جُلُّ
همهم منع تروتسكي من تسلم زمام الزعامة إذا مات لينين . وبدأت
تحاك المؤامرات والمكائد المريرة وقد هزم فيها تروتسكي وهناك عدة أسباب
أدت إلى هذه الهزيمة :

أولاً لأنهم كانوا ينظرون إليه كوافد جديد أو بالأحرى كمتطفل بين
ذوي النفوذ البلاشفة ثم لأنه لم يقدر قوة التشكيل البيروقراطي الذي
يترعمه ستالين حق قدره وأخيراً لأن الحالة المتزايدة للجو المرمق اللاأخلاقي
الذي وصلت إليه البلاد « والحزب أيضاً » فسح المجال للهجوم المثلث
(Troika) المحافظ (الترويكا : وهي زحافة روسية تجرأ ثلاثة جياذ) .

٣ - عاد تروتسكي الى الكتابة عن هذه الفكرة عدة مرات محاولاً أن يجد طرقاً للتوافق فيما بين ماركسيته وفهمه لدور لينين الحاسم . كتب في مفكرته لشهر آذار سنة ١٩٣٥ ما يلي :

لو لم أكن أنا شخصياً موجوداً في بيتربورج فان ثورة اكتوبر كانت ستحدث دون وجودي بشرط أن يكون لينين موجوداً وأن يكون هو القائد . أما لو لم أكن أنا حاضراً ولم يكن لينين موجوداً لما حدثت ثورة اكتوبر : إن قيادة الحزب البلشفي ستكون المسؤولة عن هذا المنع وانني لا أرى أي ظل من شك في هذا .

فماذا جرى إذن « بالمادية التاريخية » ناهيك عن التحليل المتقن الذي قدمه تروتسكي في مختلف كتاباته التي استهدف فيها بأن يرى بأن الثورة البلشفية ما هي إلا نتيجة لازمة للتطور الروسي .

٤ - كتب سوخانوف Sukhanov كاتب المذكرات المنشفيكي الشهير بأنه عندما غادر المنشفيك والراديكاليون المؤتمر « أطلقوا أيدي البلاشفة فأصبحوا سادة للوضع فخضعت لهم الساحة الثورية بكاملها . ان نضالاً داخل المؤتمر في سبيل جبهة ديمقراطية متحدة كان له أمل عظيم بالانجاح ، ولكن بمغادرتنا للمؤتمر سلمنا بأنفسنا زمام احتكار السيادة في

في خريف سنة ١٩٢٣ أصدر جماعة من البلاشفة البارزين بما في ذلك بعض الزعماء امثال بيئاتاكوف بريثرانزسكي ومورالوف وايفان سميرنوف وأنطونوف - أوزينكو Piutakov, Preobrazhensky- Muralov, Ivan Smirnov, Antonov- Ovsenko بياناً مفصلاً هاجموا فيه الترويك (المثلث) ودعوا إلى خطة اقتصادية متوازنة وطلبوا في بيانهم إعادة تنشيط

ديموقراطية الحزب . يعتبر هذا تقدماً ملموساً نوعاً ما أثبت فيه حزب اليسار أو التروتسكيين وجودهم بشكل رسمي . لم يكن حزب اليسار المعارض حزباً متماسكاً على الاطلاق إنما برز فيه عدد من المبع الشخصيات البلشفية ثقافة أخف إلى ذلك أن هذا الحزب اكتسب تأييداً كبيراً بين الشباب .

فشعر مثلث ستالين - زينوفيف - كامينيف بالدعر والهلع وأخذوا يمارسون هجوماً وحشياً وبشكل متزايد ليس فقط على التروتسكيين وإنما ليشق كل رأي متمرد داخل صفوف الحزب . وأخذت آلة الارهاب تضرب بيد من حديد على جميع مراكز اليسار المعارض فخلعت الزعماء اليساريين من مناصبهم وهددت الجنود المتعاطفين مع اليسار بأشد أنواع الاجراءات التأديبية . واستمرت معركة المقالات والخطب والمجادلات حتى حوالى سنة ١٩٢٦ عندما اعترف تروتسكي بأنه هُزم واتخذ موقف انتظار هادئ . وبالفعل حُلّت جميع احزاب اليسار المعارضة مع أن زعماءها ما زالت لهم اتصالات ثقافية . وقد خافوا بأن يُفصلوا عن الحزب اذا استمروا في نضالهم وبذلك يُحرمون من الحياة السياسية .

وحصل أثناء ذلك انشقاق بين الترويكاف فقد خشي زينوفيف وكامينيف من السلطة الهائلة التي ما فتئ ستالين يجمعها بين يديه كما وان خشيتهم زادت بالهزيمة الحاسمة التي احاقت بتروتسكي إذ أنهم رأوا بأن ستالين لن يعود بحاجة إليهما لذلك فانهما أخذوا يحشدان مؤيديهما . في نيسان سنة ١٩٢٠ اجتمع تروتسكي وزينوفيف وكامينيف بصورة سرية ، وذلك لأول مرة منذ عدة سنوات ، (وعندها) عبر حليفاه ستالين السابقين عن خوفهما بسبب قسوة ستالين وشغفه الشديد للسلطة ،

ويظهر أنها قد تفهما أكثر من تروتسكي صفة هذا الدكتاتور وما سيؤول إليه في المستقبل ، على كل حال فقد تشكلت كتلة جديدة ، كتلة معارضة مشتركة ضمت معظم المنشقين من داخل الحزب . ويقدر عدد من تسجل في هذه الكتلة المعارضة المشتركة أكثر من ثمانمائة عضو . بيد أنه بسبب الفرع من مخالفة القيادة الحزبية فإن عدد المتعاطفين كان أكثر بشكل ملموس . لقد بلغ عدد الأعضاء المسجلين في الحزب سبعمائة وخمسين ألفاً إلا أن معظمهم كان جديداً وغير متمرس سياسياً وقد اعتادوا على الطاعة الإيجابية دون أي تساؤل تلك الطاعة التي أصبحت من قواعد الحزب الأساسية . يقدر دوتشر أن عدد الأعضاء الذين كانوا يمارسون النشاطات داخل الحزب لم يزد على عشرين ألف شخص .

لم تلاق المعارضة المشتركة أفضل مما لاقاه اليسار المعارض . لقد أصبح الآن معظم جهاز الحزب في يدي ستالين . لقد أصبح الاستبداد والظلم مألوفين عملياً وقد انحدرت المستويات الأخلاقية والمعنوية داخل صفوف الحزب إلى أدنى الدرجات . وعندما كان زعماء المعارضة يحاولون أن يتحدثوا إلى عمال مصنع ما كانوا يُمنعون بالقوة .

خلال أشهر معدودة تمكن جهاز ستالين من تحطيم العمود الفقري التنظيمي للمعارضة المشتركة وأسفر ذلك عن استسلام رسمي للقوة ، إنما لم ينتج عن ذلك منع للأراء . ومع ذلك فقد استمر النضال لمدة أخرى وفي نهاية سنة ١٩٢٧ حصلت الضربة القاضية عندما فُصل من الحزب ألف وخمسمائة من التروتسكيين ومعظم أنصار زينوفيف استسلموا وفي أوائل سنة ١٩٢٨ أرسل تروتسكي إلى المنفى كما أبعد عدد كبير آخر من المتمردين .

وبقيت هناك معركة مكشوفة واحدة وهي بين ستالين وحليف الأمس
القريب بوخارين الذي أصبح الآن زعيماً لجماعة من الشيوعيين اليمينيين .
أواسط سنة ١٩٢٩ انتهى الخصام بانتصار ستالين انتصاراً ساحقاً
وتحطمت جماعة بوخارين .

جرت جهود سرية قليلة داخل الحزب في الثلاثينات من سنة ١٩٣٠
لتنظيم معارضة لذكثاتورية ستالين ولكن هذه الجهود ذهبت أدراج
الرياح .

٤ - إن إحدى الحوادث المؤسفة تتعلق « بوصية لينين » وقد اثنى فيها
الزعيم البلشفي على الشخصيات الرئيسية المحيطة به ثم اقترح بأن يُعزل
ستالين من وظيفة السكرتير العام للحزب . طُمت معالم هذه الوثيقة
بعد موت لينين . ولكن سنة ١٩٢٥ سجل الكاتب الراديكالي الأمريكي
ماكس إيستمان Max Eastman في كتابه « منذ موت لينين » نسخة دقيقة
صحيحة عما كتبه لينين في وصيته . وعندما ألح المكتب السياسي للحزب
الذي يرأسه ستالين على تروتسكي بأن يصدر نفياً علنياً لما كتبه إيستمان فقد
اضطر تروتسكي بأن يوقع هذا البيان المذل الذي ذكر فيه « بأن كل حديث
عن وصية لينين وبكونها قد أخفيت أو انتهكت هو كذب خبيث » وقد
شرح تروتسكي فيما بعد الدواعي التي قادت به إلى هذا العمل غير اللائق
والمهين بأن زعامة المعارضة اضطرت به إلى ذلك زاعمة بأن المعارضة ليست
على استعداد للقيام بآثارة معركة لأجل هذه المسألة فاضطر إلى التوقيع
واسمُحُ لنفسي بالقول هنا أنها ليست الكذبة الأولى ولا الأخيرة التي تعتبر
« كذبة لا بد منها » على الزعماء من مختلف الشعوب والاجناس ان
يمارسوها ولكنها في ما يختص بتروتسكي تبدو مريرة موجهة . ولقد مرّت

عدة سنوات على المطابع الشيوعية الرسمية وهي تعاود نشر بيان تروتسكي لسنة ١٩٢٥ مع أن الجميع يعرفون بأنه وقّع البيان قسراً .

٥ - يلاحظ أحد كتاب سيرة تروتسكي غير المتعاطفين معه انما يظهر الفطنة على صعيد هذه الحادثة فيقول :

لا مرأى بأن نظرة تروتسكي المثالية المترفعة الفلسفية على الصعيد السياسي هي التي جعلته يُسيء فهم ما كان يحدث بالفعل ، لقد أصيب بسبب هذا بتشتت الرؤية على صعيد قوة الجهاز الحقيقي . وجعلته ، هذه النظرة المثالية ، يعتبر نفسه كنبراس للبلشفية يُعْتَدَى به لمجرد كونه متمسك بفكرة الحزب ولم يعتبر بأن فشله ذو علاقة بهيئة موظفي الحزب . (جول كارمايكل- تروتسكي) (Joel Carmichael) .

٦ - أخذ تروتسكي في هذه المقالات أولاً يُجْمَل ما سبق وفصل من الآراء الماركسية التقليدية عن البيروقراطية وأحياناً يحاول جهده لحل نظرية تفسر البيروقراطية بأنها أكثر من مجرد نقص اجتماع وحكم طبقي قال تروتسكي :

« لا يجدر بالماركسي أن يعتبر بأن البيروقراطية ليست إلا مجموعة من العادات السيئة التي يتصف بها أصحاب المناصب . فالبيروقراطية ظاهرة اجتماعية إذ انها نظام إداري محدود للرجال والأشياء وتكمن الأسباب العميقة لهذا النظام البيروقراطي في المجتمع غير المتجانس وفي الاختلافات اليومية فيما بين المصالح الحيوية لمجموعات السكان المتنوعة . يعرقل ويعقد البيروقراطية الافتقار الى ثقافة الجماهير . أما بالنسبة لنا فان مصدر البيروقراطية الجوهري يكمن في ضرورة خلق جهاز دولة يوحد مصالح

البورليتياريا ومصالح الفلاحين في حالة منسجمة تماماً ، والمحافظة على هذا الجهاز ، وغني عن البيان اننا ما زلنا بعيدين كل البعد عن هذا النظام ، وليس هناك شك بأن ضرورة الاحتفاظ بجيش قوي دائم هي أيضاً مصدر هام آخر للبيروقراطية .

٧ - لقد تأثر عدد كبير من زملاء تروتسكي الذين كانوا يرزحون تحت اعباء المنفى تأثروا كثيراً بهذه الصناعة السياسية فسارعوا الى انكار معارضتهم ووضع حد لها وقدموا الطاعة لنظام ستالين . وقد عاد كثير منهم من المنفى وأخص بالذكر هنا بريژبرازنسكي نفسه الذي أشغل عدة مناصب مختلفة الأهمية إنما لم يشغل أي منصب ذي أهمية مرموقة . ولكن جميع هؤلاء المرتدين دفعوا ثمناً غالياً لهذا القرار إذ أن ذلك قد كلفهم قطع رؤوسهم جميعاً قُبيل نهاية الثلاثينات من القرن العشرين .

٨ - ناقش هذه النقطة بشكل مقنع ف . كوهين في كتابه « بوخارين والثورة البلشفية » وفيه دراسة متكاملة لكل من يهتم بنتائج البلشفية .

٥ - التجوال والمنفى والعمل :

١ - سانهرف عن الموضوع لأسرد عليكم حادثة أعتقد انها جديرة بأن يحتفظ بها . حضر صديق لي ، وهو اشتراكي طيلة حياته واسمه لويس كوسر Louis Coser حفلة استقبال أكاديمية في كامبردج ، مساشوستس قبل بضع سنين . وكم كانت دهشته عظيمة عندما قدموه الى رجل اسمه مارك زبوروسكي Mark Zborowski الذي كان قد تبين بانه من أفراد الغستابو وانه قد لعب دوراً كبيراً في قتل رودلف كليمنت Rodolph Klement وهو شاب تروتسكي ، في باريز وبامتعاض مهذب رفض كوسر ان يصافح

زبوروسكي وقد استاء من هذا العمل عدد من الاكاديميين الأحرار الذين كانوا حاضرين . ويبدو انهم استاءوا من تصرف كوسر الذي اعتبروه عملاً غير مهذب أكثر من استيائهم من زبوروسكي الرجل ذي الماضي المشين الملتطخ بالدم ، ولقد مضى وقت طويل على بعض الأحرار ليعرفوا عن ماهية الستالينية ، ويجدر بي ان أقول هنا أن بعضهم لم يعرفوها أبداً .

٢ - تبعت هذه السياسة إحدى ملاحظات ستالين : « ليست الفاشية إلا منظمة حربية برجوازية تعتمد على التأييد النشط للديموقراطية الاجتماعية . موضوعياً تصبح الديموقراطية الاجتماعية الجناح المعتدل للفاشية والمنظمتان لا تتناقضان بل تكمل الواحدة الأخرى ليستا متضادتين بل توأمين » لا نكاد نستطيع أن نقدم مثلاً على هذا الحديث إلا قول فولتير : السخافة تؤدي إلى الوحشية .

٦ - التراث الأخير :

١ - يقدم هذا التقرير دليلاً ممتعاً عن أفكار تروتسكي في أواخر أيامه . فعندما سأله فاينرتي Finerty إذا كان للحكومة الثورية الحق بأن تلجأ الى الارهاب أجاب تروتسكي : إنه ليس حقاً معنوياً وأمل أنه بعد انتصار واحد أو انتصارين في البلدان الأخرى تصبح الثورات ثورات ودية تماماً . قال فاينرتي : « ثورات غير دامية » ؟ تروتسكي : « نعم ، ثورات بلا دم . ولكن الرواد قساة في كل مكان وأعتقد أن الأمريكان يعرفون ذلك أكثر مني » .

٢ - أثناء بحوثه قابل البروفيسر نيفادا Nevada السيدة ببا آيدلسن Mrs. Beba Idelson وهي زعيمة يهودية صهيونية اشتراكية في فلسطين ، وكانت قد زارت تروتسكي في المكسيك . كتبت السيدة آيدلسن في مذكراتها تقول : تحدثت معه (تروتسكي) ليس كمن تحدثت الى غريب . كنت أشعر باحساس قوي بأنه يهودي ناثه دون أرض أجداد . وقد استمر تروتسكي في مدى ثلاث ساعات يسألها أسئلة حادة عن سياسات واقتصاديات المستوطنات اليهودية . وعندما سألتها السيدة آيدلسن « هذه بلاد مستعدة بأن تستقبلك وتعترف بك فلربما تأتي الى فلسطين يوماً ما » أجابها بهدوء : « ألا تخشون من استقبالي ؟ أجابته « لا لن نخشى ، لأن فكرتنا أقوى من أي خوف من أي انسان حتى ولو كان مثلك » ومن الجلي أن تروتسكي تأثر من إخلاصها إذ عند انتهاء الحديث طلب منها « أرجو أن يبقى هذا الحديث بيننا فقط ، إن العالم لن يفهم » . لقد انتظرت تسع عشرة سنة حتى قصت قصتها .

ماذا « سوف لا يفهم العالم » لا يمكن لأحد أن يتكهن ويعرف تماماً ولكن يمكنني أن أخمن بأنه لو عاش تروتسكي مدة أطول لأصبح له الحق بدخول الدولة الجديدة الاسرائيلية تحت « قانون العودة » .

٣ - وقد قدم نظريات مماثلة كتأب يساريون امثال رودلف هلفردنج Rudolf Hilferding الاقتصادي الديموقراطي النمساوي وبعد ذلك ميلوفان Milovan دجيلاس اليوغسلافي والشيوعي سابقاً وجوزيف كارتر الاشتراكي الامريكي غير المعروف كثيراً .

فهرست

ص	
٥	المقدمة
٩	الفصل الاول : الاعوام المبكرة - النظريات الاساسية
٤٩	الفصل الثاني : اغتصاب السلطة
٧٩	الفصل الثالث : البلشفية تنال من نفسها
١٠٧	الفصل الرابع : قيام الستالينية
١٥٩	الفصل الخامس : التجوال ، المنفى ، العمل
١٨٧	الفصل السادس : التراث الاخير
٢٣٣	ملحق
٢٣٩	ملاحظات
٢٥٣	فهرست

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

صدر حديثا

في سلسلة اعلام الفكر العالمي

رامبو	كانط	هرانز فانون
اوسكار وايلد	هوغو	راسل
شتاينيك	غوته	البير كامو
برنارد شو	دستوفسكي	ماركوز
غرامشي	لوركا	غيفارا
اودن	لوكاش	هيدجر
توماس مان	غوركي	ماركس
ادغار الان بو	فيير	فرويد
ريتان	روزا لكسمبورغ	نيتشه
سبينوزا	جويس	انجلز
دوركيم	داروين	ديكارت
فلوير	تورغنيف	هيجل
فورييه	ملاغور	سارتر
بيرون	ماياكوفسكي	الدرية مالرو
سرفانتس	الدرية جيد	كافكا
بيراندللو	فوكنر	بوشكين
سان سيمون	غوغل	بريخت
مالارميه	اورويل	بيكيت
تروتسكي	برودون	اراغون
لورانس	بودلير	مقرنبي
	اناتول فرانس	ميكايليلي

